الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية

مجلة

روافد

للبحوث والدراسات

دورية دولية علمية محكّمة
يصدرها مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية _ الجزائر

العدد الثاني

رمضان 1438هـ / جوان 2017 م

P: ISSN: 2543-3563
E: ISSN: 2588-1787

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية

مجلة

روافد

للبحوث والدراسات

دورية دولية علمية محكّمة
يصدرها مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية ـ الجزائر

العدد الثاني
رمضان 1438هـ / جوان 2017 م

توجه جميع المراسلات إلى:

مدير المجلة : أ.د. بوسليم صالح ، مدير مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

على البريد الإلكتروني: Rawafid@yahoo.Fr

أو **العنوان البريدي** التالي:

جامعة غرداية ص ب 455 طريق المطار - النوميرات- بنورة ولاية غرداية 47000

ردمد (الورقي) : P: ISSN : 2543-3563

ردمد (الالكتروني) : E: ISSN : 2588-1787

تنبيه

ما ينشر في المجلة إنما يعبر عن رأي صاحب المقال

و لا يلزم أن يكون معبرا بالضرورة عن رأيها

مجلة روافد للبحوث والدراسات

مجلة دولية علمية محكمة نصف سنوية، تعنى بالدراسات الاجتماعية والإنسانية والحضارة الإسلامية.

تصدر عن مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ و الحضارة الإسلامية بجامعة غرداية - الجزائر

تنشر البحوث و الدراسات باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية.

مدير المجلة الشرفي : الأستاذ الدكتور : دادة موسى بلخير مدير جامعة غرداية

مدير المجلة : أ.د. بوسليم صالح ، مدير المخبر

رئيس هيئة التحرير: د. أولاد سعيد أحمد

مساعد رئيس هيئة التحرير: د. عمـــر مونه

أعضاء هيئة التحرير:

أ.د. بحاز إبراهيم — أ. بوعروة بكير

د. كيحول بوزيد — أ. ملاخ عبد الجليل

د. جعفر عبد القادر — أ. قروي مصطفى

د. قرليفة حميد.

أمانة المجلة : محمد لمين سويلم

الهيئة العلمية والاستشارية

من الجزائر:

أ.د عبد الحميد حاجيات	جامعة تلمسان	أ.د. العربي بن الشيخ	جامعة باتنة
أ.د عمار بن خروف	جامعة البويرة	أ.د محمد حوتيه	جامعة أدرار
أ.د السعيد فكرة	جامعة باتنة	أ.د بوسليم صالح	جامعة غرداية
أ.د محمد الأمين بلغيث	جامعة الجزائر01	د. بن الطاهر التجاني	جامعة الأغواط
أ.د باجو مصطفى	جامعة غرداية	د. مصطفى وينتن	جامعة غرداية
أ.د عبد الله قلي	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة	د.مونة عمر	جامعة غرداية
أ.د مجاود محمد	جامعة سيدي بلعباس	د. الزين محمد	جامعة سيدي بلعباس
أ.د مبخوت بودواية	جامعة تلمسان	د. أرفيس باحمد	جامعة غرداية
أ.د عبد العزيز خواجة	جامعة غرداية	د.ة. أولاد حيمودة جمعة	جامعة غرداية
أ.د دباغ محمد	جامعة أدرار	د. مصيطفى محمد السعيد	جامعة غرداية
أ.د الشايب قدادرة	جامعة قالمة	د. قدوري يوسف	جامعة غرداية
أ.د ميلود سفاري	جامعة سطيف02	د. بقادير عبد الرحمان	جامعة غرداية

من خارج الجزائر :

أ.د عبد المجيد القدوري	جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب
أ.د ليلى مزيان	جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب
أ.د جوسلين الدخلية	مدرسة الدراسات العليا للدراسات الاجتماعية باريس
دومينيك فاليريان	مدرسة الدراسات العليا للدراسات الاجتماعية باريس

أ.د فيل يب بوتري /	جامعة السربون باريس فرنسا	منصر عدنان /	جامعة سوسة تونس
أ.د سلفاتوري بونو /	جامعة بيروجيا ايطاليا	علي حسين الشطشاط /	جامعة بنغازي- ليبيا
محمد رزوق/ جا.	الحسن الثاني الدار البيضاء المغرب	عائشة محمود عبد /	جامعة عين شمس -مصر
أ.د. حليمة بوكروشة /	الجامعة الإسلامية ماليزيا	محمد أمين/جا.	سيدي محمد بن عبدالله المغرب
أ.د.سعد الدين منصور /	الجامعة الإسلامية ماليزيا	حمودى ولد حمادي/	جامعة نواكشوط موريتانيا

قواعد النشر وشروطه

أ- القواعد العامة:

- الالتزام بالقواعد العلمية والمنهجية المتعارف عليها في كتابة البحوث الأكاديمية.
- يجب أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن 25 صفحة و أن لا يقل عن 10 صفحات من مقاس:A4.
- الالتزام بالدقة العلمية والاستقصاء مع سلامة اللغة .
- كتابة العناوين الرئيسية بخط عريض.
- يجب أن يتضمّن المقال ملخصين يعبران عن محتوى المقال: الأول بلغة المقال والثاني مترجم إلى إحدى اللغتين (الإنجليزية أو الفرنسية).
- الالتزام بإرسال السيرة الذاتية المختصرة.
- يجب أن لا يكون البحث قد سبق نشره.
- تخضع كل البحوث والدراسات إلى التحكيم السري من قبل محكّمين مختصين.
- للمجلة الحق في طلب إدخال التعديلات المناسبة بناء على تقارير المحكمين.
- يمنح الباحث- حسب الإمكانات المتاحة- ثلاث نسخ من المجلة التي نشر بها بحثه.
- ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي صاحب المقال، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.
- الدراسات والبحوث التي تصل إلى المجلة لا تردُّ إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

ب- القواعد التقنية :

1-كتابة النص :

- يكتب نص المقال ببرنامج وورد(**Word**)، بخط : (Traditionnel Arabic) رقم 18 ، والهوامش برقم : 14. واللغة الأجنبية بخط : **Times New Roman** برقم : 14. والهوامش برقم : 12.

- تخصص الصفحة الأولى من المقال لكتابة المعلومات الأساسية (عنوان البحث ، اسم الباحث أو الباحثين ، الدرجة العلمية ، اسم المؤسسة التي يعمل بها)، إضافة إلى ملخص البحث مع ترجمته .
- إذا تضمن المقال جداول أو أشكالا فيجب أن توضع في مكانها المناسب مع ترقيمها .
- يرجى تجنب استخدام برامج أخرى في المقال كبرنامج :Excel. في الجداول وغيرها.

2- الهوامش:

- يجب أن تكون الإحالات آلية تهمش أسفل الصفحة.
- تسجل الإحالات عند أول ذكرها كما يلي : رقم الإحالة ، المؤلّف ، عنوان الكتاب ، المحقّق ، دار النشر ، مكان النشر ، تاريخ النشر ، الجزء ، الصفحة .
- إذا كانت الإحالة إلى مقال منشور في دورية تسجل كما يلي :
  رقم الإحالة، المؤلِف، عنوان المقال، اسم المجلة، البلد، العدد، السنة، الصفحة.
- في حال تكرار المصدر أو المرجع يكتفى بـ : المؤلّف، مرجع سابق، الصفحة.

تنبيه: للمجلة أن تطلب من صاحب المقال إعادة الالتزام بالمواصفات الفنية المعتمدة.

محتويات العدد

افتتاحية العدد

أ.د. أحمد أولاد سعيد ، رئيس التحرير 01

- مقاومة الجزائريين لسياسة التوسع الاستعماري

د. محمد بليل – جامعة ابن خلدون – تيارت..... 03

- التحرشات الاسبانية على سواحل المغرب الأوسط

الطالبة : أسماء ابلالي – جامعة أدرار..... 33

- التأثير السياسي للطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث

الطالب: الهادي هارون – جامعة غرداية 66

- تجارة القوافل بين الجزائر و افريقيا في العهد العثماني ودورها الحضاري

الطالب: أوزايد بلحاج – جامعة غرداية 93

- الحكم الشرعي في التسويق الشبكي

الطالب: عبد الرزاق الشرع – جامعة غرداية 127

- سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية

الطالب : علي حسيني – جامعة غرداية 159

- التكفل النفسي بجنوح الأحداث دراسة تحليلية

الطالبة: تاشعبت ياسمينة – جامعة ورقلة 184

كلمة العدد الثاني

تطل علينا مجلة "روافد" بحلة من المواضيع العلمية في تاريخ الجزائر الحديث والمغرب و إفريقيا جنوب الصحراء ، إضافة إلى مقالات في الشريعة الإسلامية وعلم النفس الاجتماعي، وما ذاك إلا رعاية لخط بحثها الذي يعتني بتخصصات العلوم الانسانية و الاجتماعية.

تنوعت البحوث التاريخية في هذا العدد بين التاريخ الوسيط و الحديث والمعاصر: انتقينا منها مقال "مقاومة الجزائريين لسياسة توسع الاحتلال الفرنسي بمنطقة الجنوب" للدكتور محمد بليل من جامعة تيارت، الذي قدم جهدا مشكورا هو ثمرة فحص وثائق أرشيفية فرنسية متخصصة في الموضوع؛ وفي سياق جهود الجزائريين في مقاومة الاحتلال كتبت الأستاذة أسماء ابلالي من جامعة أدرار حول "التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10 هـ/16 م"؛ أما الباحثان الهادي هارون و أوزايد بلحاج (طالبي دكتوراه إشراف الأستاذ الدكتور صالح بوسليم)، فقد ولجَا باب تأثير الجزائر في إفريقيا جنوب الصحراء: الأول من خلال مقال "التأثير السياسي للطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء"، و الثاني من خلال بحث "تجارة القوافل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد العثماني ودورها الحضاري". كما ناقش الطالبان شرع عبد الرزاق و حسيني علي (إشراف أ.د. بوزيد كيحول، جامعة غرداية) موضوعين ذوي أثر بالغ في عالم المسلمين المعاصر: "التسويق الشبكي" و "السياسة الجنائية"، من خلال تحليل مفهومهما وبيان الحكم الشرعي فيهما. و في العلوم الاجتماعية تقدمت الطالبة تشعبت ياسمينة، من جامعة ورقلة، بمقال عنوانه" التكفل النفسي بجنوح الأحداث: دراسة تحليلية".

تتقدم إدارة مجلة روافد بشكرها الخالص لسائر الأساتذة المشاركين في هذا العدد الثاني، و تجدد ترحابها بإسهامات الأساتذة و الباحثين من كل الجامعات و مراكز البحث، داخل الجزائر و خارجها، وباللغات العربية، الإنجليزية و الفرنسية في حقل الدراسات الانسانية، الشرعية و الاجتماعية لإثراء أعدادها القادمة، راجية من الله ﷻ التوفيق و السداد.

رئيس التحرير / أ.د. أحمد أولاد سعيد.

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

مقاومة الجزائريين لسياسة التوسع الاستعماري بالجنوب الشرقي للجزائر

1850-1918 – من خلال وثائق أرشيفية –

د. محمد بليل

جامعة ابن خلدون – تيارت

ملخص :

قامت القوات الفرنسية الغازية باحتلال الجزائر، و التوجه نحو الجنوب الجزائري الكبير بهدف التوسع على حساب أراضي الجزائريين و إقامة إمبراطورية استعمارية كبرى في إفريقيا ، في إطار المنافسة الاستعمارية مع بقية الدول الأوربية . إلا أن الجزائريين بهذه المناطق واجهوا فيالق الحملات العسكرية المتوجهة نحوهم بروح وطنية و دينية لوقف زحف هذه الحملات وتكبيدها خسائر فادحة رغم اختلال موازين القوى بين الطرفين، و استطاعوا تأخير وصول هذه القوات إلا في نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، ما يثبت قوة تشبث الجزائريين بوطنهم و دينهم وهويتهم التاريخية تجاه عدو لا يرحم أحدا، ما حتم على الجزائريين الدفاع عن بلداتهم و مناطقهم بروح قتالية عالية، اعترفت بها تقارير و مراسلات قادة الحملات العسكرية لمسؤوليهم لدى الحكومة العامة في الجزائر و حكومة المتربول بباريس. و لهذا الغرض سوف نحاول الإجابة على إشكالية هذه الورقة البحثية، المتمثلة في تحدي الجزائريين لسياسة التوسع الاستعماري بالجنوب الشرقي الجزائري، انطلاقا من واحات الزعاطشة إلى منطقة الأهقار التي استعصت على الجيش الفرنسي و قادته العسكريين إلا في بداية القرن العشرين، ممن خلال قراءتنا لعينات من و وثائق أرشفية متعلقة بتقارير لضباط عسكريين و مسؤولين عن مهام التوغل بالجنوب الجزائري الكبير ، تبين لنا جزء هاما من الحقيقة التاريخية حول الصراع بين الجزائريين و السلطة الاستعمارية المحتلة للجزائر وفق معطيات محلية و دولية ، إذ كان الجنوب الجزائري يندرج في إطار مسعى الاستعمار الفرنسي لربط شمال الجزائر بالسودان الغربي وتأسيس إمبراطورية فرنسية كبرى بهذه المناطق .

Résumé

Les troupes d'invasion françaises occupèrent l'Algérie, dirigeons vers le grand sud algérien dont le but de faire l'extension dans le territoire des Algériens et la création d'un empire colonial majeur en Afrique, dans le cadre de la concurrence coloniale avec les pays européens

Cependant , les Algériens dans ces régions ont opposés les campagnes militaires dirigeaient vers eux avec un esprit nationale et religieuse pour arrêter l'avancement de ces campagnes qui ont obtenu des pertes importantes, malgré le déséquilibre des forces entre les deux parties, et ont réussi à retarder l'arrivée de ces force jusqu'a à la fin du XIXe siècle et au début du XXe siècle, et cela nous prouve que les Algériens se sont liées a leur religion et leur identité historique face a un ennemi impitoyable envers quiconque, ce qui a nécessité les Algériens à défendre leurs villes et leurs zones avec un esprit combativité élevés, reconnus par les rapports et les correspondance des dirigeants des campagnes militaires a leurs représentants du gouvernement général de l'Algérie et le gouvernement du métropole a Paris . Et pour cette raison , nous allons essayer de répondre au problématique de cette intervention ; le défi des algériens a la politique de l'expansion coloniale dans le sud-est de l'Algérie, des oasis Azaatcha jusqu'a la région des monts du Hoggar qui a défié l'armée française et ses commandants militaires, qu' au début du XXe siècle ,d'après d'une lecture des échantillons de documents d'Archives , liées aux rapports des officiers militaires et de responsables des tâches de pénétration dans le grand sud algérien, qui nous indique une partie importante de la vérité historique sur le conflit des Algériens avec la puissance coloniale qui occupé L'Algérie, selon des données locales et internationales, comme ce fut le sud Algérien qu'une partie d'un effort de la colonisation française à relier le Nord d'Algérie avec le Soudan Ouest et la création d'un vaste empire français dans ces régions .

مقدمة:

ظلّت الصحراء الكبرى بعيدة عن متناول القوى الاستعمارية الكبرى، بسبب انشغالها بالصراع فيما بينها من أجل مناطق النفوذ في أسيا و إفريقيا جنوب الصحراء ، لكنها انتبهت إلى أهمية هذه الرقعة الجغرافية التي تشكل الصحراء الجزائرية جزءا مهما منها ، إضافة إلى أنها تشكل حلقة وصل هامة بينها و بين المستعمرات الفرنسية جنوب الصحراء الجزائرية .

و لهذه الغاية اشتدت حمى التنافس الاستعماري بين القوى الأوربية الكبرى في نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر ، بعدما حسمت هذه الدول الاستعمارية قرارها ،بضرورة الانتهاء من استعمار القارة الإفريقية كاملة ، حيث استغلت فرنسا الظروف الدولية و الداخلية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية وولاياتها بالمشرق و المغرب الإسلاميين لتحاول احتلال بوابة إفريقيا ، المتمثلة في الجزائر المحروسة سنة 1830، وكانت فرنسا الاستعمارية تهدف من وراء غزوها للجزائر ،استكمال مشروعها الاستعماري ،بتوجهها نحو الصحراء الجزائرية الشاسعة.

و أصرّ قادتها العسكريون المؤيدون للغزو الشامل [1] على إنجاز مشروعها الاستعماري الكبير في عهد مهندس بناء الإمبراطورية الفرنسية "جول فيري" الذي كان يرى الأهمية القصوى في ضرورة ربط الصحراء الجزائرية بمستعمراتها الإفريقية [2]، حيث عثرنا في زيارتنا العلمية لمركز الأرشيف في ما وراء البحر بإكس بروفانس والمصلحة التاريخية للجيش البري الفرنسي بفنسان بفرنسا على علب أرشيفية كشفت لنا تقاريرها عن معطيات الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية ، و مقاومة سكان هذه الأقاليم لسياسة التوسع ومواجهتهم لقادة الحملات العسكرية بروح وطنية عالية من خلال مراسلات وتقارير هؤلاء الضباط العسكريين أنفسهم ،الذين كتبوا تقارير عن مسيراتهم و مقتل بعضهم من خلال الأخبار الواردة في صحافة فرنسا الاستعمارية، و قد أفادتنا هذه المادة الإخبارية بالسياسة الواضحة لسياسة التوسع الفرنسي في جنوبنا الكبير ومنطقة أقصى الجنوب الشرقي للجزائر مع تحفظاتنا على

المبالغة في سرعة اختراق الصحراء الجزائرية و الحرب النفسية المسلطة على ساكنة هذه الفيافي الكبيرة .

و في إطار قراءتنا المتواضعة لما ورد في هذه التقارير الأرشيفية، سوف نعالج إشكالية الاهتمام الفرنسي بالمنطقة و محاولات فرنسا بناء امبراطورية استعمارية كبرى بإفريقيا و مسيرة الحملات الفرنسية و ومقاومة الجزائريين لهذا التوغل الفرنسي بالجنوب الشرقي للجزائر من خلال ثورات سكان المنطقة و تعاونهم مع الحركة السنوسية بالجنوب الليبي، لرفض السيطرة الاستعمارية، و ذلك من أجل استخلاص نتائج هذا الاحتلال و انعكاساته على شعوب المنطقة ، هذه الأخيرة التي لم تستكن لهذا الغزو الاستعماري و واجهته بوسائلها الخاصة من خلال تأخير احتلال المنطقة إلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى.

1-الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية:

احتلت فرنسا الجزائر في الخامس جويلية 1830م ، بعد حصار طويل لمدينة الجزائر و توقيع وثيقة الاستسلام بين الداي حسين و حاكم الجزائر ، بعد ما تمكنت الجيوش الفرنسية بقياد قائد الحملة الفرنسية " دي بورمونت De Bourmont [3] من اختراق دفاعات الأسطول الجزائري بسطاولي واحتلال حصن الإمبراطور وهزيمة الجيش البري للداي بسبب أخطاء صهره إبراهيم أغا ، مما نتج عنه دخول القوات الغازية للجزائر و احتلال القصبة ، حيث بدأ قادتها و حكامها العامون يفكرون في التوغل إلى عمق الجزائر، المتمثل في جنوبها الكبير من أجل القضاء على انتفاضات الجزائريين ،التي كانت تجد في المناطق الداخلية و الجنوبية ملجأً أمينا للمجاهدين و ثوارها ، و قد كشفت لنا التقارير و اخباريات التوسع لفيالق الجيوش الفرنسية أهمية الصحراء الجزائرية بالنسبة للسياسة الاستعمارية جغرافيا و اقتصاديا وسياسيا .

أ- الإطار الجغرافي و البشري للمنطقة :

فسرت لنا العديد من الدراسات الجغرافية و التاريخية و العلمية ، أهمية الصحراء الكبرى الجزائرية و الإفريقية ، وأبرز أدوارها الحضارية من خلال المعاينات الميدانية و الرحلات الاستكشافية من عسكريين فرنسيين و مغامرين فرنسيين ، اخترقوا الصحراء بغية أهداف استعمارية و دواعي علمية حسب آخرين و كانت أولى تلك الاحتكاكات بالصحراء الجزائرية في بداية الاحتلال ،حملة الجنرال كافينياك حسب ما يذكر الدكتور فليكس جاكو Félix Jacquot(4) في مذكراته حول البعثة الصحراوية ، حيث ذكر بأن هذه الرحلته، تمخض عنها دراسات علمية حول اكتشاف بوابة الصحراء، موضحا مدى استفادته من الدراسات السابقة للمستكشفين الأوربيين الإنجليز و الألمان ثمّ الفرنسيين.

بينما تطرقت دراسات أخرى بشكل مفصل للمعطيات الطبيعية للبيئية الصحراوية التي تتميز بمظاهر تضاريسية ومناخية مشتركة ،حيث وضحت لنا تقارير الصحفيين الفرنسيين، إضافة لتقارير ضباط الحملات العسكرية المختلفة ، المرسلة للحاكم العام في الجزائر و وزير الحربية الفرنسي ، حول إنجاز دراسات متخصصة لهذه الصحراء الكبرى المترامية الاطراف ، من أجل وضع تصور مستقبلي لمرور القوات الفرنسية و حماية القوافل التجارية و بسط السيادة الفرنسية على مناطق الهقار و التاسيلي وربطها بالمستعمرات الفرنسية بالسودان الغربي؛و مراقبة تحرك القوات الاستعمارية الأخرى بالسودان الشرقي و ليبيا، في ظلّ المنافسة الاستعمارية ، من خلال بناء أبراج المراقبة و التفاوض مع القبائل الصحراوية النشيطة في الجنوب الجزائري، بهدف إخضاعها أو اتقاء شر هجماتها (5) .

و قد وصفت العديد من الدراسات المعاصرة ، المعالم الجغرافية بمختلف مظاهرها الطبيعية موضحة (6)، أنّ الصحراء الكبرى تغطي مساحة الثمانية ملايين كيلومتر مربع و تشترك فيها دول عديدة ، كدول الساحل الإفريقي جنوب الصحراء و بلدان المغرب العربي الكبير، و هي عبارة عن مناطق واسعة بها أراضي صالحة للزراعة ، تتواجد بها العيون و الآبار و الأشجار المثمرة كالنخيل و أيضا مجموعة من

القفار الواسعة الجافة الرملية التي تسقط بها أحيانا بعض الأمطار و تخترقها بعض الأودية شبه الجافة التي تحدث أحيانا بعض الفيضانات المفاجئة.

و وصف لنا أحد الضباط الفرنسيين [7] هذه الصحراء ، خصائصها الطبيعية بشكل مفصل من حيث سهولها المتمثلة في الرق ، الصالحة للمواصلات و الكثبان الرملية المتمثلة في العرق، حيث يجد نوعين منها في شرق و غرب الصحراء الجزائرية ، و لذلك نستخلص من هذه الدراسات ، أن الصحراء الجزائرية تمثل جزءا هاما من هذا الفضاء الطبيعي الواسع ، الذي يمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، بها مظاهر تضاريسية متنوعة كالسهول المنخفضة و الرملية و الهضاب الصحراوية (تادمايت) و المرتفعات القديمة (الطاسلي و الأهقار و التبستي) ، ومناخها جاف حار و بها أودية شبه جافة و غطاء نباتي ضئيل و ثروة حيوانية أليفة كالجمال و أخرى متوحشة كالغزلان و الذئاب والطيور [8] .

و تتميز الصحراء الجزائرية بكبر مساحتها مقارنة بدول الساحل الإفريقي و لها حدود مع العديد من هذه الدول وتتميز أيضا بطابعها الجبلي من خلال وجود جبال الهقار ذات البنية البركانية و القمم العالية، القاتمة اللون و التي تحدها مناطق جغرافية صحراوية أخرى في الجزائر منها "تديكيلت و عين صالح في الشمال الغربي ومرتفعات الطاسيلي وجنات في الشمال الشرقي و منطقة تنزروفت غربا وعين قزام جنوبا [9].

أما من الناحية الديموغرافية، فالصحراء الكبرى تتميز بخصائص متعددة [10]، أبرزها التركيبة القبلية المتنوعة ما بين السكان الأصليين المتواجدين بالمنطقة المعروفين تاريخيا بالبربر أو الأمازيغ من قبائل متعددة أبرزها صنهاجة الجنوب و زناتة اللتان تصارعتا حول المراعي ، سكنت الواحات و بنت المدن و القرى بإقليم توات وفروعه بتديليكت و تيمون و تمنطيط و أدرار و أيضا واحات بوسعادة والزيبان وبسكرة و الأغواط و توقرت و واد الساورة ، و تميز أقصى الجنوب الجزائري بوجود السكان الطوارق الذين تميزوا عن غيرهم من سكان الصحراء الذين عرفوا بالملثمين[11]، حيث اتفقت الكثير من المصادر و المراجع على أصولهم الأمازيغية المنسجمة مع عادات و تقاليد سكان الصحراء العرب [12] .

وركّز أحد التقارير الصحفية الفرنسية على الدراسة الديموغرافية ، عن أبرز قبائلهم وتشكيلاتهم و عدد سكانهم وصنفهم إلى مجموعات رئيسية كالأتي [13]:

- البربر أو الأمازيغ حول إقليم الهقار - قبائل التبو بتبستي (تشاد وليبيا)- وأيضا قبائل بوركو بتبستي ، و يذكر التقرير أنّ هذه الأخيرة من أصول عربية بسبب تمتعهم بالروح الاستقلالية ،فلا يخضعون إلا لقادتهم المباشرين أو للسلطة الاستعمارية بواسطة القوة، يمتهنون حرفة الرعي و تربية الجمال و كان عدد السكان حسب نفس التقرير الصحفي 60 ألف نسمة و تواجدوا بمواقع مميزة منها ، "أداردوتشي" Adardoutchi و دومرقو Domergou وتسكن كل قبيلة خيامها بشكل جماعي والاستقرار مع جمالهم حول آبار المياه في مناطق محددة ، و أبرز تجمعاتهم حسب **الأهل** التي تعني في لغتهم "**كال**":

- كال آجارAjjer و كال أهقارAhgar و يتواجد هذان الصنفان بالشمال شرقي للطاسيلي وغرب الهقار

- كال أييرAIR و كال أيوليدان Kel Aouellimiden، و يتمركزان بالجنوب من تشاد شرقا إلى تومبوكتو غربا .

و وصف لنا التقرير السابق تصرفاتهم و صفاتهم و دور المرآة التارقية و تحررها و طبقاتهم الاجتماعية من أشراف البربر و التابعين من نفس الجنس و الخاضعين لهم "كالبلاح" les Bellahs من الهاوسا في غرب إفريقيا منهم الحدادون و العبيد وغيرهم .و واصل نفس التقرير ،ذكر أهم حواضرهم كتومبوكتو و غدامس وآقاديس و تامنغاست،ولذلك نعتقد أن الإدارة الاستعمارية حاولت التأثير عليهم من أجل إخضاعهم للسيطرة الفرنسية ، فقامت بإعداد دراسات عديدة حول أصولهم و حضارتهم عبر التاريخ من أجل بسط سيادتها على جنوبنا الكبير و فصلته عن الشمال الجزائري وفق" مرسوم قانوني لسنة 1902" [14] .

و بالتالي تناول هذا التقرير الصحفي بشكل شامل الماضي التاريخي و التطور الديموغرافي لسكان الصحراء الجزائرية ، إضافة للخصائص الحضارية التي يتميز بها

أقصى الجنوب الجزائري الذي عرف حضارات عبر التاريخ من خلال الشواهد الأثرية [15]، و يبدو أن هذا التقرير الصحفي قد تأثر بالدراسات الاستكشافية ، التي حاولت تبرير غزو الصحراء و حماية الطوارق من العرب و زرع الفتنة الإثنية بين سكان الصحراء ، رغم أن المسلمين الفاتحين انصهروا مع سكان المنطقة الذين لعبوا دورا بارزا في نشر مظاهر الحضارة العربية الإسلامية [16] .

و خلال انعقاد المؤتمر الإسلامي بتمنغاست بالجزائر ، ألقى العديد من الباحثين الجزائريين و الأجانب مداخلات هامة حول منطقة الهقار و معالم حضارة الصحراء و فندوا روايات المستكشفين الأوربيين لتاريخ المنطقة و أماطوا اللثام عن الكثير من المغالطات التاريخية[17]،و أن الاستعمار الفرنسي كانت له أسباب و دوافع حول الاهتمام بالصحراء الجزائرية.

ب- أسباب الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية

تعرضت القارة الإفريقية و الصحراء الكبرى لمنافسة حادة للقوي الاستعمارية الأوربية ، حيث عرفت توافد مجموعة من المستكشفين و المغامرين ، بهدف التعرف على كل ما يتعلق بهذه المناطق، ذلك أن الأوربيين عرفوا الصحراء الكبرى خلال العصور الوسطى وركزوا على التبادلات التجارية المزدهر القائمة ين تجار شمال إفريقيا و السودان الغربي، من خلال ما كتبه الرحالة المسلمون وجغرافييهم ، و المعلومات التي كانت تصلهم من تجار البندقية و الإمارات الايطالية [18] ،خاصة في عصر الكشوفات الجغرافية، فتعرفوا على طرقها و مسالكها و تتبعوا أيضا مجاري مياهها،و شجعوا على إرسال البعثات الاستكشافية و العلمية و المخباراتية لأخذ معلومات دقيقة عنها.

و قد اشتد التنافس الأوروبي على القارة الإفريقية في العصر الحديث بين الفرنسيين والإنجليز والألمان ، وذلك من أجل إيجاد أسواق لمختلف المنتجات الأوروبية، وإيجاد مجال لإسكان فائض السكان، و التنافس في مجال الدراسات العلمية،وتكونت لهذا الغرض عدة جمعيات جغرافية علمية أهمها:الجمعية الإفريقية African Association ، عام 1878 بإنجلترا ، وحددت أهداف علمية

وإنسانية بهدف معرفة الصحراء معرفة علمية و التوغل داخل القارة الإفريقية،و لهذه الظروف خشيت فرنسا من المنافسة الأوربية بهذه المناطق ، فلحقت بركب المتنافسين فحققت جزءا من مبتغاها عند احتلالها للجزائر، و توجهت جنوبا لاختراق الصحراء الجزائرية و ربطها ببعض المستعمرات التي نافست بها القوى الأوربية الأخرى عليها، بحصولها على أجزاء معتبرة من إفريقيا الغربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر،و اعترف له مؤتمر برلين الاستعماري الأول سنة 1878 بتحقيق توسيع امبراطوريتها إلى تونس ثم برلين الثاني 1884 الخاص بتقسيم القارة الإفريقية، الذي منحها الغرب الإفريقي و صحاريه الشمالية بفضل سياسة التوسع لجول فيري" السابق ذكره [19]، ذو النزعة التوسعية ، فكانت الصحراء أبرز محطة في مخيال القادة العسكريين الفرنسيين ،بربط الجزائر الشمالية بالصحراء الكبرى ، للدوافع والاهتمامات التالية:

أ- التعرف على المناطق الواسعة جنوب الجزائر، حبا في روح الاستكشاف والتعرف على إمكاناتها الطبيعية و البشرية و الاقتصادية،حيث تطرق الدكتور يحي بوعزيز في بعض دراساته [20] لهذه الرحلات الاستكشافية منها: البعثات الاستكشافية التي مهدت للاستعمار الفرنسي لمنطقة الهقار و التاسيلي أمثال بعثات "هنري دوفيري" إلى بلاد المزاب و التوارق و"بيرتاردتانو"إلى جنوب طراباس وغدامس و إلى بلاد التوارق أزجير وتاسيلي و "دو"إلى عين صالح و تديكلت و"فلاترز" إلى بلاد الطوارق" وفردیناند فورو" و "لامي " و فلاماند "إلى عين صالح و تديكالت و"فيالات "التي هدفت اختراق الصحراء من تديكالت إلى النيجر عبر الهقار وبعثة" كورتي"التي جابت مناطق عديدة من الصحراء، و قد قامت هذه البعثات خدمات جليلة للجيوش الفرنسية المتوجهة نحو قلب الصحراء،بمعرفة طبوغرافية المنطقة ومناخها و تركيباتها القبلية و خصوصياتها السياسية والديموغرافية و الاجتماعية والاقتصادية ، من خلال دراسات الضباط الفرنسيين أمثال دوفيري و لاميو فورو الذين وصفوا عمق الصحراء و أهميتها الاستراتيجية بالنسبة لسياسة التوسع الفرنسي بالمنطقة [21].

و في إطار تربصنا العلمي بدور الأرشيف الفرنسية ،عثرنا على عدة علب بالمصلحة التاريخية لأرشيف "فانسان حول التتبع الكرونولوجي للحملات العسكرية المنطلقة من شمال الصحراء كالأغواط و بسكرة و وورقلة و واد سوف، حيث تمكنت القوات الفرنسية من السيطرة عليها بعد معارك مع أبطال المقاومة الجزائرية في هذه المناطق،و وضحت التقارير اليومية للفيالق الفرنسية المتجهة نحو الصحراء بوصف يومياتها و معاركها و مشاكل الطرق و عتادها و مئونتها ومراسلاتها للقيادات العسكريةفي شمال الجزائر [22] .

ب – أسباب اقتصاديه تمثلت في البحث عن الطرق التجارية بالصحراء الإفريقية الكبرى ،بالمدن التي احتلتها في شمال الصحراء الجزائرية كباتنة و بسكرة و الأغواط وورقلة ، و قام الضباط المكلفون بالغزو بوضع حاميات عسكرية ، وتعيين بعض الجزائريين الموالين لها على ادارة هذه المناطق بقيادة المكاتب العربية التي كان يشرف عليها الضباط الفرنسيون ،بمساعدة بعض المترجمين من الأهالي الجزائريين ، و كان لبعض المغامرين دور بارز في هذه المهمة أمثال "ديفو"و فلاترس" وغيرهم ، من خلال نشاط الحملات الفرنسية التي تمكنت من التحكم في هذه الطرق و القوافل التجارية ، حيث أولت تقارير ضباط الحملات في إطار مراسلاته لقادتهم على وجود طرق تجارية هامة يمكن الاعتماد عليها لاختراق الصحراء [23] ، و أيضا تشجيع المؤسسات و الجمعيات النشيطة في هذا المجال بعملية الاستكشاف و الاستثمار الاقتصادي [24] ،إضافة لذلك ففرنسا كانت تعاني من كساد اقتصادي ،نظرا لحاجاتها للمواد الأولية، و إيجاد مستعمراتها تتوفر على المعادن ، و يمكن الاستثمار فيها ، خاصة منذ عهد الإمبراطورية الثانية ، التي شجعت على الاستثمار في المجال العقاري في شمال الجزائر ، ثمّ توسعت في هذا المجال إلى الاستثمار المالي بالسماح لهجرة اصحاب رؤوس الأموال الضخمة ، مما شجع المستوطنون الفرنسيين بالتوجه نحو المناطق الجنوبية لتعميرها ، معتمدين على تسهيلات الضباط الفرنسيين و بناء الطرق و التفكير في مشاريع اقتصادية ضخمة [25].

و لذلك فكرت فرنسا بمشاريع اقتصادية ضخمة لربط مستعمراتها الجزائرية بالصحراء الكبرى، من خلال التفكير ببناء شبكة من طرقات السكك الحديدة العابرة للصحراء Transsaharien تمتد من مدن الشمال الجزائري كالجزائر العاصمة والبليدة و المحمدية نحو الواحات الجزائرية ، ومن ثمّ نحو عمق الصحراء و إفريقيا الغربية [26]، و فكرت أيضا في الشبكة المائية بمحاولتها شق بحر داخلي يربط تونس بالصحراء عن طريق الواحات الجزائرية [27]،و كانت فرنسا تتوخي من ذلك عدّة أهداف من بينها ربط شمال الجزائر بالمناطق الجنوبية [28] .

ج- أسباب أمنية : يظهر من خلال التقارير العديدة و المراسلات المتبادلة بين قادة الفيالق الفرنسية المخترقة للصحراء الجزائرية و مسؤوليهم السياسيين على مستوى الحكومة العامة و قادة النواحي العسكرية بوهران و قسنطينة ، من جهة وكذلك تلك المراسلات التي كانت تتم ما بين الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية و الحاكم العام في الجزائر ، كانت تصب معظمها في شقها الأمني و ضرورة التعاون ما بين جميع هذه الفرق لمطاردة قادة الثورات الجزائرية و القضاء عليها، ابتداءً من مقاومة الأمير عبد القادر، حيث افتك منه مناطق الواحات الوسطى كالأغواط و أيضا بسكرة و ورقلة ، و مطاردة أولاد سيدي الشيخ و المتوجهين نحو الإقليم الجنوبي الشرقي و التوغل بإقليم توات و انتزاعه من القبائل المتمردة و مطالب المملكة الشريفية بالمغرب الأقصى[29] ، و أيضا التوجه نحو الجنوب الشرقي بالأهقار وإقليم التبستي و عقد اتفاقية مع شيخ الطوارق، لفتح الطرق الصحراوية أمام القوات الفرنسية و حرية المبادلات التجارية و حماية سكان الجنوب من هجمات بعض القبائل المتمردة حسب زعم السلطات الفرنسية،من أجل توفير الأمن للفرنسيين الراغبين في التوجه نحو الجنوب لأعمال تجارية أو سياحية ، حيث قام الاستاذ المرحوم يحي بوعزيز بنشر نص هذه الاتفاقية في إحدى مقالاته[30].

و استخدمت فرنسا في تحقيق هذه الغاية عدة أساليب للقضاء على الثورات الجزائرية بالجنوب،من خلال الاعتماد على بعض القبائل الموالية لها و تكوين فرق من المجندين الجزائريين والمهاريست الذين يحسنون ترويض الجمال في الحرب،حيث

يوضح أحد التقارير [31]، الوضع الأمني بمنطقة الأهقار و دور هذه الفرق من المهاريست في ملاحقة الثوار.

4- **أسباب استراتيجية** :يتحدث التقرير السابق ذكره [32] عن اهتمامات القيادة العسكرية بالجنوب ، خاصة منطقة الهقار، حيث يوليها اهتماما بالغا ، بضرورة ربط المستعمرات الفرنسية بالساحل الإفريقي بجنوب الجزائر ، و التكفل بسكان هذه المناطق ،بالسماح لهم بالرعي في منطقة كيدال بمالي و تخفيض أعباء الضرائب المفروضة على الرعايا الفرنسيين بالجنوب الجزائري ، و يطلب هذا التقرير توضيحات حول المشاكل الأمنية القائمة على حدود المستعمرتين الفرنسيتين[33] .و لا يتأتى ذلك إلا بإيجاد قدم لفرنسا الاستعمارية بقلب القارة الإفريقية و التصدي للمنافسة الاستعمارية الأوربية ، خاصة الإيطالية على الحدود الجنوبية الشرقية، بمحاولة هذه الأخيرة التوسع بإقليم فزان و غدامس و كذلك روح التوسع عند البريطانيين شرق إفريقيا بالسودان الشرقي ، مما جعل فرنسا في مواجهة استعمارية شرسة مع منافسيها الأوربيين في التوغل بالصحراء الشرقية الجزائرية منذ القضاء على ثورة الزعاطشة ومن جهة أخرى مواجهة حركات المقاومة التارقية و الحركة السنوسية المتوحدتين وفق أسس إسلامية بضرورة محاربة الكافر الأجنبي.

3 - سياسة التوسع الفرنسي بالجنوب الشرقي الجزائري

أوردت تقارير الضباط الفرنسيين إلى قياداتهم العسكرية و السياسية ، أخبارا يومية و شهرية و سنوية حول تحركات القوات الفرنسية من شمال الصحراء الجزائرية نحو مناطق الواحات و أقصى الجنوب الشرقي للجزائر الذي أضحي يمثل في هذه المرحلة ، منطقة إستراتيجية بالغة الأهمية ، حيث نجد أحد التقارير يفصل لنا في إحدى الحملات العسكرية المتجهة نحو واحات توات ، انطلاقا من الجنوب الشرقي بعد بسط السيطرة الفرنسية على مدن بسكرة و ورقلة و واد سوف مركزا على مناطقها الشاسعة و قصورها الصحراوية[34].

و تقارير أخرى تناولت معلومات هامة حول بعض المهام العسكرية والعلمية المتوجهة نحو عمق الصحراء الجزائرية أمثال مهمتي "فليراند و فورو و لاميى

وغيرها كدوفيري Duveyrierوبول سولايي Paul Soleillet فلاتارس Flatters و غيرها من الحملات العسكرية الأخرى(35).

وقد كان لهذه الحملات أهدافا استعمارية، تصب كلها حول طبيعة السياسة التوسعية الفرنسية بالصحراء الجزائرية، انطلاقا من شمال الجزائر وصولا إلى مناطق أقصى الجنوب الشرقي، التي ركزت عليها التقارير الأرشيفية ، حيث ركزت التقارير المتواجدة بالمصلحة التاريخية للجيش البري الفرنسي على نوعية هذه الحملات وتوسعها بالصحراء الجزائرية ، مثلما ذكرنا سابقا ، أما وثائق مركز الأرشيف لما وراء البحر ، فهي تتناول بشكل دقيق و خاص طبيعة الحملات العسكرية و العمليات الأمنية التي قادتها فيالق و كتائب الجيش الفرنسي المتوغلة بعمق الصحراء الجزائرية مستخدمة أساليب الإبادة و الطرد في حق القبائل المقاومة لسياسة التوسع الفرنسي ، ذلك ما تعرفنا عليه من خلال وصف هذه التقارير للأوضاع الأمنية بالجنوب الشرقي لمسؤوليها العسكريين و السياسيين، موضحة لهم أهمية التوسع الفرنسي بالصحراء الجزائرية، و ضرورة التصدي لمقاومة قبائل الطوارق و إيجاد صيغ تفاهم بين الحاكمين العامين للجزائر و غرب فرنسا الإفريقي. وذلك بإعادة هيكلة هذا الإقليم و تنظيمه و توفير الأمن فيه من خلال بعض العيينات المتعلقة بأهمية احتلال الجنوب الجزائري كالآتي:

– تطرق أحد التقارير المرسلة من الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية إلى الحاكم العام في الجزائر(36)، لأحوال المنطقة الجنوبية للجزائر و مناطق غرب إفريقيا موضحا له، "بأنه سيذهب إلى "تومبوكتو"لتوسيع النفوذ الفرنسي شمال "النيجر"و أنه كلف أيضا بعض القادة العسكريين بالإشراف على التراب العسكري الأول الذي سبق لي شرحه لكم " و يواصل التقرير ساردا بعض المعطيات الاستراتيجية والعسكرية للمنطقة بتكليفه للضابط "روجي"Roujet مكان نائب العقيد "داجيرو" « dagéraud » و أخبره أيضا بتحسن الأوضاع السياسية للمنطقة الصحراء الكبرى بإشرافه الشخصي .

و نعتقد أن السياسة الاستعمارية المطبقة بالصحراء الكبرى ، واضحة من خلال هذه التقارير و المراسلات التي تؤكد ضرورة الحفاظ على الأمن و فرض السيادة الفرنسية و القيام بإجراءات سلمية Mesures Pacifique ،و حاولت القيادة العسكرية مسالمة سكان المناطق الجنوبية و التعبير لهم أن فرنسا تدافع عنهم وتريد لهم الخير من خلال اهتمامها بقضاياهم الاقتصادية ، ذلك ما ورد في تقرير أخر للملازم "ديبوميي Dépommier (37)"، قائد كتيبة "تديكالت "و ملحقة عين صالح ، الذي وضح في مراسلته ، بأن الأوضاع الاقتصادية متدهورة بمنطقة "أجار " و الهقار "بسبب الجفاف الذي ضرب المنطقة ، الذي تسبب عنه هلاك قطيع الحيوان وانخفاض الانتاج الزراعي و أيضا التكاليف الكبرى لقيمة الضرائب المفروضة على سكان المنطقة من أجل الرعي بالمناطق الجنوبية لإقليم "كيدال "وفق اتفاقية ميامي" النيجرية ، فالتقرير في نظرنا يحاول أن يشرح للقيادات العسكرية المكلفة بالتوسع في الصحراء الكبرى على أهمية ضبط الوضع الاقتصادي بهدف كبح روح التمرد عند قبائل المنطقة و توفير مناخ السلم في الصحراء Pacification du Sahara من أجل تثبيت السيادة الفرنسية على هذه المناطق ، كي لا تستغل من قبل حركات مناوئة من قبل القبائل غير الخاضعة للسيادة الفرنسية و أيضا الحركات الجهادية و الدينية الإسلامية المنتشرة في الصحراء الكبرى و التي تعمل على تحريض سكان الطوارق ضد السياسة الفرنسية مثل ما سيأتي ذكره لاحقا.

و يتناول تقرير أخر (38) إمكانية تحقيق الأمن من خلال إدراج سكان الصحراء من قبائل الشعامبة و الطوارق و التواتيين الخاضعين للسيادة الفرنسية في فرق أمنية خاصة، تساعد قوات الاحتلال العسكري الفرنسية بالجزائر و غرب إفريقيا على ضبط الأمن و فرض السيادة الفرنسية و إقرار السلم بإنشاء ما يسمى بشرطة الصحراء من الأهالي ، قاصدا بذلك عمليات التجنيد لسكان الجنوب الجزائري في الفرق الإضافية المتحركة لضمان الأمن شمال "تومبوكتو"، و اقترح السيد بونتي Ponty مشروعا يقضي في بدايته بتجنيد 50 من مهاريي الصحراء من الشعانبة في الشرطة المحلية بالسنغال و النيجر و تتطلب هذه العملية موافقة الحاكم العام للمستعمرة الجزائرية ، وحسب نفس التقرير فإن الضابط " موانيي" موافق على هذه العملية لأنها تجسد في

نظره ضبط الأمن بالصحراء الوسطى ،برد هجمات القبائل المعادية و أنه موافق أيضا على التعاون مع صاحب مشروع تجنيد الأهالي الجزائريين ضمن هذه الفرق؛ من أجل ضبط الأمن بالصحراء الجزائرية من إقليم توات إلى الأهقار و التاسيلي و التبستي ، وبالتالي فهذا التقرير يوضح لنا رغبة فرنسا في بسط سيطرتها الاستعمارية على الصحراء الجزائرية بهدف ربطها بالسودان الغربي الفرنسي .

و قد أكدّ تقرير أخر [39] مرفوع من قبل قائد فيلق فرنسي مرابط بالصحراء المدعو " منيي " Général Meynier ،قائد تراب الواحات الجزائرية إلى قائد ملحقة عين صالح ، أهمية شرطة الصحراء في الحفاظ على الأمن بهذه المناطق الشاسعة من الجنوب الشرقي وأبرز نفس التقرير ،ترتيبات تحرك القوات المتواجدة بالهقار المعروفة بمفرزة "الأجار" Ajjerالمتواجدة بهضبة "أدمار" Admer ، أنها ملزمة بأخذ الأوامر من الحكومة العامة بالجزائر ، و ذكر التقرير أيضا أن الكتيبة المتواجدة بعين صالح لا تلبي رغبات ضبط الأمن و التوسع في الصحراء و ذلك لنقص الإمكانات المالية و اللوجستيكية للحفاظ على الأمن بهذه المناطق الواسعة ولا يمكنها التحرك بالسرعة من منطقة توات إلى "الهقار" و "الأجار" بسبب بعد المسافة ، ويطلب الجنرال "منيي" من قائد الملحقة بعين صالح موافاته بتقرير حول تمركز القوات الفرنسية بالصحراء الوسطى بهدف استغلالها في المهمات القتالية ضد القبائل المتمردة في أقصى الجنوب الشرقي بالهقار و التبستي .

نستخلص من هذا التقرير، الواضح الغايات و الأبعاد ، أن القادة العسكريين كانوا في سباق مع الزمن لفرض السيادة الفرنسية على الصحراء الكبرى، بربط المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض، و هو ما يمثل أيضا في نظرنا طبيعة السياسة الفرنسية المبنية على الاحتلال الشامل و إخضاع المناطق المحتلة بالقوة ،و استخدام جميع الأساليب الأخرى من تشجيع الاستيطان و إقامة المشاريع الاقتصادية و ربط المناطق بواسطة شق الطرق و إنشاء خطوط السكك الحديدة ، بل شبكة الملاحة البحرية و النهرية ، ولكن هذه المشاريع اصطدمت بمشاكل أمنية ، تمثلت في المقاومة

العنيفة التي أبداها سكان الصحراء وقبائلهم لسياسة التوسع الاستعماري في الصحراء الجزائرية خاصة بمنطقتي الهقار و التبستي .

4 – رد فعل الجزائريين على سياسة التوسع الفرنسي باعتراف تقارير الحملات العسكرية بالمنطقة

استطاعت الحملات العسكرية الفرنسية فرض السيطرة على مناطق عديدة بالصحراء الجزائرية ، لكن هذه الحملات لم تستطع احتلال الواحات الجزائرية إلا بعد مشقة و محاولات عديدة لضباط الفيالق الفرنسية و كتائبها لاصطدامها بمقاومات واحة الزعاطشة بقيادة الشيخ بوزيان سنة 1849 ، و لكن القوات الفرنسية تمكنت من حصار القرية و السيطرة عليها نهاية سنة 1849 بفضل التفوق العددي والعسكري لقوات الاحتلال و هو ما يعبر في نظرنا للروح القتالية و التحررية لدي سكان الصحراء في بداية عمليات التوسع الفرنسي نحو الصحراء الكبرى [40] ثمّ ثورات أخرى بالجنوب الشرقي و الأوسط من الصحراء الجزائرية التي تزعمها كل من ابن ناصر بن شهرة و الشريف محمد بن عبد الله في منطقة الأغواط سنة 1851 ، و امتدت الثورة إلى غاية ورقلة و واد سوف و لكن بسبب الخلافات بين قادة الثورة وموالاة بعض الأعيان الجزائريين وبعض زعماء أولاد سيدي الشيخ تمكنت فرنسا من احتلال هذه المدن و فرض سيطرتها العسكرية عليها[41].

و توالت الثورات بالقطر الجزائري المحتل خلال توسع القوات الفرنسية نحو الجنوب الغربي باصطدامها بثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864 بسبب سياسة قادة المكاتب العربية التي ارهقت السكان بالضرائب و مصادرة أراضيهم و محاولات ضرب قادة و أعيان المنطقة ببعضهم ببعض، مما جعل قبائل أولاد سيدي الشيخ ينتفضون بقيادة الباشاغا سي سليمان و عمه سي الأعلى بورقلة و مهاجمة الحاميات الفرنسية. و في بداية شهر أبريل من نفس السنة ، أعلن الجهاد ضد الكفار الفرنسيين حسب الرسالة التي وجهها لشيخ القبائل و أعيانهم من البيض غربا إلى ورقلة شرقا وبلاد المزاب ، حيث استجاب سكان هذه المناطق لهذه الثورة التي أزعجت الفرنسيين ، رغم مقتل زعيم الثورة الأول سي سليمان إلا أن القبائل بايعت أخاه "سي

محمد ابن حمزة شقيقه ، لتندلع ثورة أخرى بقيادة إحدى فرق اولاد سيدي الشيخ بقيادة الشيخ "بوعمامة" سنة 1881،الذي هدد المصالح الفرنسية بالجنوب الغربي ليخفف الضغط على مقاومة الجزائريين بالجنوب الشرقي [42].

و سوف نحاول أن نستقرأ مرّة أخرى التقارير الفرنسية المتعلقة باحتلال منطقة الأهقار و التبستي

و مقاومة سكان هذه المنطقة لسياسة التوسع الفرنسي ،حيث كانت الحكومة الفرنسية واعية بالمخاطر التي تنتظرها بهذه المناطق الواسعة ، لذلك حاولت في بداية التوغل بهذه المناطق تبني سياسة مسالمة اتجاه زعماء الطوارق بهدف ربح موالاتهم ، فعقدت مع أحد زعمائهم المعروف بالشيخ "إيخنوخن "في 26 – 11 – 1862 معاهدة "غدامس ، هذه المدينة التي تقع على الحدود الجزائرية الليبية ، بهدف توفير الحماية للفرنسيين و التقرب من طوارق الصحراء الكبرى بفضل دعاية الراهب " دي فكو" [43]الذي اتجه في ما بعد إلى بلدة تمنغاست في أقصى الجنوب الشرق الجزائري، إلى غاية مقتله من قبل مجموعة من الطوارق سنة 1916،حيث شهدت هذه المنطقة المقاومة معارك عديدة بين ثوار الطوارق و القوات الفرنسية الغازية ،

و من أبرزها حسب العديد و الدراسات في ما يلي[44] :

– مواجهة حملة "فلاترس"الثانية و القضاء على كتيبته العسكرية بتاريخ 15 – 02 – 1881 بالتصدي لها من قبل زعيم الطوارق السيد "آهيتغال آق محمد بسكة بن الحاج البكري الذي توفى في نفس سنة هزيمة حملة فلاترس "، لكن تولى بعد قائد أخر يدعى ب"الأمينو كال **موسى آق مستان** الذي تعاون مع بعض القادة الفرنسيين المقتحمين للهقار.

– معركة أزجير ضد حملة "فورو لامي "في 12– 11 –1900

– معركة جنات في بداية القرن العشرين عقب دخول الفرنسيين عين صالح

– معركة تيت 1902 ضد قوات الضابط "كوتنيس " Cottens و معركة تمنغاست ضد حملات الضابطين لابرين و دوفوكو سنة 1904

– معركة إيليزي 1908، وبحلول الحرب العالمية الأولى ازدادت قوّة المعارك بين الثوار التارقيين

و القوات الفرنسية بتشجيع من طوارق الصحراء الكبرى و الحركة السنوسية ، حيث شهدت المنطقة خلال الحرب العالمية الأولى معارك شرسة بين ثوار المنطقة والقوات الفرنسية إلى غاية نهاية هذه الحرب، بفعل تداخل عوامل خارجية في إطار المواجهة بين تركيا – ألمانيا ضد إيطاليا التي احتلت طرابلس الغرب و الوقوف في وجه المصالح الفرنسية بالسودان الغربي .

هذه المعارك الكبرى التي وقت في التراب الجنوبي للجزائر ، تحدثت عنها التقارير الأرشيفية، و التي هي عبارة عن مراسلات بين الضباط الفرنسيين وقياداتهم العسكرية و السياسية ، تصف فيها الأحداث و الفاعلين فيها ، و بذلك فهي شهادات حية وموثقة في الأرشيف الاستعماري الفرنسي ، حيث سنقتصر في قراءة بعضها المتعلق بموضوع دراستنا :

– حاول أحد هذه التقارير[45] إعطائنا صورة حية حول العلاقات الاستراتيجية بين المستعمرتين الجزائرية و السودانية ، من خلال مراسلة القائد العسكري لمنطقة وهران برتبة جنرال ، إلى قائد الفرقة التاسعة عشر للجيش الفرنسي بالصحراء ، يستعلم منه الأحداث الجارية بأقصى الجنوب الجزائري ، ومدى فعاليات القوات الفرنسية المتواجدة بالمنطقة و يستفسر منه أيضا، مدى خضوع قبائل "أوليماندان" التارقية بالسودان الشمالي حول خضوعها لسلطات غرب إفريقيا ، أم لا زالت ثائرة ويطلب توضيحات عن الفروع المستسلمة من قبائل تايتوقس "Taitogs و كونتا وبرابيش المتواجدين بأدرار تيميساوو Timissao ، ولا شك أن هذا التقرير، يؤكد لنا على أهمية اهتمام القيادة العسكرية المحلية في الجزائر بالتوجه إلى الاحتلال الشامل للصحراء الكبرى و ربط الجنوب الجزائري بالسودان الغربي .

– و في إطار إحكام السيطرة العسكرية على الصحراء الجزائرية ، ورد في تقرير من الجنرال " ليفي " Levé، قائد منطقة عين الصفراء إلى الحاكم العام للجزائر[46]، عن الأوضاع الأمنية للمنطقة بمعاودة قبائل الصحراء في الجنوب الغربي ، وتحركاتها

ومقاومتها للتوسع الفرنسي ، بالتنسيق مع مقاومة بلاد الطوارق بالصحراء الجزائرية بالهقار و الطاسيلي .

– تقرير الضابط بيتاماورغ Bettembourg [47] من المشاة الاستعمارية بالفرقة المتنقلة بالهقار و تديكالت إلى قائد القوات الواحات ورقلة يوم 11 جويلية 1914 يعلم فيها إنجاز مشروع التنظيم العسكري لغرب إفريقيا الفرنسي (AOF) بتوحيد التنسيق بين مهاريي الجزائر و إفريقيا الغربية ضد هجمات القبائل المعادية المغربية،حيث نستشف من هذا التقرير تخوف السلطات الاستعمارية من تحالف القبائل الثائرة في الصحراء الجزائرية مع المملكة الشريفية غربا و الحركة السنوسية شرقا في تحالف مقدس ضد الصلبيين الجدد ، أو ما كان يطلق عليه" الجهاد الإسلامي المقدس ضد الكفار ".

– و في تقرير أخر عن مقاومة سكان منطقة التاسيلي بجنات [48]، يتحدث عن هجمات قبائل "الأجار" Ajjer على القوات الفرنسية المرابطة بالتاسيلي بجبل"تانتانو"Tantano و يربطها بقبائل "التبو" التارغية أو رعاة البقر مثل ما يصفهم التقرير ، و يتضح من نص هذا التقرير أن القوات الاستعمارية تريد التضييق على هذه القبائل و منعها من الاحتكاك بطوارق الجنوب الجزائري خوفا من ثوراتهم و رفضهم للسيادة الفرنسية، حيث باتوا يشكلون خطرا على المستعمرات الفرنسية بشمال السودان على الحدود التشادية – اللبية.

– و في إطار عمليات التنسيق الأمني بين قيادتي المستعمرتين بغرب إفريقيا وجنوب الجزائر، يسرد تقرير أخر[49]مرسل من الحاكم العام في الجزائر إلى وزارات الحرب والداخلية والمستعمرات، الأوضاع الأمنية بأقصى الجنوب الشرقي للجزائر من منطقة "تبو" بشمال التشاد إلى الهقار، موضحا توغل قبائل "التبو" بجنوب الجزائر ، ممارسين عمليات الغزو و الخطف ، حسب نص التقرير ، حيث يطلب الحاكم العام من قيادته العليا بضرورة الانتهاء من احتلال "جنات" ووضع حامية عسكرية مهمتها التصدي لهذه القبائل المقاومة؛ و يطالب أيضا بالقيام بالتنسيق بين القوات الفرنسية في الصحراء و قوات غرب إفريقيا ، و تعليقا على هذا التقرير، فإن فرنسا الاستعمارية

هي من مارست القمع و القتل و مطاردة الثوار و دفعهم إلى تبني سياسة الدفاع عن النفس و التحالف مع الحركات المقاومة الأخرى و فرضت عليهم خيار المقاومة والجهاد و الوقوف إلى جانب الحركة السنوسية الرافضة لسياسة التوسع الاستعماري الأوربي[50].

– و تتحدث تقارير أخرى [51] عن مراسلات بين الحاكم العام للسودان الغربي (إفريقيا الغربية الفرنسية) و الحاكم العام للجزائر عن هجمات قام بها مسلحون طوارق على المواقع الفرنسية بأقاديس" Agades شمال التراب العسكري الفرنسي بالنيجر و حاصرو الحامية الفرنسية المرابطة بالمنطقة في غياب قائدها العسكري الضابط "كلوزيل "الموجود بموريتانيا ، و أن المدينة من وجهة هذا التقرير محاصرة منذ مدّة و أن الحاكم العام لغرب إفريقيا اتخذ جميع الإجراءات لصد هذا الهجوم الكثيف المدعم بتأييد قوات تركية و ألمانية ، و يطالب مساعدات القوات البريطانية المرابطة بنيجيريا ، و هو ما نفهم منه أن المنطقة دخلت في صراع دولي بين دول الحلف الثلاثي و دول الوفاق الثلاثي، لكن حركات المقاومة التارقية بمؤازرة مجاهدي الحركة السنوسية ، هاجموا القوات الفرنسية بمناطق الهقار و التاسيلي والتبستي، المتأثرين بمبادئ الحركة السنوسية .

و حاول تقرير أخر ، خاص بالاستعلامات الفرنسية [52] ، تتبع حركات المقاومة الاسلامية ، ناسبا إياه للدعاية التركية و الجامعة الاسلامية و حلفائهما الألمان، و هو ما نلمسه في هذه الفترة ، حيث تجري أطوار الحرب العالمية الأولى ،التي امتدت من أوربا نحو الشمال الأفريقي و المستعمرات الأوربية بالقارة الإفريقية وبذلك فسكان المناطق الصحراوية بالجنوب الشرقي الجزائري واجهوا آلة الاستعمار الفرنسية التدميرية لهويتهم و شخصيتهم التارقية بروح من الجهاد و المقاومة الباسلة لفترة طويلة .

خلاصة تقييمية عن أهمية هذه الوثائق الأرشيفية في الدراسات التاريخية

نستخلص من خلال قراءتنا المتواضعة لهذه التقارير الفرنسية ،بشاعة السياسة الفرنسية ، المتمثلة في التوسع الاستعماري بالصحراء الجزائرية على حساب كرامة

سكان الصحراء؛ بمحاولة فرنسا إدماجهم في الإمبراطورية الفرنسية بالساحل الإفريقي في إطار المنافسة الاستعمارية العالمية على استغلال شعوب المنطقة ، و محاولة فصلهم عن الإقليم الشمالي للجزائر ، و بالتالي فهذه الوثائق الأرشيفية المتمثلة في تقارير استخباراتية و استعلاماتية، كانت في حينها سرية للغاية، لا يطلع عليها أحد سوى صانعي القرار الاستعماري الفرنسي ، الذين كانوا يهدفون إلى تجسيد مبدأ التوسع الاستعماري على حساب هذه الشعوب ،مما يجعلنا اليوم كباحثين عن جزء من الحقيقة التاريخية، نكتشف طبيعة السياسة الاستعمارية الفرنسية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين .

فهذه الوثائق توضح لنا بشكل دقيق، كبر مساحة هذه المنطقة و أهميتها الاستراتيجية ،بالنسبة لقادة الفيالق و الكتائب العسكرية الفرنسية ، التي استغلت المعلومات التاريخية و العلمية للرحالة الأوربيين المكتشفين للخصائص الطبيعية و الديموغرافية لهذه المنطقة ، و بالتالي ففرنسا الاستعمارية ، بررت جرائم القتل و اغتصاب الأراضي و التوسع على حساب ساكنة الصحراء الجزائرية؛ معللة ذلك بضرورة نشر الأمن و التنسيق بين حكام المستعمرات الفرنسية و محاربة القبائل المتمردة بالصحراء الكبرى، و لكنها في نظرنا لم تحاول فهم الروح التحررية التي اكتسبها سكان مناطق الأهجار و التاسيلي و التبستي مثلا من أقصى شرق الصحراء ، التي لازالت ماثلة أمامنا اليوم في رفض سكان الصحراء الكبرى التدخل الدول الكبرى في شؤونها [54].

إن هذه الوثائق الأرشيفية، تبين لنا أيضا الأهمية التي كانت تكتسبها منطقة الصحراء و الدور الحضاري و الإنساني لسكان هذه المناطق ، و الروح التحررية لسكانها المدافعين عن شرفهم و تراب أجدادهم و حبهم للحرية و عدم الخضوع للحكم الأجنبي ، و ما نلاحظه اليوم من تشبث هؤلاء السكان بهويتهم الثقافية واللغوية و احتفاظهم بتقاليدهم و عاداتهم و رفضهم للتدخل الأجنبي مرّة ثانية والاستفادة من أخطاء التاريخ ، لتظل هذه المنطقة وفية لجهاد قادتها و زعمائهم أمثال الشيخ "آمود بن المختار" الذي قاوم الاستعمار لمدة طويلة، وتحافظ كذلك على

استقلال دولها و ضرورة التعاون و التنسيق بين قادة هذه الدول ، لا كما ذكرت التقارير الأرشيفية الاستعمارية على خنوع بعض القبائل و تعاون البعض الأخر أمثال "الأمينو كال موسى آق مستان"مع الضابط الفرنسي "نديلك " Nédelec و التوسع في هذه المناطق باستخدام جميع الأساليب غير الحضارية [55].

و أن هذه الوثائق الهامة التي عثرنا عليها ضمن ركام أرشيفي ، تعكس لنا أيضا استراتيجيه التوسع الاستعمارية في بلادنا خلال الفترة الأولى من الاحتلال ، بتبني فرنسا سياسة توسعية لأقصى حد ممكن من أجل ضبط الأمن بالقسم الشمالي من الجزائري و إخضاعها بالقوة و تدمير البنية التحتية للقبائل المقاومة.

و في الأخير، فهذه الوثائق السرية للغاية في حينها ، كانت تقارير دقيقة ، وضحت بين سطورها معلومات تاريخية ، أماطت اللثام عن الكثير مما خفي عن أهداف الاستراتيجية الفرنسية في صحرائنا الكبرى من جهة ، وقدمت لنا إجابة عن إشكالية الحركة التاريخية لماضي هذه الشعوب ،لنستلهم منها العبر و الدروس، من أجل ربح معركة التاريخ ،لضمان مستقبل زاهر للصحراء الكبرى.

وحاولنا من خلال هذه الوثائق فهم جزء من الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية في توسعها بالصحراء الجزائرية والإفريقية بشكل عام و منطقة الجنوب الشرقي للجزائر منذ احتلال واحة الزعاطشة و بسكرة و واد سوف و غرداية إلى غاية الهقار و الطاسيلي والتبستي ، وتظل الوثائق التي قمنا بقراءتها ودراستها حسب وجهة نظرنا، مصدرا حيا لسياسة التوسع الاستعماري الفرسي بالجنوب الجزائري من أجل فهم طبيعة السياسة الاستعمارية المبنية على محاولات إبعاد ساكنة هذه المنطقة عن شمال الجزائر و فرض حلولا تناسب الاستراتيجية الاستعمارية لفرنسا في الصحراء الجزائرية .

الهوامش والإحالات:

1 – G.G.A , Peyermhoff, Résultat de la colonisation Officiel de 1871–1899, Alger PP 28–31

2 – دحو فغرور:" جول فيري مهندس الإمبراطورية الفرنسية "مجلة عصور الجديدة ، تصدر عن مختبر البحث التاريخي ، تاريخ الجزائر ، جامعة وعران ، الجزائر ، العدد 01 ،2011 ، ص ص 111– 122

3 – E ,Pélissier ,Annales Algériennes ed ,Anselinet gautier , librairie pour L'Art Militaire ,paris 1836 TI ,PP 50–58

4 – Félix jacquot ,Expédition du général Cavaignac dans le sahara Algérien , Avril –Mai 1847, Paris 1849 , Préface

5 – Archives Nationale D'outre mer (ANOM), Boite 28 H /2 , journal, les Annales 1913,description générale du sahara Africain 25–12 – Coloniales

6– Goudraay , Relations Commerciales de Tlemcen Avec le sahara et le Soudan in 3 bull.Soc . géo. Alger–1887, P 231

و انظر أيضا :

– يحي بوعزيز : "طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى ، كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر "مجاة الثقافة تصدرها وزارة ال'لام و الثقافة ، العدد 59 ، 1980 صص 14 –30

– ابراهيم مياسي ، من قضايا تاريخ الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 2007، صص93 –97

7 – Daumas , Mœurs et Coutumes de L'Algérie , Tell , Kabylie , Sahara librairie de C .hachette et Cie 1853 pp 237 – 242

و تناولت باحثة جزائرية مؤلف الصحراء لدوماس بشكل مفصلة وقدمّت لنا قراءة عنه موضحة تفصيل هذه الدراسة حول الصحراء الجزائرية بخصوصياتها الطبيعية المختلفة و البشري و التاريخية :

– هرباش زاجية :" الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين ، دوماس أنموذجا " مجلة عصور الجديدة يصدرها مختبر البحث التاريخي، تاريخ الجزائر ، جامعة وهران العدد 06 ، صيف 2012 ، ص ص 29 – 40

8 – احميدة عميراوي و أخرون ، السياسة الاستعمارية في الصحراء الجزائرية 1844 – 1916 ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ص ص ، 10 –16

و انظر أيضا : – ابراهيم مياسي الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1857 – 1934 ،دار هومة ، 2005، صص 13 14

9 – آمال هاشمي : " التوسع الفرنسي نحو منطقة الهقار "مجلة عصور ، يصدرها مخبر البحث التاريخي بجامعة وهران ، العدد 18 –19 جانفي – ديسمبر 2012 ص ص 261 –283

10 – مزاحم علاوي محمد الشاهري " حضارة الصحراء الكبرى من خلال مصادر العصر الوسيط "مجلة عصور الجيدة ...العدد 05 ربيع 2012ص ص 115 – 130

11– Daumas , Op cit p p 360 – 367

12 – المهدي البوعبدلي:" لقطات من تاريخ منطقة الهجار في المجالات الثقافية والحضارية و السياسية " مجلة الأصالة ، المجلد 21 ، العدد 72 وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف 2011 ، ص ص 2 – 17 و قارن مزاحم علاوي محمد الشاهري، مرجع سابق ص ص 119 –120 و آمال هاشم، مرجع سابق ، ص 262

13– ANOM ,Boit N° 28 H /2 Annales ...op cit

14 – محمد بليل ، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر و انعكاساتها على الجزائريين 1881-1914،.... دار سنجاق للكتاب ،الجزائر 2013 بتدعيم وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة الذكرى الخمسون للاستقلال ، ص 40

15- Archives Nationale D'outre mer (ANOM), Boite 28 H /2,Etude Historique de la Région Tibesti et Tribus de Tebou

16 – نعيم قداح ، حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية ،ط 2 ، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1975 صص 139-142و انظر أيضا : محمد بليل :" دور القبائل العربية في مدّ الجسور الحضارية بين الصحراء الكبرى وحواضر المغرب الإسلامي ما بين القرنين الثاني و الثامن الهجريين في إطار الملتقى المشترك بين جامعتي أدرار و تيارت ، منشورات قسم التاريخ جامعة أدرار ، أفريل 2009

17– انظر مجموعة من المقالات نشرت في مجلة الأصالة ، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف في الجزائر المجلد 21 ، العدد 72 :

– عبد الرحمان الجيلالي :" هؤلاء التوارق الملثمين " صص 35

– المهدي البوعبدلي ، مرجع سابق صص 2 – 17

– يحي بوعزيز:" اهتمامات الفرنسيين بالتوارق و منطقة العقار من خلال ما كتبوه صص 51 -62

قارن– محمد الميلي : " نماذج من تشويه بعض المؤرخين الأجانب لتاريخ الجزائر ، مجلة الأصالة ، تصدر عن وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، تلمسان ، عاصمة الثقافة الإسلامية ، 2011 ، المجلد 05 ، العددين 14 -15

18 – بوباية :" دور الرحالة و المستكشفين في حركة التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية " مجلة عصور ، تصدر عن مخبر البحث التاريخي مصادر و تراجم ، بجامعة

وهران ، العدد 4-5 1424- 1425 ه الوافق ل ديسمبر 2003 – جوان 2004، 169-180

19- Henri Brasselard ; les Deux missions de flaters Au Pays du touareg Azjer et Hoggar,2eme Edition ,Librairie furie Jouvet cie ,Paris 1889 pp2-3

و أيضا دحو فغرور:" "جول فيري مهندس الأمبراطورية الفرنسية "مجلة عصور الجديدة ، تصدر عن مختبر البحث التاريخي ، تاريخ الجزائر ، جامعة وعران ، الجزائر ، العدد 01 ،2011 ، ص ص 111- 122

20- يحيى بوعزيز ،الاهتمام الفرنسيين بالتوارق و منطقة الهقار من خلال ما كتبوه"مجلة الأصالة ، مرجع سابق ،صص 51- 68

21- Henri Brasselard , op cit P4 وأيضا يحي بوعزيز:" الاهتمام الفرنسيين بالتوارق و منطقة الهقار من خلال ما كتبوه"مجلة الأصالة ، مرجع سابق ،صص 51- 68

22- انظر تقارير يوميات الحملات الفرنسية الأغواط و واد سوف :

- Service historique de L'armée de terre , Vincennes,(Shat) Boite N° 1H/215 journal des Marches de la colonne mobile de Laghouat 25 mars – mai 1866 et Tourné dans le Sud du général Conteret mars 1874

23 – Shat ,Boite N° 1H/998 Occupation Oaisis et des Projets des Chemins de transsaharien 1879 -1901

24 – Paul Solullit, L'Afrique Occidentale ,Algérie , M'zab ,Tildikelt ; Avignon ,1877 et Henri Brasslard p p 108 -114

Cf- Mission Flaters Au Pays Touareg, Azjer et Hoggar , Paris 1889, p p 199 -204

25 – احميدة عميراوي ، مرجع سابق ، ص17

26- André Martel « Pour Une Histoire Du Sahara Français » , in Revue Française d'outre Mer, tome 55 , N° 200 3eme trimesrte1968 , PP 335-351

27 – يحي بوعزيز ، اهتمامات الفرنسيين بالتوارق ، مرجع سابق صص 51-،68

28 – محمد علي القوزي ، في تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر دار النهضة العربية ط 1، بيروت لبنان ، 2006 ، ص ص 55 -60

29 – انظر مجموعة من التقارير بارشيف فانسان بباريس :

Shat , Vincennes, Boite N° 1H/1026 Projet d'Expédition du Sahal 1882- 1892

Ibid Boit N° 1H/1028 Situation Politique des Tribus de Touat

30 – انظر يحي بوعزيز :" طرق القوافل و الأسواق التجارية بالصحراء الكبرى "في مجلة الثقافة ، مرجع سابق، ص ص 13 – 30

ANOM , Boite 28 H /2 Rapport Annuel 1913 Annexe de Ain

31 – Saleh

32- Ibid

33 - SHAT , Vincennes , Boite 1H / 1020,Correspondance Concernant des affaires Indigènes , Mouvements Insurrectionnels …1879 – 1901

Et Boite 1/H 1068 , Rapports sur la Situation des Algéros – Tripolitaines et les territoires du Sud

34- ibid ,1H/998 , Affaire du Touat ...Occupation des Oasis ...Réalisation du Chemin de Fer Ain Sefra

35- Shat, 1H/1030 Mission , et 1H /1029 Misssion Fléraud Foureau et Lamy

36 - Anom , Boite 28H/2 Correspondance entre Gouverneur Général du AOF AU Gouverneur Général de L'Algérie du 20 Décembre 1903

37 – Ibid, Rapport du chef de Commandement du Oasis de Touat

38 – Ibid, correspondance du général Moinier chef du19 em Bataillon Au Gouverneur D'Algérie le 19 Mai 1914

39 – ibid, correspondance du général Meynier chef militaire des Oasis au Capitaine chef du Annexe de Ain Salah

40 - انظر عيسى جعنيط :" مقاومة سكان الواحات للاحتلال الفرنسي في القرن 19-ثورة الزعاطشة 1849 – أسبابها – تطوراتها " مجلة الدراسات التاريخية ، تصدر عن معهد التاريخ ، جامعة الجزائر العدد التاسع 1415 ه-1995 م ص ص 141-149

و أيضا – اسماعيل العربي :"الترتيبات التكتيكية لحصار قرية الزعاطشة أكتوبر – نوفمبر 1849" مجلة الدراسات التاريخية ، تصدر عن معهد التاريخ ، جامعة الجزائر العدد التاسع 1415 ه-1995 م ص ص 151-163

41 – إبراهيم مياسي، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية .، مرجع سابق صص 109 -124

42 – يحي بوعزيز : "أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864 – 1881)" مجلة الدراسات التاريخية ، تصدر عن معهد التاريخ ، جامعة الجزائر العدد التاسع 1415 ه-1995 م ص ص 173 – 227

43- ANOM boite N° 28h /2 correspondance entre les chefs Militaires du sud algérien avec le Gouverneur Général de L'Algérie

44 -انظر مجموعة من المراجع تناولت هذه المعارك و الهجمات المتبادلة بين ثوار الطوارق و الجيوش الفرنسية : – احميدة عمراوي و آخرون ، مرجع سابق ، ص ص 53 -54

– آمال هاشمي ، مرجع سابق ص ص 266 -267

-إبراهيم مياسي ، الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية مرجع سابق 513 -560

45 - ANOM Boit 28 H/ 2 Correspondance du général chef de la Région D'Oran Au Général du 19 EM Bataillon du Sahara le 21-08 1903

46 - ANOM Boit 28 H/2 , Rapport du général Levé Au G.G.A le 14 – 02- 1914

47 – Ibid boite 28H/2 Evénements du Sud Algérien

48 – Ibid boite 28H/2,Rapport Du G. G. A, Adressé Au Ministère du Guerre et L'Intérieur – des Colonies du 13 Avril 1912

49- :قارن Shat , boit N° 1H/1073Suite de L'Attaque du Djanet ,31

50 – ibid Boite N° 28 H/ 2 Correspondance entre Gouverneur Général et Ministre des Colonies 23-12-1916

51 – Ibid, Boite N° 29H/35 ,la situation Politique et du Propagande Turc – Islamique le Cair du 29 -09 -2010 et 03 -07 - 1920

52- ibid

53 - André Martel,op cit

54- Helene Claut – Haward : « Ia question Touarègue Quel Enjeux ? »in La guerre au Mali. Comprendre la crise au Sahel et au Sahara : enjeux et zones d'ombre(Galy M. et Badie B., éds), Editions La Découverte, Paris, 2013, 125-147

55 – يحي بوعزيز : " اهتمامات الفرنسيين بالتوارق "مرجع سابق .

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م

قراءة في الدوافع والنتائج

الطالبة: أسماء ابلالي

طالبة دكتوراه – جامعة أدرار

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على أهم الدوافع التي حركت إسبانيا لاحتلال موانئ المغرب الأوسط (الجزائر) حيث يعالج بالشرح والتفصيل دوافع التحرشات الاسبانية على سواحل المغرب الأوسط (الجزائر) خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي التي كانت تهدف اسبانيا من خلالها ضم بلاد المغرب الإسلامي متذرعة بحجة تتبع المسلمين الفارين من الأندلس، مستغلة ضعف الامارات المغربية المفككة، وبهذا بدأت صفحة جديدة في تاريخ المغرب العربي أدت إلى ظهور قوة ثانية في المنطقة وهم الأتراك العثمانيون الذين هبوا لمساعدة اخوانهم في الشمال الافريقي من خطر الإسبان والصليبية خلال العصر الحديث.

الكلمات المفتاحية:

الاسبان – الأتراك العثمانيون – المغرب الأوسط – عروج – خير الدين – فرديناند – ايزابيلا – الحروب الصليبية – الزيانيون – وهران – المرسى الكبير – أندريا دوريا – محاكم التفتيش – سليم الأول – بيدرو نافارو – سالم التومي – أبا حمو الثالث – شارلكان – الانكشارية.

Summary :

Spanish harassments along the Middle West cost throughout the 16 th century A.D was considred as completion for the crusades wich stopped islamic Estern parts after started in the West. That s why we can not seprate that object from its general framework. When spain colonizes gradually the Middle West, it tried to control the small city states. But the Ottmans had faced the spanish plan whitch could change the destiny of the Midle West if it succeeded.In this article, we will try to highlight the causes behind the Spanish harassments on the ports of the Middle West and their parts of colonization in addition to this, how were The Ottmans able to free them .

Keywords:

Spaniard – Turkish Ottmans – Middle West – Arronge – KHIR–ADDINE – FRDINAD – AZABELLA – The Crusades – Alzayanion – Oran– Anderya Dourya – Chech Courts – SALIM

مقدمة:

تُعد التحرشات الإسبانية على سواحل **المغرب الأوسط** خلال القرن السادس عشر الميلادي (16م) فصلاً مكملاً لفصول الحروب الصليبية التي توقفت بالمشرق الإسلامي لتبدأ بمغربه، لذا لا يمكن فصل هذا الموضوع عن إطاره العام، فإسبانيا انتهجت في احتلالها للمغرب الأوسط المرحلية في التوغل، فبعد أن احتلت أهم الموانئ والمدن الساحلية سعت إلى القضاء على الإمارات الداخلية المفككة، إلا أن ظهور الأتراك العثمانيين في هذه المنطقة وتصديهم للحركة الاستعمارية الإسبانية والبرتغالية على حد السواء حال دون تنفيذ المخطط الإسباني الذي كان بإمكانه تغيير مصير المغرب الأوسط لو قُدر له النجاح.

فما هي الدوافع التي حركت الإسبان لاحتلال موانئ المغرب الأوسط؟ وما هي الخطة التي اعتمدتها اسبانيا في ذلك؟ وكيف تمكن العثمانيون من التصدي لهذا الاحتلال وتحرير موانئ المغرب الأوسط من السيطرة الإسبانية؟

أولاً: دوافع التحرشات الإسبانية على موانئ المغرب الأوسط[1].

إن الحديث عن أي فعل أو رد فعل لأمة ما من الأمم لابد أن يكون وراءه دوافع محركة حتى لا يكون اندفاعاً تطرفياً ليس وراءه غاية أو هدف، ومن هذا المنطلق فالتحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، لم تكن صدفة ولا بنت ساعتها، وإنما جاءت نتيجة تراكم عدة أسباب ودوافع يمكن تقسيمها إلى التالي:

1 – إن عبارة **المغرب الأوسط** التي أتفق جل المؤرخين على أنها الجزائر الحالية لم تكن تعني هذا بالضبط، فهي عبارة أطلقها العرب المسلمون مثلها مثل المغرب الأدنى والمغرب الأقصى كانت من الناحية الجغرافية غامضة غموض حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب الإسلامي، ينظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10 إلى 14 هجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: (1981)، (ج1)، ص 28.

1- الأسباب الدينيـــة.

تُعد أقواها نظراً للعداوة التقليدية ما بين الإسلام والنصرانية والتي ترجع في تاريخها إلى بداية الدعوة المحمدية، وانتشار الدين الإسلامي في أقطار العالم، وغذى هذا الصراع التعصب الديني الذي دعا إليه رجال الدين المسيحي من قساوسة ورهبان، حيث أشعلوا الحماس الصليبي لدى الجموع الأوروبية عامة والإسبانية خاصة لمحاربة الدين الإسلامي والمسلمين، فقد دعا البابا "إسكندر السادس" (بورجيا الشهير) Alexander VI Borgia[1] من مدينة روما عاصمة الكرسي الرسولي أن تسخر البلاد المسيحية طاقاتها المالية والبشرية تحت تصرف ملوك إسبانيا لإبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس، ولإخضاع شمال إفريقيا للحكم المسيحي وللديانة المسيحية[2]، كما عمل الباباوات على تزويد الجيوش المسيحية بالمال والعتاد، فاستجابت إسبانيا للنداء لكونها زعيمة العالم المسيحي وحامية المسيحية آنذاك بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية على يد العثمانيين سنة 1453م، وضعف سلطة البابا في روما بفعل ظهور حركات الإصلاح الديني في أوربا[3].

1- **البابا اسكندر بورجيا الشهير:** من مواليد جاتيفا بإسبانيا سنة 1431م أصبح بابا من سنة 1492م حتى سنة 1503م وقد مارس دوراً كبيراً حتى أطلق عليه أنه أمير أكثر منه بابا أو رجل دين، أشتهر بقسوته في تنظيم الحرب ضد المسلمين أصدر سنة 1494م عهداً يبارك به الصليبية الأسبانية بإفريقيا، ينظر، بسام العسلي: خير الدين بربروس، (ط2)، دار النفائس، بيروت: (1986)، ص 59.

2- أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، وثائق ودراسات، (ط3)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: (1984) ، ص 80.

3- **الإصلاح الديني:** هو ثورة دينية قامت في أوربا الغربية في القرن 16 م بدأت بشكل حركة إصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية ولكنها تحولت إلى حركة عقائدية عرفت بالبروتستانتية، ينظر مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية الميسرة، (ط2)، دار الجيل، بيروت: (2001)، (مج1)، ص 230.

وكُللت هذه الاستجابة بالمصاهرة التي تمت ما بين "فريدیناند"[1] الكاثوليكي حاكم أرغون و"إيزابيلا"[2] وارثه عرش قشتالة، وبهذا توحدت إسبانيا الكاثوليكية المسيحية عام 1479م حاملة على عاتقها مهمة تمسيح بلاد شمال إفريقيا الإسلامية.

فبعد سقوط غرناطة غرة ربيع الأول 897هـ/2 جانفي 1492م شنت إسبانيا حملات واسعة النطاق ضد المسلمين الأندلسيين، فقد امتثل العديد من الموريسكيين أمام دواوين التحقيق لأنهم كثيراً ما تكلموا أو أظهروا تعلقهم بالإسلام أو انتقادهم للمسيحيين[3] وانتقاماً منهم قام الراهب "هرناندو"[4] بتنصير الآلاف من المسلمين، بل وقام الإسبان بتتبع مسلمي الأندلس إلى سواحل شمال إفريقيا للانتقام منهم يحثهم على ذلك الكاردينال "اكزمينيس" (Ximenés)[5] الذي عمل على تمسيح المغاربة حتى يجنب إسبانيا خطرهم، خاصة ونحن نعلم بأن أهل شمال أفريقيا حملوا مهمة

1 - **فرديناند الخامس الكاثوليكي**: من مواليد سوز (1452-1516م) تولى الملك سنة 1474م أشتهر بأنه سياسي عنيد وجريء تزوج إيزابيلا ملكة قشتالة ووحد تقريباً كل شبه الجزيرة الأيبيرية مما ساعده على القضاء على مملكة غرناطة عام 1492م، ينظر بسام العسلي: خير الدين بربروس، (ط2)، دار النفائس، بيروت: (1986)، ص 44.

2- **إيزابيلا الأولى الكاثوليكية**: ملكة قشتالة من مواليد مدريد (1451-1504م) تزوجت من فرديناند ملك أرغون مما ساعد على توحيد إسبانيا عملت على إقامة محاكم التفتيش وشجعتها لإبادة المسلمين ودعمت وزيرها أكزمينيس لإدارتها، ينظر بسام العسلي: مرجع نفسه، ص ص (44-45).

3- لوي كارديلك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية (1492-1640)، تعر، وتقد، عبد الجليل التميمي، (ط1)، مطبعة الإتحاد العام التونسي للشغل، تونس، (1983)، ص 27.

4- **هرناندو دوتا لافيرا**:أسقف غرناطة في ذلك الوقت يُعد من أنصار النظام القديم والمتمثل في المحافظة على الوضع كما هو عليه بين المدجنين والمسيحيين القاضي بالانتصار قبل التعميد، ينظر لوي كارديلك: مرجع نفسه، ص 111.

5- **الكاردينال أكزمينيس أوخينيس**: اسمه (François Timenesde) ولد في قشتالة (1436-1517م) عين أميناً لسر المملكة سنة 1492 ثم كاهناً لطليطلة 1495 ثم حاكماً حتى وفات الملكة إيزابيلا 1504 ثم رئيساً لمحاكم التفتيش (1506-1516م)، احتل وهران 1509م أشتهر بقسوته في إبادة المسلمين وتنصيرهم، ينظر بسام العسلي: مرجع سابق، ص 45.

مواصلة الكفاح ضد المسيحيين مع الفارين الأندلسيين عقب سقوط غرناطة، فكانوا يغيرون على سواحل الإمارات الإسبانية كبلنسية وكاتالونيا وغيرها من المدن الساحلية.

ولمنع هذه القرصنة[1] – كما سماها الإسبان – سعى "فرديناند" إلى السيطرة على الموانئ التي يشن القراصنة (الغزاة المغاربة) العمليات منها، كما دعت إيزابيلا أن يحققوا أمنيتها الغالية على قلبها ألا وهي "فتح إفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار"[2]، فكان أن أرسلت جواسيسها للتعرف على أوضاع المغرب الإسلامي، فجاء تقرير جاسوسها "فرديناند زافرا" سنة 1494م كالتالي : « أن كل البلاد في حالة يبدو أن الله أراد أن يمنحها لأصحاب الجلالة»[3].

وتحت ضغوطات الكنيسة وعلى رأسها الكاردينال "اكزمينيس" جهزت إسبانيا أسطولاً ضخماً لغزو شمال أفريقيا بمباركة من البابا "ألكسندر السادس" عام 1494م، مما يدل على أن العدوان صليبي هدفه ضرب الإسلام والمسلمين في هذه البـلاد.

فالتعصب الديني والرغبة الجامحة لدى رجال الكنيسة وملوك المسيحية لتنصير المسلمين وإبعادهم عن أراضيهم في الأندلس وإنقاذ شمال إفريقيا من وحشية

1- **القرصنة**: هي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أو الواردة عليه، وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية وهي تختلف عن لصوصية البحر التي يقوم بها مغامرون من أجل السلب والنهب وانتشرت القرصنة انتشاراً هائلاً بعد اكتشاف القارة الجديدة (أمريكا)، ينظر أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 72، وكانت نوعاً من الحروب المشروعة النظامية التي شاركت فيها كل دول العالم ولم يكن المسلمون خلالها إلا مدافعين ولم يكن عندهم بحال من الأحوال (لصوصية البحر) فكانوا يسالمون من يسالمهم ويحموه ويحاربون من يحاربهم، ينظر: أحمد توفيق المدني: حياة كفاح ، (القسم الثاني)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د،ت، ص 268.

2- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 80.

3- جون، بـ وولف: الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة، الوطنية للكتاب، الجزائر، (1986م) ، ص26.

الإسلام – كما يدعون – كانت وراء تحرك الإسبان في أواخر القرن الخامس عشر (15م) لغزو سواحل الشمال الإفريقي.

2- الأسباب السياسية والعسكرية.

لم تكن أقل خطورة من سابقتها فبعد الاستقرار السياسي الذي عرفته إسبانيا على إثر توحيد مملكتي الكاستيل (قشتالة) و(الأرغون) في دولة إسبانية واحدة عام 1479م استولى "فرديناند" و"إيزابيلا" على زمام الأمور بيد من حديد تحمل السيف والإنجيل في آن واحد[1].

فبعد الانتصار الذي حققاه على مسلمي الأندلس فكرا في توسيع ملكهما لخلق إمبراطورية مترامية الأطراف فوجها أنظارهما إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي لاحتلال سواحله يحركهما في ذلك دافع التملك والتفوق والجشع الاستعماري.

ففترة الثمانية قرون التي حكم فيها المسلمون الأندلس كانت لا زالت ماثلة في أذهان الإسبان بما تخللها من حوادث وهزائم، من فتح إسلامي لإسبانيا عام 711م على يد "طارق بن زياد" ، ونجدة المرابطين والموحدين لإخوانهم في الأندلس ولجوء الأخيريْن إلى بلاد المغرب الإسلامي بعد سقوط غرناطة مستنجدين بإخوانهم هناك. لذا رأوا ضرورة تتبع المسلمين إلى مكان فرارهم (شمال إفريقيا) مدعين بأن الأساطيل الإسلامية كانت تغزو السواحل الأوروبية وتنهبها، وهذا خوفاً من أن يعيد المسلمون المغاربة الكرة عليهم ويسترجعوا الأندلس من جديد، وهو تكتيك حربي الغرض منه إفشال خطة العدو وإشغاله بنفسه في عقر داره، أي حمل الحرب إلى أرض العدو، هذا في الوقت الذي دبَّ فيه الضعف والشقاق في صفوف المسلمين بشمال إفريقيا بسبب الحروب الداخلية والفتن والنزاع على السلطة.

وهكذا جاء ملوك الإسبان والبرتغال واحتلوا أهم المدن الساحلية للمغرب الإسلامي مستغلين في ذلك الفراغ السياسي الذي حلّ بدول هذا القطر.

1- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 86.

3- الأسباب الاقتصادية.

نتج عن الحروب الصليبية[1] التي دامت أكثر من قرن (1095-1291م) ظهور مستودعات تجارية أسهمت في تطور الحركة التجارية في العالم، فترتب عن هذه الحركة التجارية التي امتدت إلى أقصى الشرق زيادة المعرفة الجغرافية، وبهذا ظهرت النزعة الاستعمارية التوسعية لدى دول أوربا، خاصة الكبرى منها مثل إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا تمثلان القوى التقليدية العظمى آنذاك، وهذا لفرض سلطانها المالي والتجاري على العالم، ساعدهما في ذلك حركة الكشوفات الجغرافية التي أطلقاها إثر سقوط غرناطة سنة 1492م بعد أن كانت مشلولة بسبب الحرب حول شبه الجزيرة الأيبيرية[2] وسيطرة العرب على تجارة التوابل آنذاك فكان من الطبيعي أن تكون إفريقيا هي المستهدف الأول نظراً لعامل القرب الجغرافي، يضاف إليه هجرة المسلمين الأندلسيين إلى سواحل المغرب الإسلامي وهي النقطة التي أفاضت الكأس، حيث وجدت إسبانيا في ملاحقتهم ما يبرر وجودها في هذه الناحية خاصة وأن شبه الجزيرة الأيبيرية بعد حركة الكشوفات الجغرافية أصبحت بحاجة ماسة إلى أسواق لتصدير الفائض من الإنتاج، وإلى ثغور ساحلية تستقبل أساطيلها المحملة.

فوُجهت هذه الحركة الاستعمارية ضد العرب المسلمين للقضاء على تجارتهم الواسعة فيما وراء البحار، خاصة تجارة التوابل في بلاد الهند، وتعززت هذه الهجمة

1- لقد تصالح المؤرخون على إطلاق **الحروب الصليبية** الممتدة بين سنتي (488-690هـ/1095-1291م) على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوربا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم، وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سادت غرب أوربا في القرن 11م، ينظر، علي محمد الصلابي: دولة السلاجقة، (ط1)، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة: (2006)، ص 429.

2- وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعليق وتقديم، عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، (1980)، ص 27.

الاستعمارية بانعقاد مؤتمر "توردي سيلاس" 1494م[1] الذي أطلق أيادي الإسبان والبرتغاليين على أراضي المغرب الإسلامي.

وعلاوة على ما تقدم ذكره فإننا إذا نظرنا للحالة أو الوضع الاقتصادي لإسبانيا في ذلك الوقت يعني في نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م نجد أنها كانت تعيش انهياراً اقتصادياً عمَّ جميع البلاد، وهذا بسبب فقدانها لتلك الطاقات الحيوية النشيطة من مسلمي الأندلس واليهود الذين أبعدتهم فشعرت بفراغ مسها في جميع المجالات حتى أصبحت حياتهم حياة كسل وخمول فانحطت الأخلاق، وبارت الأرض، واندثر العمران، وكسدت التجارة وأصاب إسبانيا انهيار اقتصادي،[2] فكان عليها أن تحتل السواحل المغربية لتدر خيرات المغرب الإسلامي على سواد شعبها خاصة وأن هذه المنطقة تحظى بموقع استراتيجي مكنها من الارتباط تجارياً مع إفريقيا الوسطى، وأن احتلالها يعني القضاء على حركة القرصنة الإسلامية التي كانت تغزو السواحل الأيبيرية آنذاك.

فجميع هذه الأسباب من دينية وسياسية واقتصادية دفعت إسبانيا إلى احتلال سواحل المغرب الأوسط، هدفها في ذلك أن تضم شمال البحر الأبيض المتوسط إلى الساحل الجنوبي منه الذي يضم سردينيا وكورسيكا وصقلية وجزر البليار لتحيي بذلك سياسة بحرنا الرومانية.

1- معاهدة **توردي سيلاس 1494م** عقدت عقب نشوب الصراع بين البرتغال وإسبانيا للوصول الى الهند عن طريق الاتجاه نحو الغرب وتأمين الأراضي التي اكتشفتها واحتلتها كل منهما بما فيها المغرب الإسلامي فتوسط البابا اسكندر السادس في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم، قضت المعاهدة أن تستولي البرتغال على كل المكتشف شرقي خط وهمي يرسم بطول المحيط الأطلسي (46و37º غرباً) في حين يكون لاسبانيا كل ما يقع غربي هذا الخط ، ينظر، عبد القادر فكاير: العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية: دورية كان التاريخية، (ع18)، ديسمبر 2012، ص 25.

2- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 89.

ثانياً: الاحتلال الإسباني لموانئ المغرب الأوسط (1505-1531م)[1].

لقد كان للأسباب السابقة الذكر سبباً في التحرك الإسباني لغزو سواحل المغرب الأوسط، فعلى إثر توقيع معاهدة "توردي سيلاس" 1494م التي قسم فيها البابا "اسكندر بورجيا السادس" العالم ما بين إسبانيا والبرتغال أشتد حماس الكاردينال "اكزمينيس" المتعصب للمسيحية، فدعا إلى محاربة مسلمي الشمال الإفريقي مثيراً مخاوف الملكة "إيزابيلا" من الهجوم المضاد المحتمل من طرف مسلمي الشمال الافريقي، فاستجابت الملكة لدعوته، وشرعت في إعداد حملة كبيرة ضد المغرب الأوسط الذي كان من نصيب إسبانيا طبقاً لما جاء في نص المعاهدة، إلا أنها توفيت سنة 1504م قبل أن تحقق مشروعها ورغبة وزيرها "اكزمينيس"، ومر احتلال سواحل المغرب الأوسط بالمراحل التالية:

1- احتلال المرسى الكبير[2] ووهران (1505م – 1509م).

صمم "فرديناند" الكاثوليكي على تنفيذ وصية زوجته "إيزابيلا" في احتلال شمال إفريقيا، ونظراً لفراغ خزينة الدولة من المال تولت الكنيسة هذه المهمة، وعلى رأسها الكاردينال "اكزمينيس"، وبهذا اجتمعت السلطتين الزمانية والروحية على غزو سواحل المغرب الأوسط.

1 - لقد حصر بعض المؤرخين الجزائريين تاريخ احتلال الإسبان للموانئ الجزائرية ما بين سنوات (1505-1510م) مثل أحمد توفيق المدني إلا أننا توقفنا عند سنة 1531م باعتبار أن هذه السنة تم فيها احتلال مرسى هنين الساحلي القريب من تلمسان من طرف الإسبان عقب حملة أندريا دوريا على شرشال وإن كانت الفترة ما بين (1511-1531م) لم يتمكن الإسبان خلالها من احتلال موانئ جديدة في المغرب الأوسط بفعل مجيء الأخوين عروج وخير الدين إليه.

2- يبعد المرسى الكبير عن وهران بضعة أميال (مسافة 8كلم)، لقد تعرض المرسى الكبير لاحتلال البرتغاليين سنة 1415م وطردوا منه سنة 1437م واحتلوه من جديد سنة 1471 م وخرجوا منه سنة 1477م ثم هاجموه سنة 1501م إلا أن هجومهم فشل، ينظر، بسام العسلي: مرجع سابق، ص 50.

وبالفعل فقد جهز الكاردينال "اكزمينيس" سنة 1505م أسطولاً مكوناً من مائة وأربعة وثلاثين سفينة على متنها خمسة آلاف محارب تحت إمرة القائد "دون ديقو فرناندیز" ويقوده "رايموند دي قرطبة".

أبحرت الحملة الإسبانية من مالقة يوم الأربعاء 29 أوت 1505م ووصلت يوم 11 سبتمبر[1] إلى المرسى الكبير في الوقت الذي تفرق فيه المسلمون الذين جاؤوا للدفاع عن المرسى نظراً لقلة المؤن فلم يبقَ منهم سوى خمسمائة مجاهد لحمايته، لم يتمكنوا من منع الإسبان من النزول إلى البر رغم المقاومة العنيفة التي دامت ثلاثة أيام، فاستشهد قائد الحامية، وتمكن الإسبان من احتلال المرسى الكبير يوم 23 أكتوبر 1505م بعد حصار دام خمسين يوماً، ودخلوا المدينة وعاثوا فيها حولهم سلباً ونهباً[2] واتخذوا من المرسى الكبير ميناء لإرساء سفنهم بعدما أمضوا مع أهل المرسى اتفاقية تضمن لهم الحياة وحرية الانسحاب من المدينة، وبانسحابهم دخل الإسبان إلى المدينة ورفعوا أعلامهم وأقاموا صلاة الشكر وحولوا مسجدها إلى كنيسة سميت بكنيسة "القديس ميكائيل"[3].

والواقع أن سكان المرسى قبلوا بالاستسلام نتيجة قلة إمكاناتهم العسكرية أمام قوة الإسبان المتطورة، إذ يؤكد المؤرخون بأنهم قاتلوا بكل ما أوتوا من قوة قبل استسلامهم، كما أن أهالي الداخل أسرعوا لنجدتهم[4].

ثم اتجه الإسبان لاحتلال مدينة وهران لتوسيع نطاق قاعدتهم إلى هذه المدينة التي تحظى بموقع جغرافي استراتيجي أكسبها أهمية بالغة، واستجابة لضغوطات

1- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 96.

2- مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: (1986م) ، (ج2)، ص 488.

3- أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 98.

4- أحمد توفيق المدني: مرجع نفسه، ص ص (99-100).

الكاردينال "اكزمينيس" جهز الجنرال "بيدرونافارو" Navarro[1]) حملة مكونة من ثلاثة وثلاثين مركباً حربياً وواحد وخمسين زورقاً صغيراً على متنها خمسة عشر ألف جندي، أبحرت الحملة من ثغر قرطاجنة يوم الأربعاء 26 محرم 915هـ/15 ماي 1509م، ووصلت يوم الجمعة 17 ماي[2] من نفس العام فنزل المشاة بساحل وهران يتقدمهم الكاردينال "اكزمينيس" ورهبانه رافعين الصليب، وفي طريقهم إلى وهران احتلوا مدينة "المدية"، وحاولوا احتلال وهران ففشلوا نظراً لحصانتها، إلا أنهم سرعان ما تمكنوا من دخولها بواسطة اليهودي "سطورا"[3] الذي تمكن من فتح باب المدينة للإسبان بمساعدة الخائنين "عيسى العريبي" و"ابن قانص"[4] فدخلها الإسبان ودارت المعركة بينهم وبين أهالي المدينة، واستحل الإسبان المدينة وارتكبوا فيها مجزرة فذبحوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف، وأنقذوا ثلاثمائة أسير مسيحي[5] ودمروا بيوتها وحولوا مسجدها الأعظم إلى كنيسة، وهو ما أثار غضب علماء وأدباء المدينة الذين دعوا أهلها إلى الدفاع عنها واسترجاعها من يد الإسبان. وأقامت

1- **بيدرو نافا رو** Pedro Navarro قائد إسباني قاد حملة على وهران عام 1509م وأخرى على مدينة طرابلس الغرب وبجاية عام 1510 عزل عن ولايته في مدينة بجاية بعد خيبته في احتلال جزائر قرفنة فغادر بجاية نهائياً يوم 7 جوان 1511م، ينظر أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 145.

2- عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، (ط2)، دار الثقافة، بيروت: 1983م،(ج2)، ص 203.

3- **اليهودي ستورا** أو **سطورا** كان من مهاجري الأندلس ومن الذين أنقذتهم عدالة الإسلام في وهران من المحارق الإسبانية أستخدمه حاكم وهران قابضاً للمكوس فخان المسلمين بفتح أبواب وهران أمام الغزاة الأسبان الذين كافؤوه بعد ذلك بتعيينه لجباية الخرجات البرية والبحرية وتوارثها عنه بنوه من سنة 915هـ إلى سنة 980هـ، ينظر بسام العسلي: مرجع سابق، ص 66.

4- عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من بداية ولغاية 1962، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت: (1997)، ص 47.

5- مبارك بن محمد الميلي: مرجع سابق،(ج2)، ص 488.

إسبانيا بوهران حامية عسكرية منحت لقائدها اسم "قائداً عاماً لمدينة وهران وحامية المرسى الكبير ومملكة تلمسان"[1].

مما يدل دلالة واضحة لا غبار عليها بأن احتلال وهران والمرسى الكبير ما هو إلا تمهيد لاحتلال تلمسان عاصمة بني زيان، وبالتالي القضاء على مُلكهم، خاصة ونحن نعلم أن إسبانيا في وضعها لمخطط احتلال المغرب الأوسط أعطت الأولوية للسواحل والموانئ المهمة ثم التغلغل في الداخل، إلا أننا سوف نلاحظ بأن هذا الاحتلال كان سطحيا لم يستطع أن يتعدى السواحل إلى الداخل بفعل ردة فعل السكان الأصليين ومقاومتهم للإسبان التي دعمها مجيء العثمانيين إلى المغرب الأوسط.

2- احتلال بجاية وعنابة (1510م).

أخذت إسبانيا المسلحة بالحقد المسيحي والدهاء السياسي بعد احتلالها للمرسى الكبير ووهران تستولي على سواحل المغرب الأوسط، فكان أن وجهت أنظارها هذه المرة إلى الناحية الشرقية فاحتلت بجاية العاصمة الثانية للحفصيين في جانفي سنة 1510م؛ وباحتلال مدينة بجاية دق ناقوس الخطر في شمال إفريقيا، إذ توجه الإسبان بعدها إلى عنابة واحتلوها في نفس السنة (1510م) وتركوا بها حامية لحراستها، في الوقت الذي وقف فيه حكام بني حفص وبني زيان الذين قضى عليهم الشقاق عاجزين عن رد الخطر الإسباني الذي ينتقل من انتصار إلى انتصار أكبر منه، مما جعل بقية المدن من وسط وشرق وغرب البلاد (المغرب الأوسط) تستسلم للإسبان وتهادنهم على دفع الضريبة خوفاً من المصير المأسوي الذي لقته مدينتا وهران وبجاية من قبل كدلس شرشال، تنس، الجزائر، ومستغانم.

فقد وقع أعيان مدينة الجزائر مثلاً معاهدة استسلام تقدم بها "سالم التومي"[1] يوم 31 جانفي 1510م بصفته شيخ مجلس الأعيان إلى القائد الإسباني "بيدرو نافارو"

1- عبد الله شريط، محمد الميلي: الجزائر في مرآة التاريخ، (ط1)، مطبعة البعث، قسنطينة: 1965م، ص 117.

المتواجد ببجاية فطلب منه الأخير دفع ضريبة باهضة مع إطلاق سراح كل الأسرى المسيحيين الذين في المدينة، وأن يذهب حاكم مدينة الجزائر "سالم التومي" رفقة "مولاي عبد الله" حاكم مدينة تنس لإعلان خضوعهما وطاعتهما لملك إسبانيا؛ وبالفعل فقد سافر الوفد إلى إسبانيا محمل بهدايا ثمينة وتفاوض مع مجلس مدينة سرقسطة Saragossa وافق خلاله أعضاء الوفد على تسليم أكبر جزرهم الصخرية للإسبان الذين أقاموا بها حصناً قوياً سمي **"حصن الصخرة"**[2]، ووضعوا به حامية متكونة من مائتي جندي فأصبحت مدينة الجزائر محاصرة لا يدخلها الداخل ولا يخرج منها الخارج إلا برضا الإسبان[3].

ذلك أن "فرديناند" الكاثوليكي في إستراتيجيته لاحتلال سواحل المغرب الأوسط كان يعمل على إقامة مراكز محصنة في أهم الموانئ مع نصب مدافع لمراقبة كل التحركات لوضع حد لنشاط الأساطيل المغربية التي كانت تُغير على السواحل والجزر الأيبيرية.

1- **سالم التومي:** من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من المعاقيل استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الأسبان بجاية عام 1510م، واستقر فيها عدة سنوات، ينظر، الحسن بن محمد الوزان الفاسي(ليون الأفريقي): وصف أفريقيا، (ط1)، تر، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت: (1983):(ج2)، ص 39.

2- سمى هذا الحصن الذي بني على جزيرة اسطفلة بقلعة البنيون nرَحِمَهُمُٱللَّهُPen نسبة إلى الصخور التي بني عليها، صممها المهندس المعماري مارتان دورو نتيريا تبعد عن مدينة الجزائر 300 متر وبنيت على شكل مثمن وحصنت بحصنين وكان يتواجد بها 200 جندي، ينظر، كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: (د،ت)، ص ص (21-22).

3- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ط2)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: (1981)، (ج1)، ص 325.

ونظراً لعدم قيام آل زيان بهجوم مضاد، احتل الجنويون[1] ميناء جيجل سنة 1513م، وبهذا وجد سكان الشواطئ الجزائرية أنفسهم تحت رحمة الإسبان والجنويين.

3- احتلال مرسى هنين 1531م.

بعد احتلال بجاية وعنابة احتل الإسبان مرسى هنين الساحلي بتلمسان يوم 8 سبتمبر 1531م بقوة أحد عشرة سفينة حربية وناقلتين للجنود إضافة إلى فرقة وهران التي ضمت مائتين وخمسين جندي، يقودهم القائد الإسباني "دون ألفارو دوبازان" (Don Alvaro de Bazan)، فخربوا المدينة التي كانت خالية من حاميتها، وكان هدفهم من احتلاله تطويق مدينة الجزائر غرباً وإخضاع ملك تلمسان "مولاي عبد الله" (محمد السابع) (1524-1542م) إلى سلطانهم. إلا أنهم لم يستطيعوا أن يمكثوا فيها مدة طويلة حيث غادروها عام 1534م نتيجة لعدم وصول الدعم إليهم من إسبانيا.

وهكذا كان احتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير وغيرهما من مدن المغرب الأوسط الساحلية بداية النهاية لمملكة آل زيان التي ستزول نهائياً مع وصول العثمانيين إلى المغرب الأوسط.

ثالثاً:دخول العثمانيون إلى المغرب الأوسط وأطوار تحريرهم له (1512م - 1558م).

شهد المغرب الأوسط -كما رأينا- مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي (16م) مع بقية أجزاء المغرب الإسلامي غزوا صليبياً شنته إسبانيا على سواحله، تتبعا للأندلسيين الفارين بالآلاف من محاكم التفتيش إلى السواحل المغربية مما أدى إلى التدخل العثماني[2] في هذه المنطقة لمحاربة العدو المشترك والمتمثل في الإسبان.

1 - نسبة إلى مدينة جنوة الايطالية .

2 - برز دور الدولة العثمانية في حماية العالم الاسلامي والدفاع عنه والوقوف في وجه المد الغربي المسيحي بقيادة اسبانيا بعد تزعم الأخيرة للحركة الدينية القومية المضادة للوجود العربي الاسلامي

ففي هذه الأثناء عمل الأخوان بربروس[1] "عروج" و"خير الدين" على إنقاذ المسلمين المضطهدين من سواحل الأندلس إلى شمال إفريقيا حيث ظل "خير الدين" مدة في ناحية الأندلس من أجل ذلك فأسر وغنم، وكان يُسلم خُمس ما غنم إلى حاكم تونس الحفصي، ويوجه للسلطان العثماني "سليم الأول بن محمد" هدية عظيمة من نفائس الأموال، كان الأخير يتقبلها باستحسان والدعاء للأخوين، ويمولهما بمراكب مزودة برجال البحر المهرة[2]؛ لذا استنجد بهما أهل المغرب الأوسط لإنقاذه من الاحتلال الإسباني.

وهكذا فقد كانت الحروب الصليبية التي شنتها أوربا الغربية بقيادة إسبانيا ضد المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي والأندلس عموما مبرراً لتدخل آل عثمان متخذين من الجهاد طريقا للدفاع عن العقيدة الإسلامية، مما يدل على أن المعركة واحدة وهي "الدفاع عن الإسلام"[3] لذا استجاب السلطان "سليم الأول" لنداء أخوة الدين بإرسال المدد إليهم كرد فعل على التدخل الإسباني. ويبدو أن ظروف الدولة

في الاندلس والتيار الاسلامي عامة، ينظر: أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ط1)، دار الغرب الاسلامي، بيروت: (1996)، (ج4)، ص 186.

1 – **بربروسة أو بربروشة**: كلمة تعني لحية شقراء، لقب بها خير الدين لأن لحيته كانت شقراء ويقول بعض المؤرخين الأوروبيين أن هذا اللقب هو تحريف لاسم بابا عروج أخ خير الدين، والحق أنه لقب لخير الدين إلا أنهُ أطلق على بابا عروج لما فيه من شبه من جهة النطق والصوت مع بابا عروج، ينظر، مؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر: 1934.تعليق وإيضاح، ص 10؛ ويرجع أصل الأخوين **عروج وخير الدين** إلى جزيرة مدلي التي فتحها السلطان محمد الفاتح سنة 1457م وكان أبوهما "يعقوب" من بين الفاتحين تزوج ذمية (وقيل سيدة أندلسية) أنجبت لهُ أربعة بنين: إسحاق وعروج وخير الدين واليأس، قتل الأخير في إحدى رحلاته مع أخوهُ عروج من طرف جماعة جزيرة رودس، وأسر عروج إلا أنه تمكن من الهروب واتصل بقرقود أخ السلطان "سليم الأول" فأمدهُ بمركب فاتجه إلى الجهاد مع إخوته خير الدين وإسحاق لمحاربة النصارى في الغرب فمنحهُ سلطان تونس جزيرة جربة مقابل الخمس مما يغنمهُ فاتخذها قاعدة لإسطوله، ينظر، مؤلف مجهول: مصدر نفسه، ص ص (6-13).

2 – مؤلف مجهول:مصدر سابق، ص 24.

3 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق،(ج1)، ص 465.

العثمانية على عهد السلطان "سليم الأول" كانت مهيأة لقبول هذا التحالف بعدما غيرت من استراتيجيتها للفتح من أوربا – نظراً لتشبع الجبهة الأوروبية وظهور ممالك كبرى كفرنسا، والإمبراطورية المجرية النمساوية- إلى الشرق وغربي البحر الأبيض المتوسط للتصدي إلى غارات الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، مما أدى إلى نقل الحرب الصليبية من المشرق (الشام، ومصر) إلى المغرب الإسلامي الذي كانت دوله بحاجة ماسة إلى قوة تحميها من ذلك العدوان الذي تكررت غاراته، في ظل ضعف حكام هذا القطر من (بني حفص، بني زيان وبني مرين) الذين رمت بهم خلافاتهم العقيمة على العرش إلى الانكسار أمام الأعداء، وقد مر تحرير المغرب الأوسط عبر عدة أطوار يمكن تلخيصها كالتالي:

1- الطور الأول على عهد عروج (1512-1518م).

بحلول سنة 1510م ذاع صيت البحارين "عروج" و"خير الدين" في الشرق والغرب لإنقاذهما العديد من منكوبي الأندلس التي شهدت أكبر مأساة عرفها العالم آنذاك، لذا استنجد بهما سكان مدينة بجاية لتخليصهم من الاحتلال الإسباني فاتصل بهما علماء وأعيان المدينة وأمير قسنطينة "أبو بكر الحفصي" سنة 1512م، فسار "عروج" إلى المدينة مع فرقة من الجنود عددهم خمسين رجلاً[1] يضاف إليه أهلها من المجاهدين، إلا أن "عروج" فشل في اقتحام المدينة وفقد خلال محاصرتها ذراعه التي بترت، فعاد إلى حلق الوادي مركز قاعدته. وتكررت محاولاته في استرجاع المدينة ما بين 1514-1515م إلا انه فشل في ذلك أيضاً، لكنه في المقابل نجح وأخوه "خير الدين" في استرجاع مدينة جيجل سنة 1514م بعد أن طردا منها الجنويين بطلب من سكانها واتخذاها مركزاً لقواتهما وعين سكان جيجل "عروج" رئيساً عليهم.

وبعد فشل الأخوين "عروج" و"خير الدين" في استرجاع مدينة بجاية تبين لهما بأن مواجهة إسبانيا القوية لن يتم إلا بالاعتماد على الدولة العثمانية باعتبار أنها حامية الإسلام ورافعة لواء الجهاد، فبعثوا للسلطان "سليم الأول" عام 1514م بهدية

1 – مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص 18.

ثمينة مما خلفه الجنويون بجيجل فزودهما السلطان بـ 14 سفينة، ومجموعة بحارة مهرة وكمية من الأسلحة والذخائر[1].

وفي سنة 1516م أرسل "سالم التومي" شيخ مدينة الجزائر وفداً إلى "عروج" الذي كان متواجداً بمدينة جيجل يطلب من الأخوين نجدتهم باسم سكان مدينة الجزائر فاستجاب لهم "عروج" لأنه رأى في أن المدينة تحظى بموقع إستراتيجي ما بين بجاية شرقاً ووهران غرباً الخاضعتين للنفوذ الإسباني، وأنه إذا تم الاستيلاء عليها يمكن اتخاذها كقاعدة مناسبة لتهديد الإسبان بدلاً من جيجل. فدخلها في نفس السنة (1516م) واستقبل استقبالاً حسناً وعينه سكانها سلطاناً عليهم وأميراً للجهاد، وبهذا وضعت أول لبنة لبناء الدولة الجزائرية الحديثة والموحدة[2].

والظاهر أن دخول الترك إلى الجزائر قد أثار ردود فعل محلية وأخرى إقليمية وثالثة دولية فقد تمرد "سالم التومي" ضد "عروج" بعد فشل الأخير في استرجاع حصن "البنيون" من الإسبان عام 1516م، إلا أن عروج استطاع أن يقضي عليه في سبتمبر 1516م. ومن جهتها جهزت إسبانيا حملة أشرف عليها الكاردينال "اكزمينيس"، وعين على قيادتها "دييغو ديفيرا" Diego devéra تكونت من 30 سفينة على متنها ألف جندي وألفين من البحارة حسبما جاء في الوثائق الإسبانية مزودين بمدافع وذخائر[3]. وانضم إليهم "يحي بن سالم التومي" المطالب بالثأر لمقتل أبيه مع المعارضين للتواجد التركي بمدينة الجزائر، إلا أن الحملة مُنيت بالفشل الذريع حيث تمكن "عروج" ومن معه من الترك والأهالي والمهاجرين الأندلسيين من سحق

1 – يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: (2007)، (ج2)، ص 12.

2 – عبد المجيد قدور: هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط (الجزائر) نتائجها الحضارية خلال القرنين 16 و 17م/10-11هـ ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير مطبوعة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، د، ت، ص 81.

3 – كورين شوفالييه: مرجع سابق ، ص ص (29 ، 33).

جيش "ديفيرا" فقتلوا منهم ثلاثة آلاف وأسرو ثمانمائة إسباني، وحُطم الأسطول الإسباني فوق صُخور باب الواد[1].

ونتيجة لهذا النصر دخل سكان البليدة ومليانة والمدية ودلس وبلاد القبائل، إضافة إلى عرب متيجة في طاعة "عروج" وبهذا توسع نفوذ "عروج" حتى شمل معظم وسط وشرق المغرب الأوسط.

ثم استولى الأخوان على (تنس) في جوان 1517م بعد قتل أميرها "حميد العبد" الذي كان مواليا للإسبان وقام "عروج" بتنظيم المناطق التي دانت له فقسمها إلى قسمين: قسم شرقي جعل عليه أخاه "خير الدين" الذي استولى على مدينة دلس واتخذها مقراً له، وقسم غربي مركزه مدينة الجزائر تحت حكم "عروج".

وخلال تواجد "عروج" في تنس لتنظيم أمورها قَدم إليه وفد من سكان تلمسان يطلبون مساعدته ضد ملكهم "أبي حمو الثالث"(1503م – 1518م) الذي رضي منذ سنة 1511م بالهيمنة الإسبانية وأن ينقذ أميرهم الشرعي "أبا زيان الثالث" ابن أخيه من السجن ويعيده إلى عرش تلمسان، فاتجه "عروج" إلى تلمسان وخلف أخاه "خير الدين" على مدينة الجزائر، فدخلها في عام 1517م بعدما هزم قوات "أبي حمو الثالث" التي بلغت ثلاثة آلاف راجل وستة آلاف فارس[2] عند «سهل اربال»، بينما فر "أبو حمو الثالث" إلى فاس ثم إلى وهران مستنجدا بالإسبان كعادته، وأعاد "عروج" "أبى زيان الثالث المسعود" على عرش تلمسان، إلا أن "أبا زيان" هذا سرعان ما انقلب على "عروج" محاولاً طرده من المغرب الأوسط، إلا أن الأخير قتله مع سبعين من أسرة بني زيان وتسلم السلطة هو بنفسه[3]، كما تخلص من القادة المتآمرين ضده.

1 – أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 183.

2 – بسام العسلي: مرجع سابق، ص 102.

3– محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، (ط2)، مكتبة دار الشرق، بيروت: (1979)، ص26.

إلا أن "أبا حمو الثالث" وبدعم من الإسبان تمكن من قتل "عروج" عام 1518م بين الوادي المالح وزاوية سيدي موسى[1] وقطعوا رأسه وطافوا بها أنحاء إسبانيا وأوربا، وأعاد الإسبان "أبا حمو موسى الثالث" إلى عرش تلمسان من جديد. وعلى الرغم من أن موت "عروج" شكل خسارة بالنسبة للجزائريين ورجاله، إلا أنه استطاع كما قال المؤرخ الفرنسي "شارل أندري جوليان": «أن يبوِّئَ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدولة العظمى»[2].

2- الطور الثاني على عهد خير الدين بربروس (1534م-1519م).

بعد مقتل "عروج" طلب أعيان مدينة الجزائر من أخيه "خير الدين" أن يقود إدارة الجهاد بالمدينة إلا أنه اعتذر لهم وأمرهم أن يختاروا بين الاثنين ليكون أحدهما رئيسا عليهم وهما: "أحمد بن القاضي"[3] حاكم كوكو الذي عينه على الناحية الشرقية و"محمد بن علي" الذي عينه على الناحية الغربية، غير أن أعيان مدينة الجزائر ألحوا عليه في البقاء قائلين: «أن الله قد نصرنا بك على العدو... فأنت بيننا وبينهم [أي الإسبان] سداً لا يخلصون إلينا مادمت في هذه البلاد»[4]، عندها عرض عليهم "خير الدين" أن يدخلوا في طاعة السلطان "سليم الأول" سلطان الدولة العثمانية ليزودهم بالمال والرجال ووسائل الجهاد لأنه في غير مقدوره ولا طاقته أن يقف في وجه إسبانيا لوحده في ظل محدودية إمكاناته وفي مغرب مجزئٍ ومقسم، وهذا بالدعاء له على المنابر وضرب السكة باسمه، فاستصوبوا رأيه وانقادوا له نظراً لوجود رابطة الدين

1 - يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق، (ج2)، ص 15.

2 - شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالي، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، تعر، محمد مزالي، البشير بن سلامة، (ط2)، الدار التونسية للنشر، تونس: (1978)، (ج2)، ص 328.

3 - **أحمد بن القاضي**: من أعيان بيوتات الجزائر الساكنة بناحية بلاد القبائل عمل قاضياً ببجاية في سنة 917هـ/1511م أسس إمارته بجبل كوكو (الواقع عند منابع وادي سبأ وبالسفوح الشرقية لجبال جرجرة تبعد 8 كلم شرقي عين الحمام، سوق الأربعاء من بلاد الزواوة)، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت: 1980م،(ج3)، ص 48.

4 - مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص 41.

والخلافة بينهم وبين حكومة آل عثمان من جهة، وخوفهم من مفاجآت الإسبان من جهة أخرى[1]، فأرسلوا إلى السلطان "سليم الأول" كتاباً يشرحون له فيه الأحداث التي شهدها المغرب الأوسط من احتلال الإسبان لأهم موانئه الساحلية مع ذكرهم للبيعة فأصدر الأخير فرماناً – أمر سلطاني– يُعلن فيه موافقته على أن تصبح مدينة الجزائر تحت رعايته وحمايته، وعين "خير الدين" بايلرباي[2] على دولة الجزائر يوم 15 ماي 1519م، وأذن لدولة الجزائر أن تضرب السكة باسمها، مما يدل على استقلالها داخل إطار الإمبراطورية العثمانية، وأرسل إلى "خير الدين" ألفين جندي من الإنكشارية[3] وأربعة آلاف متطوع[4] إضافة إلى تجهيزات عسكرية من أسلحة وعتاد بحري.

وهكذا دخلت الجزائر تحت لواء الحكم العثماني، وهو ما أدى إلى قلق جيرانها من بني حفص في تونس وبني مرين في المغرب الأقصى خوفاً من وصول المد التركي إلى دولتيهما والقضاء على ملكيهما، كما أدى هذا الحدث (إلحاق الجزائر بالباب العالي بإستانبول) إلى حدوث اضطراب في بلاط بني زيان بتلمسان، كما تمرد "أحمد بن القاضي" على "خير الدين" بتحريض من الأمير الحفصي "أبي عبد الله محمد بن الحسن"(1494م-1526م) ، حيث شعر "ابن القاضي" بإفلات السلطة من يده، لذا سعى إلى الاستقلال بمملكته في كوكو ببلاد القبائل، كما لقي هذا الحدث ردة فعل

1 – عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 46.

2 – **باي لرباي**: تعني أمير الأمراء باعتباره أن خير الدين الرئيس الأعلى لكل البايات الذين سوف يتولون الحكم في بلاد شمال إفريقيا، ينظر، أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 198.

3 – **الانكشارية**: بالتركية يكيجري بمعنى الجند الجديد وهي فرقة مشاة كونها أورخان تحت رعاية الحاج بكتاش، وهم المسيحيون الذين خضعوا لنظام الدوشرمة (هي كلمة يونانية تعني جمع الغلمان الأسر بين 10-15 سنة وضمهم إلى الإنكشارية، ينظر، محفوظ رموم: الثقافة والمثاقفة في المجتمع الحضري الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830)، دراسة تاريخية أنثربولوجية، رسالة ماجستير، غير مطبوعة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2002/03/12م.ص ص (53-54).

4 – حنيفي هلايلي: "الحياة الاجتماعية للجيش الإنكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني"، الحوار الفكري، (ع6)، جامعة قسنطينة، سبتمبر 2004، ص ص (136-137).

عنيفة من طرف الإسبان الذين ما كانوا ليرضوا أبداً بقيام دولة جزائرية موالية لآل عثمان أعدائهم، وعلى ساحل الشمال الإفريقي الذي اعتبروه امتداداً للبحر الروماني.

لذا قام ملكهم "شارلكان"[1]، بإرسال حملة جديدة للقضاء على دولة الجزائر التركية ضمت 40 سفينة على متنها خمسة آلاف مقاتل (إسبانيين وأوربيين) يقودها نائب ملك صقلية "هوكو دومنكاد" Hugo de Moncade" . أبحرت الحملة من جزيرة صقلية في أواخر جويلية سنة 1519م، وأرست بناحية الحراش يوم 17 أوت[2]. إلا أنها منيت بالفشل كسابقتها حيث استطاع "خير الدين" ورجاله أن يلحقوا بالأسطول الإسباني خسائر فادحة على الرغم من قلة عددهم (خمسمائة مجاهد)[3].

وبعد هذا الانتصار وضع "خير الدين" نصب عينيه ضم مملكة تلمسان بعدما ضم مستغانم للدولة الجزائرية عام 1519م وفعلاً تمكن من دخول تلمسان وأعاد "أبو محمد عبد الله الثاني" على حكمها، شرط أن تكون السكة والخطبة للسلطان "سليم الأول".

هذا في الوقت الذي سيطر فيه "ابن القاضي" على مدينة الجزائر لمدة 5 سنوات (1520م-1525م)[4] بعد تحالفه مع السلطان الحفصي "أبو عبد الله محمد بن الحسن" (1494م-1526م) مما اضطر "خير الدين" أن ينسحب إلى قاعدته القديمة بجيجل أين عمل على ضم المناطق الشرقية إلى الدولة الجزائرية، فاستولى على القل سنة 1521م، وأخضع مدينتي عنابة وقسنطينة في العام الموالي (1522م).

---

1 - **شارلكان أو شارل الخامس:** (1500-1558م) أمير بورغني أباه فليب لوبو (الجميل) وأمهُ جان المجنونة، عندما توفي جده مكسيمليان هابسبورغ (1459-1519) عين إمبراطوراً للرومانية المقدسة، التي ضمت (إسبانيا، النمسا، بلجيكا، هولندا، صقلية، سردينيا، ونابولي وقسماً من بلاد الجرمان وأغلب البلاد الأمريكية، فأصبح باسم إمبراطوريته العظمى يقف وجهاً لوجه أمام فرنسا والإمبراطورية العثمانية، ينظر، بسام العسلي: مرجع سابق، ص 49.

2 - أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (205-206).

3 - عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 45.

4 - شارل أندري جوليان: مرجع سابق، (ج2)، ص 329.

وبعدما تمكن "خير الدين" من القضاء على ثورة "ابن القاضي" سنة 1525م الذي قُتل على يد أتباعه[1] ضم إليه إقليم متيحة في نفس السنة ثم قمع ثورات شرشال أين تواجد الثائر "قارة حسن"[2] فقتله وأخضع إليه قسنطينة للمرة الثانية سنة 1526م[3] كما خَضع له أمير بني زيان "أبو محمد عبد الله الثاني" الذي عمل على إثارة "يحي بن القاضي" ليطالب بثأر أبيه المقتول "أحمد بن القاضي"، فقاتله "خير الدين"، وبعد وساطة كبار قومه أعاده إلى عرش تلمسان مقابل دفع ستين ألف دينار إلى خزينة الدولة الجزائرية ومضاعفة الخراج[4].

وبعد أن استتب الأمر "لخير الدين" بعد قضائه على تلك الثورات والتمردات التي قامت ضده، عمل على تنظيم الدولة الجزائرية وشكل جيشاً مجهزاً تجهيزاً بحرياً استعداداً لاسترجاع **حصن البنيون** الذي بناه الإسبان منذ سنة 1510م، حيث شكل هذا الحصن أكبر مشكلة لخير الدين" فكان من المستحيل عليه استعمال سفنه في هذا المرسى، وبالتالي كان مضطرا أن يرسوَ في مكان آخر بعيد عن مدينة الجزائر فاسترجعه يوم 27 ماي 1529[5] بعد محاصرته.

ولما سمع "شارلكان" خبر سقوط الحصن عزم على الانتقام بالقضاء على إيالة الجزائر العثمانية فجهز من أجل ذلك حملة جعل عليها الأميرال "أندريا دوريا" الجنوي عام 1531م ضمت 40 سفينة. على متنها ألف وخمسمائة مقاتل، كان هدفها الأول هو

---

1 – محمد خير فارس: مرجع سابق، ص 32.

2 – **قارة حسن:** هو أحد ضباط خير الدين المنشقين عليه خلال ثورة ابن القاضي، وقارة كلمة تركية معناها الأسود، ينظر، مؤلف مجهول: مصدر سابق، تعليق وإيضاح، ص 12.

3 – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، (ج1)، ص 164، وقيل سنة 1529، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، (ج3)، ص 49.

4 – مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص 66.

5 – تمكن خير الدين من استرجاع الحصن بعدما استعمل حيلته الحربية حيث أنطلق بأسطوله موهماً بأنه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو، إلا أن هذه السفن سرعان ما عادت أدراجها في وسط الليل واختبأت في مرفأ تامنتفوس وأحاطت بالحصن، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (215-216).

مدينة شرشال التي كانت تستقبل المهاجرين الأندلسيين، ومن بعدها مدينة الجزائر للقضاء على دولة الجزائر الفتية وإنهاء سلطة الأتراك منها وجعل المغرب الإسلامي تحت الحكم الكاثوليكي، إلا أنها انكسرت إذ تمكن جيش "خير الدين" من تطويق جيش "دوريا" الذي اقتحم المدينة فأسر منهم ستمائة جندي[1]، ورجع "دوريا" خائباً.

وبهذه الانتصارات تمكن "خير الدين" من توسيع حدود الإيالة الجزائرية بضمه لعدة مناطق في شرق وغرب ووسط البلاد للحكومة الجزائرية التي كان مقرها مدينة الجزائر، مما جعل السلطان العثماني "سليمان القانوني" يستدعيه إلى إستانبول في سنة 1533م ليباشر عمله كقبطان باشا (قائد عام للبحرية التركية)[2].

وما يمكن استخلاصه في هذه النقطة أن "خير الدين" استطاع أن يمد حدود الدولة الجزائرية قبل رحيله إلى استانبول فوصلت شرقاً إلى قسنطينة وعنابة، وغرباً إلى إمارة بني زيان بتلمسان إذا استثنينا مدينتي بجاية ووهران اللتين ظلتا خاضعتين للنفوذ الإسباني، واستطاع بفضل حنكته السياسية أن يمنع القادة أصحاب المصالح السياسية من الاستقلال بأجزاء من هذه الدولة الفتية مثل: "احمد ابن القاضي"، الذي حاول الاستقلال بالناحية الشرقية، وبتحريره لحصن البنيون عام 1529م أكسب مدينة الجزائر شهرة كبيرة لا على المستوى الإقليمي فقط وإنما على مستوى العالم المعروف آنذاك بقاراته الأربع (أوربا، آسيا، إفريقيا، أمريكا) ليواصل خلفاؤه من بعده مهمة توسيع حدود الدولة الجزائرية وإخضاع ما تبقى منها إلى السلطة الحاكمة بمدينة الجزائر.

3- الطور الثالث على عهد خلفاء خير الدين باشا(1535م-1558م).

بعد رحيل "خير الدين" إلى استانبول عام 1535م خلفه على الجزائر "محمد حسن آغا"السرديني الذي عمل على تحصين المدينة فأنشأ واحدا وثلاثين غليوطة

1 - مؤلف مجهول: مصدر سابق، ص ص (70، 72).

2 - أخلع السلطان سليمان القانوني على خير الدين لقب قبو دان باشا يوم 15 أكتوبر 1535م مع احتفاظه بمنصبه كبايلرباي للجزائر حتى وافته المنية بإستانبول يوم 24 جويلية 1546م واستخلف حسن آغا على الجزائر، ينظر، عبد المجيد قدور: مرجع سابق، ص 88.

(سفينة) كما عمل على توطيد النظام في الجزائر وداخل صفوف الجيش، وفي عهده شن "شارلكان" حملة كبيرة على مدينة الجزائر عام 1541م لاحتلالها وطرد الأتراك منها تألفت من خمسة وستين سفينة حربية وأربعمائة وخمسين سفينة نقل على متنها أربعة وعشرون ألف جندي (من جنسيات أوروبية مختلفة) واثنا عشر ألف بحار[1].

فشارلكان" كان يرى في وجود سلطة للأتراك العثمانيين أعدائه في بلاد المغرب خطراً يهدد مستقبل إسبانيا التي من المحتمل أن يفتحها المسلمون من جديد إن لم يقم بعمل مضاد، إلا أن "حسن آغا" تمكن من إلحاق الهزيمة بقوات "شارلكان" ساعده في ذلك الظروف الطبيعية إذ هبت عاصفة قوية على ساحل مدينة الجزائر فخسر "شارلكان" 200 سفينة و200 مدفع وكل الأسلحة والذخيرة وخلف وراءه اثنا عشر ألف قتيل[2]. فكانت أكبر هزيمة شهدها العالم المسيحي خلال القرن السادس عشر الميلادي (16م) وضربة حاسمة هزت التواجد الإسباني في غربي البحر المتوسط خاصة في الجزائر، كما خلفت آثار عميقة لا على الملك "شارلكان" وحده وإنما على إمبراطوريته، ودول أوربا المسيحية عامة، فقد تبددت أحلامه وضاعت آماله في القضاء على دولة الجزائر التي أصبحت بعد هذا الانتصار قوة دولية فاعلة في أحداث البحر الأبيض المتوسط والعالم الغربي ككل.

وبعد هذا الانتصار توجه "حسن آغا" على رأس حملة كبيرة في أفريل عام 1542م لإخضاع "ابن القاضي" (أخ أحمد ابن القاضي) حاكم كوكو الذي تحالف مع الإسبان، فخضع إليه الأخير؛ ولتوسيع نفوذه سير "حسن آغا" حملة إلى إقليم الزيبان فخضع سكان بسكرة لسلطته ومنح "لعلي بوعكاز" قائد العشائر العربية الدواودة الذين كانوا يسيطرون على المنطقة قفطان التولية على البدو تحت اسم شيخ العرب[3]، وبعدها توجه إلى تلمسان عاصمة بني زيان التي كان يحكمها "محمد السابع"

1 – أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (281–282).

2 – أحمد توفيق المدني: مرجع نفسه، ص 296.

3 – صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي (1514–1830)، دار هومة، الجزائر: 2005م، ص 69.

(1524م-1542م) الذي خضع له إثر حملة "شارلكان" على مدينة الجزائر عام 1541م، وسلم له قلعة المشور[1]، إلا أن تدخل الإسبان في شؤون هذه المملكة التي اعتبروها دائما بؤرة التوتر في المغرب الأوسط والبوابة للسيطرة عليه، أدى إلى استسلام حاكمها لهم حيث دعموا "محمد السابع" ضد أخيه "أبي زيان أحمد الثالث" (1542م- 1544م) الذي استنصر بالأتراك في الجزائر، وتمكن من العودة إلى العرش بتأييد "حسن آغا" سنة 1542م في حين فر "محمد السابع" إلى وهران مستنجداً بالإسبان فأمده حاكم وهران "الكونت دالكوديت" بجيش مكون من اثني عشر ألف من المشاة وألفين فارس[2] فدخل مع أخيه "أبا زيان أحمد الثالث" في معركة عند شُعبة اللحم قرب عين تموشنت في جانفي 1543م استطاع فيها "محمد السابع "وبدعم من الإسبان أن يلحق الهزيمة بقوات أخيه "أبي زيان أحمد الثالث" عند "سهل أنكاد"[3] وعاد إلى عرش تلمسان إلا أن أخاه "أبو زيان أحمد" تمكن بدعم من "حسن آغا" العودة إلى عرش تلمسان من جديد ما بين سنتي (1544م -1550م) بينما أُعدم "محمد السابع" من طرف سكان أنكاد الذين احتمى بهم.

وبمجيء "حسن باشا"[4] بن "خير الدين" (1544م-1552م) على رأس الجزائر بعد وفاة "حسن آغا" وجه كافة جهوده إلى الناحية الغربية (أي تلمسان)، التي دخل ملكها "أبو زيان أحمد الثالث" في خدمة الإسبان، حيث أدراك "حسن باشا" بأن بقاء

1 - **قلعة المشور**: تتوسط تلمسان أنشأها الموحدون بعد سيطرتهم على المدينة في القرن 12م وبداخلها دوراً للسكنى ومسجد جامع جميل، ينظر، يحي بوعزيز: مدن تاريخية، تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر: 1985م ، ص 37.

2 - صالح عباد: مرجع سابق، ص 70.

3 - تقع **أنكاد** في الجنوب الغربي من مدينة وجدة المغربية على نحو 30 كيلومتر، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع نفسه، ص 313.

4 - **حسن باشا**: هو الابن الوحيد لخير الدين من امرأة جزائرية أي كرغلي، عين بادئ الأمر كنائب لوالده في الجزائر عام 1544م ثم رقي إلى منصب بكلربك (بايلر باي) بعد وفاة والده عام 1546م وكلف بين عامي (1546-1567م) ثلاث مرات بهذا المنصب، ينظر، محمد خير فارس: مرجع سابق، ص ص (38-39).

الأسرة الزيانية ووجود الإسبان في وهران يعيقان حل مشكلة تلمسان، فقد كثرت الصراعات بين أبناء آل زيان الحكام، معتمدين في نزاعاتهم على القوتين المسيطرتين على القطر الجزائري الأتراك في الجزائر والإسبان في وهران.

فتحرك إليه في سنة 1546م إلا أن وصول نبأ وفاة أبيه "خير الدين" اضطره أن يعود إلى مدينة الجزائر حفاظاً على الوضع وحتى لا يخرج سكان الجزائر عن طاعته بعد سماعهم لخبر وفاة قائد الجهاد "خير الدين" باشا؛ ومن جهته استغل "دالكوديت" هذه الفرصة فحاصر مستغانم وأعان السعديين (محمد الشيخ السعدي) – الذي لم يرضى بوجود حكومة قوية في المغرب الأوسط – على احتلال تلمسان يوم 5 جوان 1550م مستغلاً خُلُوَّها من حاميتها التي شاركت في الدفاع عن مدينة مستغانم المحاصرة، ونزعوا "أبا زيان أحمد" عن عرش تلمسان ونَصب "محمد الشيخ السعدي" ابنه "عبد الله " على عرش تلمسان. وهنا تظهر لنا جبهة جديدة للقتال واجهت الأتراك في الجزائر وهم السعديون حكام المغرب الأقصى.

إلا أن "حسن باشا" استطاع أن يُلحِق الهزيمة بالسعديين في حوض الشلف سنة 1552م بفضل شجاعة القائد "حسن قورصو"[1]، وبعد هذه الأعمال التي قام بها "حسن باشا" استدعاه السلطان "سليمان القانوني" إلى القسطنطينية فَخَلَفَهُ على إيالة الجزائر "صالح رايس"[2] (1552م-1556م) الذي نجح في توسيع سلطة العثمانيين داخل البلاد الجزائرية.

فبعد وصوله إلى الجزائر اتجه نحو الجنوب في اكتوبر 1552م أين يتواجد الثائرون من بني جلاب ببسكرة وتقرت، وبني وارجلان (ورقلة) الذين امتنعوا عن أداء الضريبة لخزينة الدولة بعد خضوعهم للأتراك عقب حملة "حسن آغا" على بسكرة

1 – **حسن كورصو:** هو علج من كورسيكا ومملوك لصالح رايس، ينظر، صالح عباد: مرجع سابق، ص 81.

2 – ولد **صالح رايس** بالإسكندرية وكان يعمل إلى جانب خير الدين وتحمل قيادة الأسطول العثماني وعرف بالشدة والإقدام، ينظر، شارل أندري جوليان: مرجع سابق، (ج2)، ص 343.

والزيبان. وتمكن من إخضاعهم وأجبر حاكميْ توقرت وورقلة على دفع الجبايات[1] وضم المدينتين إلى الدولة الجزائرية وكان هذا بمساعدة أمير قلعة بني عباس "عبد العزيز" وشيخ العرب "بوعكاز"، كما أخضع (وادي سوف) ثم عاد إلى الجزائر أين واجه تمرد "عبد العزيز" أمير بني عباس الذي حاول الاستقلال بملكه، وطلب من "صالح رايس" أن يخضع له المنطقة الممتدة من بسكرة إلى المسيلة وأمام رفض "رايس" لهذا الطلب قام "عبد العزيز" بمحاصرة الحاميات التركية في زمورة والبرج والمسيلة والبويرة[2]، ودخل في معارك مع البايلرباي "صالح رايس" قُتل فيها "الفضل" أخ "عبد العزيز".

إلا أن "صالح رايس" جعل جبهة "عبد العزيز" ساكنة بالنسبة له واتجه إلى الغزو فهاجم جزيرة ميورقة فغنم خمسة سفن برتغالية كان على متنها الأمير الوطاسي "أبو حسون"[3] الذي أعانه "صالح رايس" عسكرياً ضد خصمه "محمد الشيخ" السعدي فتمكن من إلحاق الهزيمة "بمحمد الشيخ" السعدي في "تازة" يوم 7ديسمبر 1553م[4]، وفي طريق عودته من فاس دخل "رايس" تلمسان وعزل "مولاي الحسن بن عبد الله الثاني" الزياني من عرشها عام 1554م لتعاونه مع الإسبان وتآمره ضد الأتراك وألحق المملكة الزيانية بالسلطة التركية بالجزائر العاصمة رأساً.

---

1 – أستسلم ملك توقرت أحمد بن سليمان بن عمر بعد 3 أيام من محاصرة المدينة وقدرت الجباية عليه بما قيمته 2000 قطعة ذهبية مع عدد من رقيق السودان و30 عبداً من رقيق السودان سنوياً على حاكم ورقلة، ينظر، ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت: 2000م، ص ص (105، 526).

2 – محمد بن الصالح العنتري: فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، (ط2)، دار هومة، الجزائر: 2007، ص 40.

3 – كان **أبو حسون الوطاسي** قد وقع أسيراً في يد الجزائريين عندما استولى صالح رايس في إحدى غاراته على جزر البليار على 6 سفن برتغالية كان أبي حسون على متنها عندما توجه إلى شارلكان وملك البرتغال عام 1553 يطلب مساعدته ضد خصمه محمد الشيخ السعدي الذي طردهُ من عاصمته فاس (عاصمة الوطاسيين)، ينظر أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (340-341).

4 – شارل أندري جوليان: مرجع سابق، (ج2)، ص 343.

وبهذا وضع حدا لهذه الإمارة المنهارة كما وضع حداً للتدخل الإسباني في شؤونها – ومن جهة الإنصاف – كان لابد لها من هذه النهاية فأمراء بني زيان فضلوا مصالحهم الشخصية على مصالح العامة، فلو نبذوا خلافاتهم ووضعوها جانبا لأمكن توحيد المقاومة مع العثمانيين ضد الإسبان، ولتطهر المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني منذ القرن السادس عشر (16م).

ومن جهتهم تمكن أتراك عنابة وتونس من إخضاع قسنطينة في عام 1555م[1]؛ ثم توجه "صالح رايس" على رأس جيش كبير مكون من اثنين وعشرين سفينة وأربعة سفن بحرية وثلاثين ألف مقاتل، وانضم إليه رجال القبائل من إمارة كوكو، وأمير بني عباس "عبد العزيز" – الذي دخل في صلح معه – نحو مدينة بجاية في جوان 1555م ليخلصها من يد الإسبان الذين احتلوها منذ سنة 1510م فتمكن منها بعد محاصرتها.

وبتحرير بجاية زال الخطر الإسباني من السواحل الشرقية للجزائر إذا كانت آخر ما تبقى بأيديهم في هذه الناحية، كما أن تحريرها وضع حداً لحلم الإسبان في ضم المغرب الأوسط إلى الإمبراطورية الإسبانية، فلم يبقى في حوزتهم سوى وهران ومستغانم في الناحية الغربية.

وبعد هذا الانتصار الذي حققه "صالح رايس" ببجاية عزم على استرجاع وهران المحتلة منذ سنة 1509م كنقطة انطلاق لاسترجاع الأندلس من جديد، وهذا بعدما

1 – يعتبر هذا التاريخ هو التاريخ الرسمي لإلحاق قسنطينة بالحكم العثماني بالجزائر بعد محاولتين سابقتين، ودليل ذلك هو الرسالة التي وجهها سكانها إلى السلطان "سليمان القانوني" في شأن "صالح رايس" عام 1555م التي توضح رغبة القسنطينيين في الانضواء تحت راية الدولة العثمانية لكونها أهلاً لحماية الإسلام والمسلمين وهي تشبه رسالة أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول كما تعرف بفضل صالح رايس للإطلاع عليها، ينظر، ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص ص (111،113).

حصل على موافقة السلطان العثماني "سليمان" الذي رأى ضرورة فتح وهران قبل أن تسفر المفاوضات بين الإسبان و"محمد الشيخ" السعدي عن نتيجة عملية[1].

فأمده السلطان في سنة 1956م بـ أربعين سفينة على متنها ستة آلاف جندي عثماني بينما بلغت قوات "رايس" ثلاثين سفينة حربية وأربعة آلاف جندي، إضافة إلى عشرة آلاف من السكان الأصليين[2] (الجزائريين)، وسار جيشه براً إلى وهران بينما سار هو بحراً.

في حين وصل الجيش العثماني إلى بجاية في جوان من نفس السنة، إلا أن "رايس" توفي قبل أن يحقق مشروعه في فتح مدينة وهران والمرسى الكبير، نتيجة إصابته بمرض الطاعون الذي عم مدينة الجزائر آنذاك[3] فخلفه على قيادة الجيش "حسن قورصو" بمواقفه الإنكشارية، فشدد الحصار على مدينة وهران براً وبحراً ثم دخل في مناوشات مع القوات الإسبانية، وكاد أن يستولى على المدينة لولا صدور القرار السلطاني – الذي لم يكن في صالح الجزائريين – باستقدام السفن الجزائرية لتعزيز قوات المجاهدين العثمانيين ببحر الأرخبيل لرد حملة "أندريا دوريا" على البسفور مما جعل "حسن قورصو" يفك الحصار عن وهران[4] وهو ما حال دون استرجاعها.

وبعد تمرد الانكشارية[5] عقب وفاة "صالح رايس" أعاد السلطان "سليمان القانوني" "حسن باشا" بن خير الدين على حكم الجزائر للمرة الثانية في جوان

1 – أجريت هذه المفاوضات سنة 1555م بهدف القضاء على دولة الجزائر تحت إشراف حاكم وهران "الكونت دالكوديت"، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 366.

2 – صالح عبـاد: مرجع السابق، ص 80.

3 – ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، مرجع سابق، ص 108.

4 – عبد القادر فكاير: العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة العثمانية: مرجع سابق، ص 26.

5 – تسببت وفاة صالح رايس (جوان 1556م) في نشوب الصراع بين الوجق (الإنكشارية) وطائفة رياس البحر فقد عين الإنكشارية حسن قورصو ومنعوا البايلرباي "محمد تشلبي طكلرل"ي الذي عينته القسطنطينية دخول مدينة الجزائر، إلا أن مؤامرة الرؤساء سمحت لتاكلرلي بدخول المدينة وقتل حسن قورصو، وردّ الإنكشارية باغتيال محمد تشلبي طكلرلي ونصبوا يوسف صديق قورصوا

1557م، نظراً لكونه أدرى بأحوال أهل الجزائر بحكم فترة حكمه الأولى وللمكانة التي حظي بها لدى القبائل الجزائرية لكون أمه جزائرية.

فحاول "حسن باشا" مواصلة الهجوم على وهران غير أن تحالف الإسبان "الكونت دالكوديت" مع السعديين جعلهم يشنون هجوماً على مستغانم يوم 22 أوت1558م، ومن قبلها استولى الإسبان على مزغران، إلا أن رجال "حسن باشا" تمكنوا من استرجاع مزغران يوم 26 أوت 1558م وقتل معظم الجيش الإسباني وأسر الباقون، ونظم الشعراء في فتح مزغران القصائد الطوال فكانت هذه الواقعة أكبر كارثة حلت بالجيش الإسباني في الغرب الجزائري، فقد قتل فيها "الكونت دالكوديت" نفسه[1] وفقد الإسبان هيبتهم في هذه الناحية، وانحصر تواجدهم في مدينة وهران والمرسى الكبير.

وبعد هذا الانتصار توجه "حسن باشا" إلى الشرق أين يتواجد "عبد العزيز" أمير بني عباس الذي وسع من نفوذه هناك؛ وبدعم من صهره "ابن القاضي" أمير كوكو – الذي تزوج من ابنته – استولى "حسن باشا" على مدينة المسيلة سنة 1559م وبعض الحصون إلا أن "عبد العزيز" سرعان ما استرجعها، وبعد مقتله صالح أخاهُ "أحمد أمقران"[2] "حسن باشا" في نفس السنة (1559م) ثم وجه "حسن باشا" أنظاره إلى مدينة وهران ليسترجعها من يد الإسبان فأعد من أجل ذلك عشرة آلاف من رجال القبائل وفرقة من العلوج مما أدى إلى تمرد الانكشارية ضده بسبب تجنيده لرجال القبائل، فَأُرْسِلَ إلى استانبول، إلا أن السلطان "سليمان" أعاده من جديد في أوت 1562م على رأس الجزائر، فجهز حملة أخرى سنة 1563م متكونة من خمسة عشر ألف مقاتل من رماة البنادق، وألف فارس صبايحي بقيادة "أحمد أمقران الزواوي"

الذي توفي بالطاعون ثم جاء يحي باشا في ماي 1557م إلى أن جاء حسن باشا للمرة الثانية على رأس الجزائر، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 90.

1 – بلغ عدد القتلى والأسرى الأسبان 12 ألف، ينظر، أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص ص (376-377).

2 – **أمقران** هذا هو جد الأسرة المقرانية التي ينسب إليها محمد المقراني زعيم ثورة 1871، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص 92.

واثني عشر ألف من رجال زواوة وبني عباس[1] لغرض استرجاع مدينة وهران ففرض عليها حصاراً في أفريل 1563م، إلا أنه فشل في اقتحامها نظراً لوصول المدد إلى "الدون مارتان" حاكم وهران من إسبانيا (25 سفينة) مما أضطر "حسن باشا" إلى رفع الحصار الذي دام شهرين[2].

وبهذا بقيت وهران بيد الإسبان إلى أن انتزعها منهم "أوزن حسن" صهر الداي "محمد بكداش" بمساعدة باي الغرب "مصطفى بوشلاغم" يوم الجمعة 26 شوال 1119هـ/20 جانفي 1708م[3] واتخذها الباي "بوشلاغم" مقراً لحكمه، ونظم الشعراء قصائد طوال يمدحون فيها الداي "محمد بكداش"، ثم تحررت وهران نهائيا من الاحتلال الإسباني عام 1792م.

خاتمة:

ومما سبق خلصنا إلى الاستنتاجات الآتية:

أولاً: تعددت دوافع التحرشات الإسبانية على سواحل المغرب الأوسط الذي اعتبرته إسبانيا بوابتها لاحتلال شمال القارة الإفريقية نظراً لاعتبارات دينية متمثلة في العداوة التقليدية بين الإسلام والمسيحية، وملاحقة مسلمي الأندلس الفارين إلى السواحل المغربية عقب سقوط غرناطة 1492م، والدافع الاقتصادي الذي تمثل في رغبة إسبانيا في البحث عن أسواق لتوسيع مجال نشاط تجارتها، إضافة إلى الدافع

1 – أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 379.

2 – Moulay Belhamissi, Marine et marins d'Alger, (1518-1830) Tom II, (Face à l'Europe), Alger: Biliothèque Nationale d'Algeie, 1996,P19.

3 – محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقد، وتح، محمد بن عبد الكريم، (ط2)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: (1981)، ص 30، إلا أن الأسبان احتلوا وهران ومرساها من جديد في جويلية 1732م إلى أن تمكن الباي محمد الكبير باي معسكر من استرجاعها نهائياً يوم الاثنين 05 رجب 1206هـ/29 فيفري 1792م وهو التاريخ الذي غادر فيه حاكم وهران الدون "جون كورتين" المرسى الكبير على عهد الداي الخرناجي حسن، ينظر، عبد الرحمن الجيلالي: مرجع سابق، (ج3)، ص ص (268-269).

السياسي الذي يعتبر محركاً قوياً لمحاولة التوسع الاستعماري خاصة بعد توحد إسبانيا المسيحية.

ثانياً: أن الاحتلال الإسباني للمغرب الأوسط اقتصر في الغالب على المناطق الساحلية الاستراتيجية الهامة كوهران والمرسى الكبير، حيث أقاموا فيها حاميات ومراكز محصنة لصد أي عدوان مضاد محتمل من طرف السكان الأصليين، وهو ما يدل على أنهم تحاشوا المدن الداخلية خوفاً من الاصطدام مع السكان الأصليين، أو لأنهم كانوا يحاربون على جبهات أهم بالنسبة إليهم من شمال أفريقيا كبلاد إيطاليا التي سعت إسبانيا إلى ضمها، أو يرجع للمعاناة التي عاشتها المعسكرات الإسبانية على السواحل المحتلة من نقص العتاد والمؤن الذي كان يأتيها غالباً من البحر لبعدها عن الأرض الإفريقية.

ثالثا: بفضل جهاد الإخوة بربروس "عروج" و"خير الدين"، وخلفائهم من بعدهم ومن ناصرهم من سكان البلاد الجزائرية والأندلسيين استرجعت الجزائر كل المراكز الساحلية التي كانت بيد الإسبان، فكان استرجاع مدينة جيجل سنة 1514م بداية النهاية للتواجد الإسباني في المغرب الأوسط، وهو ما تحقق بعد استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير عام 1792م، لتنتهي الحرب الصليبية التي دامت ثلاثمائة سنة ما بين الإسبان والجزائريين (1492م-1792م)، وتم توسيع رقعة البلاد الجزائرية إلى أن وصلت حدودها الصحراء (ورقلة وتوقرت) على عهد البايلرباي "صالح رايس" فاكتسبت الجزائر بذلك مكانة خاصة وهيبة بين الدول آنذاك حتى أصبحت تُعرف ب"دار الجهاد" و " قلعة الإسلام " الصامدة في وجه القوة المسيحية حسب وصف كُتاب ذلك العصر وبهذا فشلت إسبانيا في تنفيذ مخططها الصليبي.

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

التأثير السياسي للطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث

الهادي هارون
طالب دكتوراه / جامعة غرداية
أ.د. صالح بوسليم / جامعة غرداية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز الدور السياسي الذي قامت به الطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء خلال الفترة الحديثة، مع التركيز بالأساس على دورها في تطوير الأنظمة السياسية بالدول والممالك الاسلامية في افريقيا جنوب الصحراء، كمملكة سنغاي وإمارة كانو، وإمارة سكوتو، ودولة ماسينا، وذلك في محاولة للتعريف بنظام الحكم وتشكيله وطريقة بنائه. وتمثل الطريقة القادرية، أحد أبرز وأكثر الطرق الصوفية انتشارًا في افريقيا جنوب الصحراء، منذ القرن الخامس عشر للميلاد.

الكلمات المفتاحية: الطريقة القادرية – افريقيا جنوب الصحراء – التأثير السياسي – الممالك الاسلامية–أجوبة المغيلي على أسئلة الأسقيا.

The political impact of the Qadiriyya's Doctrine in the southern desert of Africa during the contemporary era.

Abstract :

The following survey aims at bringing out the political role that the Qadiriyya's doctrine indertook and brought out in the southern desert of Africa during the contemporary period, focusing mainly and basically upon its role in the promotion and development of the political systems of the Islamic countries and kingdoms in the southern desert of Africa such as: Songhai kingdom, the principality of Kano and the one of Sokoto and the state of Massena.

This is in the attempt of determining the organization of the political system and the way it is founded.

This Qadiriyya's doctrine represents one of the most spread Sufism creed in the Southern desert of Africa since the fifteenth century.

Key words: the Qadiriyya's Doctrine – the Southern desert of Africa – the political impact – the Islamic Kingdoms – the responses of al Maghili upon the questiobs of al asqiya.

توطئة:

أدّت الطرق الصوفية دورًا هاما في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء في الفترة الحديثة في جميع مناحي الحياة، ومن ذلك الطريقة القادرية، والتي كان لها تأثير كبير في تبلور الفكر السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء؛ من خلال آراء واجتهادات علماء الطريقة كالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشيخ سيدي المختار الكبير الكنتي، إلى جانب ظهور دول إسلامية أسّستها شخصيات محلية انتمت للطريقة القادرية؛ كدولة الفلان ودولة ماسينا.وهو ما سنحاول معرفته في هذا المقال.

أولا : التعريف بالطريقة القادرية.

تُنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني، أو (الكيلاني) دفين بغداد (ت561هـ/1166م). وكلمة الجيلاني نسبة إلى بلاد جيلان[1] ، والتي ولد

1 – هناك اختلاف في تاريخ ميلاد الشيخ، فمنهم من يقول بسنة 470 ه ينظر: عبدالله عبد الرزاق إبراهيم : أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة1990 ،ص18 و. وينظر كذلك: حسن عيسى عبد الظاهر : **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني** ،الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ،ط1، 1991 ، ص 38 أما عن مكان ميلاده فقيل ببشتير ،وهي موضع بجيلان ، ياقوت الحموي ، **معجم البلدان** ،مج 2، دار صادر بيروت ،1977 ،ص 426، وهناك رأي آخر يقول أن جيلان قرية قرب المدائن جنوب بغداد وليس التي بأرض طابراستان، أنظر نور الدين ابي الحسن علي بن يوسف الشنطوفي : **بهجة الأسرار ومعدن الأنوار** ، تح، جمال الدين فالح الكيلاني، الطبعة الماجستيرية، بغداد، 2010، ص 34.

بها سنة (471ه/1078 م)[1]. وقد عاش في بغداد، وتصدى للتدريس والإفتاء على المذهب الحنفي، واشتهر بالزهد والتقوى[2].

وذكر الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" نسب الشيخ عبد القادر، حيث قال: هو الإمام والعالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام عالم الأولياء محي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد مولده بجيلان في سنة إحدى وسبعين وأربعمئة[3].

وقد ذكر الشنطوفي في "بهجة الأسرار": أخبرنا الفقيه العالم أبو المعالي أحمد بن الشيخ المحقق أبي الحسن علي بن عبد الرزاق عيسى الهلالي البغدادي قال: أخبرنا قاضي القضاة أبو صالح نصر قال أخبرنا والدي عبد الرزاق قال سألت والدي الشيخ محي الدين عن نسبه قال (عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم).[4]

نشأ الشيخ في بيت معروف بالعلم، فوالده من كبار علماء الجيلان، وأمه ابنة عبد الله الصومعي الزاهد، وظل الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان حتى سن 18، تلقى فيها مبادئ العلوم الشرعية، و التي لم تشبع نهمه و لم ترض طموحه، وللاستزادة من

أما عن نسبه، فقد كان سجال بين مؤيد لنسبه الحسني وبين طاعن في هذا النسب، على رغم من أن الشيخ لم يتكلم في نسبه في حياته ينظر: محمد الداه أحمد: **القادرية في موريطانيا**، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير، إشراف: عبد الشكور محمد أمان العروسي، قسم العقيدة، كلية أصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية 1412ه، ص38

1 – الحافظ بن كثير: **البداية والنهاية**، تح: محمد تامر وآخرون، دار البيان العربي، القاهرة، م6، 2006، ص، 635، وينظر كذلك: عبد القادر زبادية: دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، د.م. ج، الجزائر، 2010، ص، 229.

2 أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الأسلامية،ط4،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1983م،ج6، ص 211.

3– شمس الدين الذهبي : **سير أعلام النبلاء**،تح، شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1985، ج20، ص 439.

4– الشنطوفي : المصدر السابق ، ص 119.

العلم قصد بغداد سنة 488هـ/1095م، وهي السنة التي غادر فيها الإمام أبو حامد الغزالي المدينة.[1]

مكث في بغداد حتى وفاته، جلس إلى علمائها وأهل الرئاسة فيها، حيث نهل من علومهم قرابة ثلاثين سنة، حتى عقد أول مجلس له سنة 521ه/1127م. يتفاوت المؤرخون في ذكر شيوخ الشيخ عبد القادر ومنهم من عدهم إلى ثلاثين شيخًا.[2]

ومن أهمّهم أبو الوفاء بن عقيل، ومحمد بن الحسن الباقلاني[3]، والشيخ أبو الخير حماد بن مسلم الدباس (ت 525ه/1130م) [4]، والقاضي المبارك بن علي بن حسين المكنى أبا سعيد المخرمي (ت 513ه/1119م) وأجازوه[5].

وما أن بلغ سن الخمسين سنة، حتى صار من أشهر العلماء الحنابلة في بغداد، وطارت شهرته في مختلف الأرجاء وشدّت إليه الرحال، بحيث تكلم في ثلاثة عشر علمًا، وكان يقرأ القرآن بالقراءات العشر، ويفتي على المذهب الحنبلي والشافعي[6].

1- محمد أحمد درنيقة : **الطريقة القادرية وأعلامها**، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2009، ص 17.

2- محمد الداه أحمد : المرجع السابق، ص 52.

3- الباقلاني: أبو غالب محمد بن الحسن بن احمد الباقلاني البغدادي، روى عنه السمعاني، وبن ناصر والسلفي، اشتهر بكثرة بكائه خشية الله، توفى 500ه/1106م، عاش ما يقارب 80سنة. ينظر عنه: الذهبي: المصدر السابق، ج19،ص395

4- حماد بن مسلم الدباس : انتهت إليه رياسة تربية المريدين انتمى إليه معظم مشايخ بغداد و صوفيتهم في وقته. ينظر، حسن عيسى عبد الظاهر : المرجع السابق ،ص 383.

5- أبو سعيد المخرومي : ولد في 446ه/1054م ،قال عنه ابن كثير سمع الحديث وتفقه فيه على مذهب أحمد ، ناب في القضاء ،كان حسن السيرة ،جميل الطريقة سديد الاقضية توفى سنة 513ه/1119م، ابن كثير ، المصدر السابق،م6، ص 573.

6- علي بدوي علي سلمان : **الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريطانيا (1903-1960)**، رسالة الماجستير، إشراف عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، جامعة القاهرة، 2003، ص 18، ينظر كذلك: عبد العزيز بنعبد الله : **معلمة التصوف الإسلامي**، دار نشر المعرفة ، الرباط،ط1 ،20001 ،ج2، ص 214.

جلس للوعظ في شوال 521هـ/1127م وكثر طلابه، حتى ضاقت المدرسة بالناس، فنقل مجلسه خارج بغداد عند المصلى، وقد عُد في بعض مجالسه أربع مئة (400) محبرة، كان يدرس التفسير والحديث والمذاهب والأصول وغيرها وقصد مجلسه كل الناس باختلاف أصنافهم من عامة وخلفاء ووزراء وعلماء.[1]توفي ببغداد وشيّعه خلقٌ لا يحصون.[2] وما لبث أن تحول ضريحه إلى مزار يقصده عامة الناس، وفي العهد العثماني اهتم السلطان سليمان بالمقام، وكذلك المسجد الموجود بجانبه.[3]

أثنى عليه علماء عصره، إذْ يقول عنه العزّ بن عبد السلام: "بلغت إمامته القطع وكان عالما عابدًا متبعًا اتباعًا لا شائبة للهوى فيه، ومن أجل ذلك حازت طريقته القبول وقدره المفكرون قاطبه".[4] وقال ابن قدامه الفقيه الحنبلي: " ولا رأيت أحد يعظم من أجل الدين أكثر منه".[5]

وقال ابن كثير: " ... كان له سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهدٌ كثير، وله أحوالٌ صالحة و مكاشفاتٍ أكثرها مغالاة وقد كان صالحًا ورعًا.." .[6]

ترك الشيخ مؤلفات كثيرة أشهرها الغنية لطلاب طريق الحق، الفتح الرباني والفيض الرحماني، فتوح الغيب، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية .... وغيرها.[7]

1- عبد القادر الجيلاني : المصدر السابق، ص 21، عيسى حسن عبد الظاهر : المرجع السابق، ص384.

2- الذهبي : المصدر السابق، ج20، ص 450.

3- أحمد درنيقة : المرجع السابق، ص26، وأنظر كذلك: عبد القادر زبادية : دراسة عن إفريقيا،المرجع السابق،ص230.

4- علي بدوي علي سلمان : المرجع السابق، ص19.

5- محمد الداه أحمد : المرجع السابق، ص 67.

6- ابن كثير: المصدر السابق ، ص635.

7- عبد الله عبد الرزاق: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا، مكتبة الإسكندرية، مصر، 1989، ص 19، أحمد درنيقة : المرجع السابق، ص،ص27-28.

ثانيا : انتشار الطريقة القادرية في غرب إفريقيا.

عرفت الطريقة القادرية انتشارا واسعًا في أنحاء العالم الإسلامي، بفضل أبناء الشيخ عبد القادر الجيلاني وتلاميذه، وقد كان أول اتصال للطريقة القادرية ببلاد المغرب الأوسط وتونس على يد الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي (ت594ه/1197م)[1]، وذلك خلال القرن 12م[2]، حيث تتلمذ على يد شيخها، وأخذ عنه التصوف وألبسه الخِرْقَةَ في لقائهما في الحج[3]. ولما رجع إلى بلاد المغرب استقر ببجاية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد، ونشر بها العلم وتعاليم الطريقة. وهكذا أخذت هذه الأخيرة في الانتشار في كامل بلاد المغرب، وذلك بواسطة عدة شيوخ، كعبد السلام بن مشيش[4] وغيره، لتنتقل إلى الصحراء

1- أبو مدين شعيب الأنصاري: شيخ المشايخ، سيد العارفين و قدوتهم، الإمام المشهور أندلسي المولد، كان زاهدا فاضلا عارفا، من اعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي، سافر للمشرق وأخذ عن علمائه تنعرف على الشيخ الجيلاني، سكن بجاية ودرس بها، مات سنة594ه/1197م، ودفن بالعباد ضواحي تلمسان. أنظر يوسف بن يحي التادلي: **التشوف الى رجال التصوف**، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب ، الرباط 1997،ص-ص319-325،و أحمد بابا التنبكتي :**نيل الابتهاج بتطريز الديباج** ، تقديم: عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ،طرابلس ،ط1 1989م،ص-ص193-198، وكذلك عبد القادر التليدي : المطرب بمشاهير أولياء المغرب ،دار الأمان ،الرباط، ط2003،4،ص-ص92-99 .

2-الطاهر بونابي : المرجع السابق ،ص 543، وأنظر كذلك آدم عبد الله الآلوري : الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، الدار العربية، بيروت ، ط2، 1971، ص 43.

3- الخليل النحوي : شنقيط الرباط والمنارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص 121، خنقوف إسماعيل: دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس، 1844-1931، بحث مقدم للماجستير، إشراف صالح فركوس ،قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الاسلامية، جامعة باتنة،السنة الجامعية ،2011،2010، ص36.

4-اختلف المؤرخون في سنة ميلاد عبد السلام بن مشيش، فمنهم من قال في سنة 559ه/1163م، ومنهم من رجّح 563ه، ولد بقرية الحصين، من فبيلة بني عروسي، وهي قبيلة جبلية، قرب ساحل المحيط، حفظ القرآن وهو في سن الثانية عشر من عمره. ومن أشهر مشايخه الولي الصالح الحاج احمد القطران، له صلاة تسمى بالمشيشية، توفى سنة 625ه/1227م، ينظر التليدي: المرجع السابق، ص-ص92-99.

والواحات، ومن توات في أقصى جنوب غرب الجزائر؛ ولجت الطريقة إلى بلاد السودان الغربي عن طريق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909ه/1503م)[1] الذي نشر الطريقة القادرية بمنطقة توات وأسس بها زاوية بقصر بوعلي في أواخر القرن 09هـ/15م، إذْ كان لها إشعاعُ كبيرُ في منطقة توات وغرب إفريقيا.[2]

1- المغيلي: هو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، ولد بالقرب من تلمسان وعلى الأرجح بمواطن قبيلة مغيلة البربرية بالغرب الجزائري، نشأ بتلمسان، حيث تلقى تعليمة على يد شيوخها، ثم تحوّل إلى مدن أخرى بالمغرب الأوسط والأقصى لمتابعة دراسته، فأخذ عن الشيخ يحي بن يدير وعن الشيخ عبد الرحمان الثعالبي عالم الجزائر ووليها (ت 875ه/1470م) كما درس على الشيخ أبي العباس الوغليسي ببجاية، فاكتسب ثقافة دينية وأدبية أهلته لأن يعد من علماء عصره، فنال التقدير وحظي بالاحترام من طرف العديد من العلماء. وكان المغيلي من أكابر علماء القرن التاسع الهجري/15م، لما اشتهر به من ثورة على تخلف وانحراف المنطقة التي هاجر إليها عقب ظروف خاصة بالمغرب الأوسط (الجزائر)، وقد اتخذ المغيلي منطقة توات وتمنطيط مستقراً ومجالاً للدعوة وتجديد روح الإسلام، ثم اتصل بحكام الهوسة الوثنيين بالسودان الغربي، وكانت له محاورات مع الحاج محمد الأسقيا حاكم سنغاي، كما كان للمغيلي مواقفه الحادة من سيطرة اليهود على تجارة السودان الغربي، فحارب نفوذهم ودعاهم إلى الالتزام بالعهود والنصوص الإسلامية والقوانين الضابطة لعلاقات المسلمين بأهل الذمة في الدولة الإسلامية.

ينظر: ناصر الدين سعيدوني: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1999م، ص266.

ينظر أيضا: أحمد بن يحي الونشريسي: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق الأستاذ: محمد الأمين بلغيث، مؤسسة لافوميك للنشر والتوزيع، الجزائر 1985م، (مقدمة المحقق) صفحات، ص ص 05-13.

2- ينظر التنبكتي: المصدر السابق، ص576. صالح بوسليم، الزين محمد : حركة التصوف ونشاط الطرق الصوفية بإقليم توات وإفريقيا الغربية خلال القرنين 12-13ه/18-19م، في مجلة الحوار المتوسطي، العدد05، يصدرها مخبر البحوث والدراسات الاستشرافية في حضارة المغرب الإسلامي، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس- الجزائر، مارس2013،ص ص 37-38. زهرة مسعودي: **الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م-20م**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف عبد الكريم بو الصفصاف، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، جامعة أدرار، 2009-2010، ص 52. انظر أيضا التنبكتي: المصدر السابق، ص576.

فقد قام الشيخ المغيلي برحلة طويلة إلى منطقة السودان الغربي، حيث زار عدّة مناطق وظل فيها مشتغلا بالوعظ والدعوة والنصح للحكام، ومن هذه المناطق كانو، وكاتسينا، وكاغاو، و تيقدا، وآهير، وبلاد الهوسا ثم بلاد التكرور، وبعد ذلك التحق بغاو عاصمة مملكة سنغاي والتقى بالأمير الأسقيا محمد الكبير[1].الذي حكم سنة 1493م[2]، ولذلك يعتبر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي أول من نشر الطريقة القادرية بالسودان الغربي.[3]

وفي سنة 1553م بدأت أفكار جديدة تؤثر على الطريقة القادرية في وسط وغرب إفريقيا وجاءت هذه الأفكار من مصر وتركيا عبر شرق إفريقيا، حيث ظهرت أفكار الشيخ زروق[4]،

والذي يعتبر من أهم رجال الطريقة بأغاديس، ومن هذه المدينة انتقلت أفكاره وآراؤه إلى الشيخ المختار الكبير.[1]

1- الأسقيا محمد الكبير: الحاكم الأول لمملكة سنغاي في عهد الأسقيين(1493م-1528م)، عمل على تقوية الدولة من خلال القيام بخلق مؤسسات، وتحرير الجيش وفتحه لكل أبناء القبائل، وتنظيم الإداري للبلاد بتقسيمها لمقاطعات، قرّب إليه الفقهاء والعلماء، وقد شهدت مملكة سنغاي في عهده أكبر اتساع جغرافي، وتعداد بشري. وتنظيم حضاري. ينظر: عبد القادر زباديه: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص31 ومابعدها.

2-عبد العلي الودغيري : **اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2010، ص-ص 77-79، وأنظر كذلك يحي بو عزيز : تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن 20م،دار هومة، الجزائر، 2001، ص-ص 80-83.

3- آدم عبد الله الآلوري : المرجع السابق، ص 43.

4- الشيخ زروق: هو أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، الامام القطب المحدث الصوفي (846ه/1442م-899ه/1493م)، عاش يتيما، حفظ القران وهو صغيرا، اشتغل بالتصوف، أخذ رسالة الطوسي عن عبد الرحمن المجدولي، من شيوخه التازي و المشدالي أما في المشرق منهم الحافظ السخاوي، وبن عقيه الحضرمي، ومن مؤلفاته شرح مختصر خليل، وكتاب عدة المريد . التنبكتي: المرجع السابق، ص 130

ونظرًا للروابط التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، فقد كانت هناك هجرات من منطقة توات إلى غرب إفريقيا، ومن هذه الهجرات هجرة قبيلة كنتة والذين اتخذوا من ولاته مركزًا لهم؛ ولذلك عدّت هذه المدينة مركزًا حضاريًا للثقافة الإسلامية للسودان الغربي، وأول نقطة لنشر الطريقة القادرية لهذه المناطق، وبسبب ظروفٍ تحولت هذه القبيلة إلى تنبكت ونشروا فيها الاسلام عن طريق الطريقة القادرية، وبعد توطد أركان الطريقة القادرية بالمدينة أخذت طريقها إلى باقي أجزاء القارة.[2]

ولعل أبرز من جاء بعد المغيلي الشيخ أحمد البكاي[3] وأبنه سيدي عمر (ت 1552م).[4]

كما عمل السيد التأزاري على نشر القادرية في كل ما يسمى اليوم بغامبيا وغينيا بيساو وليبيريا وغانا.[5]

ومن أبرز الوجوه الكنتية التي ساهمت مساهمة فعالة في إرساء القواعد القادرية وبناء سرحها وإضفاء الطابع الإفريقي عليها بالمنطقة الشيخ سيد المختار الكبير الكنتي (ت1811م)، وقد نجح بسبب تمتّعه بصفات حميدة وثقافة عالية، واعترف له

1- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم : المرجع السابق، ص 37، عبد العزيز بنعبد الله : المرجع السابق، ج2، ص، 215.

2- توماس آرلوند : **الدعوة إلى الاسلام** ، تر :حسن إبراهيم حسن، القاهرة ، النهضة العربية، 1984، ص 365.

3- البكاي: سيدي احمد البكاي (ت920ه/1514م)، عابد صالح قيل انه كثير البكاء، لان الصلاة في المسجد فاتته مرة، فلقب البكاي، مر بولاته فرأى الناس من بركته ورغبوا اليه في البقاء معهم، فأقام بها، قبره بحبلها معروف اليوم. النحوي : المرجع السابق،ص515.

4- سيدي عمر: بن الشيخ سيدي أحمد البكاي الكنتي(ت959ه/1552م)، أخذ الطريقة على يد الشيخ المغيلي، حيث صاحبه 30 سنة، وقيل أن المغيلي أوصى تلاميذه بالذهاب إليه بعد موته. محمد الداه أحمد: المرجع السابق، ص ص149-150.

5- محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية: **المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007 ، ص 44، أحمد شلبي : المرجع السابق، ص 212.

بالمشيخة وأصبح قطبًا للطريقة القادرية.[1]وصارت تعاليمه التي حملها تلاميذه، من أبرز العلامات التي ساعدت على انتشار الاسلام بين شعوب افريقيا جنوب الصحراء، خاصة في بلاد السودان الغربي والأوسط.[2]

كما أنشأ المختار الكبير مدارس وزوايا جديدة لنشر الطريقة القادرية والإسلام في منطقة نهر النيجر والأجزاء الغربية وجنوب البورنو، وكاتسينا، ودانداي، والسينغال، وقد اكتسب تلاميذه الذين انتشروا في غرب إفريقيا احتراما وقبولاً من خلال سلوكهم وتعاملهم في تجارتهم مع الأفارقة، وإذ سمح لهم هذا النشاط بالاختلاط مع المواطنين في المناطق الوثنية، كما عملوا على تأسيس المدارس بهاته المناطق لتحفيظ القرآن وتعليم ما يجب معرفته في أمور الدين.[3]

ويجب أن نشير بأن الإسلام بجهود قادة الطريقة القادرية لم يعد دينًا لمجموعة قليلة من التجار أو من العلماء في المدن الرئيسية، بل أصبح دينًا يعتنقه الملوك الوثنيون.[4]

وعلى هذا الأساس امتد نفوذ الشيخ المختار الكبير الكنتي في غرب إفريقيا، وتبعه أمراء وقبائل إفريقيا عدة، فقد بايعه أمراء سكوتو، حيث بايعه الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبد الله وأبنه محمد بلو، وأمراء بورنو وجميع القبائل الفولانية، البمبارا، و السنغاي، و الماندي، وجميع الأفارقة المتواجدين من الشمال والغرب وبحيرة تشاد في الشرق[5].

1- عبد الرزاق عبد الله إبراهيم : المرجع السابق، ص 38، وأنظر كذلك:
Shamil Jeppie and Souleymane Bachir Diagne: The meaning of Tumbukto Published by HSRC Press, South Africa,fp2008, p, 199

2- صالح بوسليم و محمد الزين : المرجع السابق، ص 37.

3- أحمد إلياس حسين : دور الصوفية في المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء (9-13ه) (15-19م) السودان نموذجًا، في مجلة الجامعة الأسمرية، ليبيا، السنة الثالثة ع أربعة، ص، 316.

4- أحمد إلياس حسين : المرجع نفسه، ص، 316.

5- زهرة مسعودي : المرجع السابق، ص 71.

ثالثا: تأثير آراء الشيخ المغيلي في الحياة السياسية بالمنطقة.

تحدثنا أعلاه عن رحلة المغيلي إلى بلاد السودان ودوره الإصلاحي والتعليمي فيها، وأثناء هذه الزيارة كان قد تقلّد القضاء والاستشارة لدى بعض الملوك، ففي كانو التقى المغيلي بحاكمها محمد بن يعقوب رنفا، الذي عيّنه كمستشار له، وطلب منه أن يكتب له فيما يخص أمور السلطنة فكتب له ما يحضه على إتباع الشرع والأمر بالمعروف النهي عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده، على منوال الاحكام السلطانية للموردي[1].

1- رسالة و وصية المغيلي لأمير كانو :

قد رتب المغيلي رسالة أمير كانو في ثمانية أبواب حسب الموضوعات التي طرحها:

الباب الأول: يجب على الأمير حسن النية في الإمارة، وإن على كل ذي عقل الابتعاد عنها إلا إذا لم يكن له بدٌّ منها، فتوكل على الله فيها واستعين به وليكن عملك كله خالصا لوجه الله ...[2]

الباب الثاني : يجب على الأمير تحسين الهيئة في مجلسه، وإظهار حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله ويعتدل في لباسه....، غير مبذر لبيت المال....، ويقرب إليه الأخيار والعلماء والأتقياء والصلحاء.[3]

1- التمبكتي : المصدر السابق ، ص 577 ، مبروك مقدم: **الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد**، دار الغرب للنشر والتوزيع ،وهران ،2006،ص33

2- المرجع نفسه،88.

3- أبوبكر ميغا: دعوة الامام المغيلي العلمية والاصلاحية في السودان الغربي اواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية بالمنطقة، في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ع 7، أكتوبر 1992، ص209

الباب الثالث : فيما يجب عليه من ترتيب مملكته على ما يتمكن من صلاحها، لأنه راعٍ على جميعهم، ولا يمكن أداء ذلك إلا بنواب، كالوزراء والإمامة والقضاة والأمناء ....

الباب الرابع : التزام الحذر في الحضر والسغر بإظهار القوة والجَلد عن تغيير الأحوال. وإظهار الزهد في الصاحبة والولد لئلا يمنعه ذلك عن العدل. وحب الخروج للجهاد وبغض المقام، في الديار... وأن يكتم سره.

الباب الخامس : فيما يجب كشفه عن الأمور التي يجهل في رعيته، بالعدول والأمناء،.... وكأمور الأعداء بالجساس والأمناء .

الباب السادس: فيما يجب عليه من العدل والإحسان، فالعدل أن يوفي كل ذي حقٍ حقه، أما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه، أي يزيد لكل من أراد أن يحسن عليه زيادة على صفة مما كان من نصيبه، لا ما كان من نصيب غيره... ومن العدل أن يساوي بين الخصمين في جميع أمورهما، و أن لا يقبل من الشهود إلا من كان عدلا رضي فيما لا تهمة له فيه، فإذا تعذرت العدالة فعليه أن يراعي أمثالهم.[1]

الباب السابع : فيما يجب عليه من جني الأموال من وجوه الحلال، وملاك السلطنة هو الكف عن أموال الناس بأن لا يطلب منهم شيئًا لم يكلفهم الله به، والطمع في أموالهم خراب للمملكة، فمن الأموال التي حللها الله للأمراء قبضها وصرفها هي: زكاة العين والحرث والماشية وزكاة الفطر والمعدن وخمس الغنيمة والركائز وأموال الحرابة والصلح، وما يؤخذ من تجار أهلها وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب... وعن الأموال المحرمة؛ أموال الظلم، كأخذ أموال التولية على القضاء، والرشاء لسلطان وقاضٍ وعامل.. ، وقبول الهدية،

1- آدم عبد الله الألوري : المرجع السابق، ص-ص 78-80

حيث إذا دخلت الهدية على ذي سلطان خرج عنه العدل والأمان وصار صاحبه بالخيان .[1]

الباب الثامن: وفي مصارف أموال الله؛ فيجب على الأمير صرف أموال الله بالكرم لا بالبخل، والتبذير والكرم بذل ما يحتاج له عند الحاجة المستحقة بقدر الطاقة، ... فمن خرج عن هذا الحد فقد تعد وظلم، وهو إما بخيلُ أو مبذر في أرزاق بيت المال، وفي كليهما خراب المملكة. فمال الله قسمان: قسم زكاة مصارفه الأصناف الثمانية التي في القرآن، والقسم الثاني الفيء كالخمس والركاز ...والتي ذكرت سابقًا حصر فيها حكمه إلى الإمام تصرفه في المصالح بالتقوى لا بالهواء.[2]

كما كتب الشيخ المغيلي وصية لملك كانو، بعد أن سأله عمّا يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، وهي الرسالة التي يتّضح من مضمونها الحركة الإصلاحية النشيطة التي قام بها المغيلي في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء، ويمكن إيجاز التوصية فيما يلي:

لا بد من ردع المفاسد الدينية والدنياوية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية، فلكل دواءٍ داء ولكل مقامٍ مقالٌ وفِعَالٌ بحسب ما يظهر في الأحوال، وأمنع جميع أهل البلاد عن جميع أنواع الشرك وكشف العورة وشرب الخمر، وغير ذلك من المحرمات، وأمنع الكفار من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل لئلا يفعل ذلك ضعاف العقول من العامة والنسوان والصبيان، ومع عدم فعل بالمُفْسِد ماهو أشد في ردعه قد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله "تَحدُث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور"، إن الناس في حكم الله ورسوله سواء، فلا تخرج من ذلك عالمًا ولا عابدًا ولا أميرًا فأقم حق الله على جميع عباده بالتقوى لا بالهواء.[3]

1- مبروك مقدم : المرجع السابق ،ص-ص 117-119 . آدم عبد الله الألوري : المرجع السابق، ص80.

2- نفسه،ص81.

3- يحي بوعزيز : المرجع السابق ،ص ص 95-97 وكذلك آدم عبد الله الآلوري : المرجع السابق، ص-ص 83-85.

من خلال الوثيقتين، يتّضح بأن المغيلي، قد أعطى تصورًا واضحًا للمفاهيم الإسلامية التي يجب أن يلتزم بها الحاكم والمحكوم، من وجوب استشعار أن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسوله صلى الله عليه وسلم، ووجوب إحسان النية فيها، وما يجب عن الأمير في خاصة نفسه ومجلسه وبطانته، وترتيب مملكته وحسن اختيار أعوانه وعماله، ووجوب التزام الحذر في الحضر والسفر، وشدّة مراقبة العمال ومدى التزامهم بالعدل.[1]

وما يجب عليه وعليهم من جني الأموال من وجوه الحلال، وصرفها في مصارفها الشرعية ومنع أهل البلاد عن جميع أنواع الشرك والمحرمات، ومنع كفار البلاد من فعل ذلك، وأنّ الناس سواء في حكم الله ورسوله.[2]

2-أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي:

رحل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد كانو إلى سنغاي، ووصل إلى كاغو واتصل بالأسقيا محمد الأول سنة 1502م، وكانت أجوبة المغيلي لأسئلة اشتغل بها السلطان، وقد تعلّقت بانشغالاته السياسية وقضايا تنظيم الإمارة وأحوال الرعية.[3]

ومن مضمون الإجابات، يمكن قراءة تأكيد المغيلي على المسائل السياسية التالية:

- السلطان راعٍ لا مالك، إذ أن الملك لله وهو الذي يحفظ ويعين الطائع، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته. وأوصى الأمير بالعدل والابتعاد عن أهل الشر وتقريب أهل الخير.

- على السلطان إبعاد علماء السوء ولأن شرهم مستطير وهم أضر على المسلمين من جميع المفسدين، وعدم تركهم يتكلمون في أمور الدين.

1- أبو بكر ميغا : المرجع السابق، ص 207.

2- المرجع نفسه ، ص208

3- محمد بن عبد الكريم المغيلي : **أسئلة الأسقية وأجوبة المغيلي**، تح:عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر للتوزيع الجزائر 1974م، ص، 6.

– تقريب أهل الذكر واستشارتهم والاستماع إلى نصائحهم، مع وجوب أن يكون الأمير كيّس فطن له منزلة من العلم والعمل[1].

– وجوب معرفة من تجب مجاهدتهم، وعلى الأمير أن يكون عارفًا أوجه الجهاد فلا يجاهد المسلمين؛ والكفار أصناف ثلاثة: الكفر الصريح، وكفر المسلم المرتد، وكفر المسلم الذي يحكم بكفره، والبلاد ثلاثة: السائبة يجوز الجهاد فيها، والثانية البلاد التي لها أميرٌ يسوس الناس في دينهم ودنياهم لا يحل لأحد أن ينازعه في رعيته، والثالثة أميرها ظالم فإن تيسّر خلعه فجائز...[2]

– اتخاذ المحتسب وبيت المال، وعمال على الأموال في جبايتها من وجهها الشرعي، وإنفاقها في وجه الخير وشروط المسؤول على مال المسلمين التقوى والعدل.

– وجوب محاربة العصاة بأحكام الله من خلال حفظ حدود الشرع في الميراث والمال.

– محاربة المفسدين ومدعي السحر، لأن فسادهم في البلاد كبير، وعلى الإمام إرجاعهم إلى الصواب، ومنع المناكر والمحرمات.[3]

وعلى ضوء هذه الأجوبة يتجلّى بوضوح اجتهاد الشيخ المغيلي في بحث المسائل الشرعية، وأن فتاواه كانت بمثابة قانون شرعي جمع أغلب المسائل التي تنظم الدولة وأحوال المجتمع.[4]

1– عبد الله مقلاتي و رموم محفوظ : **دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية**، دار الشروق، 2009م، ط1،ص، 126

2– عبد الله مقلاتي و رموم محفوظ: المرجع نفسه، ص 126.

3– المرجع انفسه، ص128.

4– أبو بكر ميغا : المرجع السابق، ص، 250، الطيب الوزاني : **مقومات التفاعل الحضاري بين دول إفريقيا والمغرب الأقصى معالجة في التركيب**، ضمن كتاب ندوة التواصل، ص، 489.

وقد امتد تأثير الشيخ المغيلي إلى عصر عثمان بن فودي، حيث اعتبرت الدولة الفلانية قائمة على الأسس التي وضع أصولها المغيلي، لأن الشيخ عثمان بن فودي يعده مرجعًا مهمًا؛ كما أن كل من معه يتمسكون برسائله وفتاواه.[1]

رابعا : الدول القادرية في غرب افريقيا.

1-دولة الفلاني (سكوتو):

عاشت ولايات الهوسا بعد سقوط مملكة سنغاي عهدا فوضويا اتّسم بالحروب والنزاعات المستمرة بين ولايات الهوسة السبعة، وكان ذلك تمهيدا لظهور قوة الفلانيين؛ بقيادة الشيخ عثمان بن فوديو.[2]

أ – مولده ونشأته:

ولد الشيخ عثمان بن فوديو بأرض غوبير في أسرة فولانية (1754-1818م) ، ونشأ في حجر والديه الصالحين، كان أبوه من أهل الفتية فنشأ عثمان نشأة صالحة في هذه البيئة الدينية، فأخذ مبادئ العلم عن والده وحفظ القرآن وهو صغير؛ ومن شيوخ عبد الرحمن بن حمدا والذي أخذ عليه علوم اللغة، وعن الفقيه محمد تنب بن الشيخ عبد الله الفقه ورحل في سن العشرين إلى بلاد الطوارق لمدينة آغاديس الحاضرة العلمية، حيث تعلّم على يد الشيخ جبريل بن عمر القادري ونهل من علمه حتى أجازه.[3]

وقد كان لهذا العالم الأثر الفعال في تكوين شخصية عثمان علميًا وفكريًا، ثم انتقل الشيخ لدرس علم التفسير على أحمد بن محمد الأمين وهاشم الزنفري، ثم درس علوم الحديث على يد خاله بن مود بوعال، وبعد هذه الرحلة الطويلة الحافلة بالنشاط والاجتهاد في تحصيل العلم بلغ بن فودي مرحلة متميزة من النضج بفضل ما اكتسبه

1- محمد مسعود جبران: **التفاعل العقدي والحضاري بين الغرب الإسلامي والسودان الأوسط والغربي**، في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد 22، 2005م، ص 97.
2- آدم عبد الله الآلوري : المرجع السابق، ص94.
3- آدم عبد الله الآلوري : المرجع نفسه، ص94.

من خبرة في معالجة المسائل الدينية والقضايا الاجتماعية، ومما أهله ليكون داعيًا ومصلحًا في بيئة تفشت فيها الخرافات والبدع والمفاسد الأخلاقية، ونسي الناس أصول الدين الإسلامي، في هذا الجو أخذ الشيخ عثمان على عاتقه رسالة إصلاح المجتمع والدين والسياسة، وإحياء الكتاب والسنة النبوية، وبناء دولة إسلامية.[1]

ب-حركة عثمان بن فودي وتأسيس الدولة: لخّص الدارسون حركة عثمان بن فودي في ثلاث مراحل:

- **الدور الأول:** انطلاق الدعوة ومنجزاتها (1198هـ -1780م/1218هـ-1800م)

في هذه المرحلة مارس الشيخ الوعظ والإرشاد ودعوة الناس إلى تصحيح عقيدتهم الإسلامية ونبذ البدع والخرافات، وإتباع السنة والتفقه في الدين، ومن أجل ذلك قام بعدة سفريات في بلاد الهوسا[2]

سعى من خلالها لإقناع الناس بدعوته الإصلاحية الجديدة، ودرس الوعظ وابتعد عن شؤون السياسة حتى لا يصطدم بالحكام والأمراء، ورفض الاتصال بهم والتعاون معهم حتى يكون حرًا في دعوته مركزًا على بث التربية الدينية والخلقية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتخذ الشيخ من بلدة الدغل مقرًا لدعوته الجديدة يعود إليها كل ما انتقل إلى جهة من الجهات كما اعتمد على تلاميذه كأعوان له منهم أخوه عبد الله الذي لازمه ما يقارب نصف قرن، وقال عنه: " قمنا مع الشيخ عثمان نعينه على تبليغ الدين، يسير لذلك شرقًا وغربًا يدعو الناس إلى دين الله بوعظه وقصائد أعجمية، ويهدم العوائد المخالفة للشرع"[3].

وقد زار الشيخ عثمان إقليم زامفاور الخاضع لإمارة جوبير، وأقام بها خمسة سنوات يدعو الناس للإسلام نساءً ورجالاً فأثار حفيظة بعض العلماء مثل الشيخ

1- أحمد بو عتروس: المرجع السابق، ص ص 134-135.
2- يحي بو عزيز: المرجع السابق، ص 142.
3- يحي بوعزيز: المرجع نفسه، ص 142.

مصطفى القوني الذي أنكر عليه النساء والرجال في حلقاته الدراسية والوعظية[1]. فألف الشيخ كتابًا للرد على هذه الاتهامات وسماه تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ مجلس لأجل تعليم النسوان وكلف أخوه عبد الله بالرد شعرًا على ذلك.[2]

وركّز الشيخ عثمان في وعظه وإرشاده على أسس قامت عليها دعوته، فقد وضّح عقيدته الإسلامية والمذهب المالكي الذي ينتمي إليه، كما اهتم بشرح العبادات وإرشاد الناس كل ما يهم أمور دينهم وتأدية عبادتهم على الوجه الصحيح، مستخدمًا في ذلك جميع الوسائل الفكرية والعلمية للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مركزًا على الدعوة إلى التوحيد الخالص والبعد عن الشرك والحظ على الالتزام بسنة رسول الله وترك البدع والأهواء، وجعل حقيقة التصوف تعود لصدق التوجه إلى الله الاقتداء بسنة رسوله.[3]

وبفضل نجاحه حسده بعض علماء زمانه وسعوا به لدى الأمراء والحكام، مما أثار حفيظة أمراء إمارة جوبير وقلقهم من حركة الشيخ، فحاول السلطان ناوا إرضاء الشيخ بهدية فرفضها طالبًا منه عوضًا عنها النقاط التالية[4]:

- السماح للشيخ وجماعته بدعوة الناس في سلطنته إلى دين الإسلام؛

- عدم اعتراض أو منع أي شخص يعتزم التجاوب مع تلك الدعوة واعتناق الإسلام طوعًا؛

- احترام السلطان وحاشيته لجماعة الشيخ؛

1- ينظر: القصيدة للرد في تعليم النسوان ، عبد القادر زبادية: إفريقيا...، المرجع السابق،ص-ص78 -84.

2-آدم عبد الله الآلوري : المرجع السابق، ص 106.

3- نورة بنت معجب الحامد : **دعوة الشيخ عثمان بن فودي بنيجيريا 1202هـ/1788م وتأثرها بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية**، كلية الآداب جامعة الملك سعود، السعودية، 2007م، ص، 10، كذلك يحي بوعزيز: المرجع السابق ص 143.

4- عثمان بيرما باري : **جذور الثقافة الإسلامية في الغرب الإفريقي**، دار الآمين ،ط1، القاهرة ،2000، ص،ص 105-106.

- إطلاق سراح جميع الذين اعتقلوا من قبل السلطان بحكم انتمائهم للجماعة؛

- تخفيف عبء الضرائب المقررة على أهالي السلطنة.

ويعد وفاة السلطان ناوا 1794م خلفه نافاتا وواصل عداءه للمسلمين والتضييق على جماعة الشيخ، ونظم مؤامرة لقتله لكنه مات قبل ذلك ليخلفه إبنه يونافا، وسار على نفس النهج وقتل كثيرًا من أتباع الشيخ؛ وعندئذٍ قرر الشيخ أن ينتقل بحركته من الوعظ والإرشاد إلى إعلان الجهاد.[1]

- **الدور الثاني :** (1800م-1810م)

أصدر في بدايته وثيقة لأهل السودان عام 1802م، دعى فيها إلى إعلان الجهاد ضد أمراء جوبير ومحاربة الطغاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والهجرة من أرض الكفرة والكفر إلى أرض الإسلام وصارت هذه الوثيقة إعلانًا رسميًا للجهاد، حيث حدد فيها الشيخ الأسس التي بنى عليها جهاده، كوجوب الهجرة إلى من بلاد الكفر ووجوب الجهاد وموالاة المؤمنين، وتعيين القضاة وتأمير الأمراء واتباع ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارها أهم مصادر التشريع الإسلامي وتنفيذ أحكام الشرع.[2]

وبعد أن أصدر الشيخ هذه الوثيقة راسل جميع الأمراء في بلاد الهوسا طالبًا منهم الدخول تحت طاعته على أساس الإسلام، فرفضوا دعوته ماعدا أمير زارايا، مما جعله يدخل بأنصاره وتلاميذه في حركة جهادية.[3]

وبعد الانتصارات المحققة على جميع الأمراء في بلاد الهوسا المترامية أسس دولته الإسلامية واتخذ من سكوتو عاصمة لها.[4]

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 145.

2- أحمد بو عتروس: المرجع السابق، ص 153.

3- عبد القادر زبادية: إفريقيا، المرجع السايق، ص 80.

4- لمعرفة المعارك وتواريخها أنظر **أحمد بوعتروس: الحركة الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن الثالث عشر التاسع عشر ميلادي**، دار الهدى، الجزائر،2009، ص-ص 152-153.

- الدور الثالث: (1225هـ-1810م/1233هـ-1817م)

ويتميّز هذا الدور بتوطيد دعائم هذه الدولة الإسلامية الجديدة في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية، والتي ضمت أقاليم شاسعة في غرب إفريقيا في كل من بلاد الهوسا والمناطق المجاورة في بورنو والكانم والمناطق الجنوبية في كيبي والنورين، أي المناطق الممتدة من بحيرة التشاد شرقًا حتى منحنى النيجر غربًا، ومن الغابات الاستوائية حتى الصحراء شمالاً.[1]

إن هذا النجاح تولّدت عنه أعباء جديدة ومسؤوليات جسيمة، فكان على الشيخ أن يقوم بإصلاح إداري مكثف وتنظيم الشؤون السياسية والمالية والاجتماعية والثقافية والدينية، وتوحيد كل إمارات بلاد الهوسا، ففي جانب التسيير اتبع النظام الفلاني مجلسين في تسيير شؤون الدولة ؛

- مجلس استشاري يضم أبرز أعوان الخليفة وأصفياءه ومساعديه في تأدية المهام المنوطة به ؛

- مجلس تنفيذي يسهر على وضع مراسيم وتعليمات وأوامر الخليفة ونواهيه موضع التنفيذ، يضم هذا الأخير الوزير والقاضي والمحتسب.[2]

أما الخليفة، فقد تحدّدت مهامه واختصاصاته في المجالات التالية:

- الإشراف على حقوق الرعية والمحافظة عليها داخل المجتمع وفق ما تأمر به الشريعة الإسلامية؛

- السهر على حماية حدود الدولة الإقليمية وممتلكاتها، وتحصين المدن وتسويرها بصد هجومات الأعداء.[3]

1- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا، المرجع السابق، ص 149.
2- أحمد بوعتروس : المرجع السابق، ص-ص 157-159.
3- نفسه، ص 159.

وقد اتّضح تأثير التاريخ الإسلامي في فكر عثمان بن فودي من خلال تنظيم الدولة، فقد عمل على تثبيت نظام الشورى واتخاذ لقب أمير المؤمنين، كما اتخذ مجلس استشاري للأمير يتكون من الوزير وولي العهد والقضاة وممثل للقبائل الرئيسية، أمير كوني، أمير سيلياوا، وأمير كابي ويتمتع الأمير فيه بالكلمة النهائية.[1]

- نظام الوزارة والوزراء:

ركّز الشيخ على نظام المجلسين واعتمد على معيار الدين والعلم والكفاءة في تولية مناصب الوزراء والقضاة، ودعم هذه المناصب بمناصب أخرى كالأمناء والقادة والمستشارين والولاة والشرطة والسعاة، أما الجيش وضع له نظاما وحمل فيه القائد اسم أمير الجيش.[2]

وبما أن الدولة المنشأة كانت مترامية الأطراف، فكان من الصعب التحكّم فيها مركزيًا، لذلك اعتمد على المساعدين، حيث قسّمت الدولة إلى عدة إمارات، كما اتبع نظام الدواوين وسمّاه الولايات فأنشأ عشرين ولاية لإدارة الدولة أهمها الخلافة العامة، والوزارة، والقضاء، ورد المظالم، والجهاد، وقسم للغنيمة، وقسم للفيء والكتابة، وقسم وضع الجزية، وقسم للصلاة، وقسم للصدقة وقسم للحج وغيرها. وحدد لكل ولاية اختصاصاتها وأسلوب عملها.[3]

وقد قسّم البلاد إلى مقاطعتين، مقاطعة شرقية عهد بها إلى ابنه محمد بلو، والقسم الغربي عهد به إلى أخيه عبد الله؛ وتشمل المقاطعة الشرقية كلاً من: زنفارا، كاتسينا، كانو، ويوشي وسكوتو المركز الرئيسي؛ أما القسم الغربي فيشمل نوب ودانداي، وبورجو، وإلورين، والمركز الرئيسي جواندو في إقليم كابي.[4]

1- مصطفاوي سعاد: الطريقة القادرية في غرب إفريقيا بين القرنين 14م و 18م ، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، تخصص: دراسات إفريقية، إشراف: بن يوسف تلمساني، قسم التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة الجزائر، 2010م، ص25 .

2- مهدي رزق الله : المرجع السابق، ص 255.

3- نفسه، ص 255.

4- إلهام محمد علي ذهني: المرجع السابق، ص 44.

وتفرّغ الشيخ بعد ذلك للتدريس والتأليف، حتى توفي عام 1817م في مدينة سفاوا، وحمل إلى سكوتو ودفن فيها؛ وقد عمل خلفه على الحفاظ على الدولة وردع المتمردين. وقد مر على حكم دولة سكوتو منذ تأسيسها إلى غاية سقوطها على يد الإنجليز 1903م أحد عشر خليفة.[1]

ويمكن القول، بأن الدولة الإسلامية في سكوتو كانت قد أقامت نظامًا فريدًا من نوعه في إفريقيا جنوب الصحراء، وصارت نموذجًا لكل الحركات الجهادية في المنطقة، مثل حركة أحمد لوبو الماسيني، وعمر الفوتي، وأحمد الأمين الكانمي .[2]

2-حركة أحمد لوبو الماسيني ودولته (ت 1260هـ/1844م):

إن تأثير دعوة بن فوديو لم تبق حبيسة مكان انطلاقها، بل تعدت حدود بلاد الهوسا واتجهت غربًا وضربت بجذورها في عمق المنطقة، فساهمت في بروز حركات إصلاحية وجهادية أخرى منها: حركة أحمدو لوبو بإقليم ماسينا.[3] على ضفة نهر النيجر، وشملت هذه الحركة رقعة واسعة ضمت شمال شرق جمهورية مالي الحالية.[4]

1- علي يعقوب: الخلافة العثمانية في سكت ودورها في غرب إفريقيا، في مجلة قراءات إفريقية، ع 11، جانفي مارس 2012، ص 7.

2- عبد الرحمان عمر الماحي: **الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا الواقع والمستقبل**، د. م. ج، الجزائر 1992م، ص 144.

3-ماسينا: تقع في الشمال الغربي لمنطقة السودان الغربي في منعطف نهر النيجر وهي في جمهورية مالي الحالية، لاسمها عدة تفسيرات والمرجح أنها تعني باللغة الفلانية موسي كناية عن خصوبة الأرض الصالحة للزراعة والرعي وأنظر عثمان برايما باري: المرجع السابق، ص 158.

4- عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1999، ص، 92.

أ-المولد والنشأة:

ولد أحمدو لوبو باري في قرية يوغو ماسيرو سنة 1189هـ/1775م[1]، وقد أُخْتُلِفَ في مكان وسنة ميلاده، فمنهم من أرجع سنة ميلاده إلى1773م ومنهم من قال في1776م، ومنهم من قال أنه ولد في مالانفال و بامغال[2].

نشأ الشيخ أحمد يتيمًا، إذ فقد والديه وهو في سن الطفولة، فكفله أخواله، حيث حفظ القرآن الكريم وهو في سن الصبا كما هي عادة أبناء القبائل المسلمة في المنطقة، واستمر في تحصيل الفقه وقواعد اللغة العربية مع أبناء أخواله، ودرس على يد بعض مشايخ منطقته كشيخ حما، والشيخ سمبا حمدي باما، وبعدها انتقل إلى حاضرة جني والتي كانت في تلك الفترة من المراكز الإسلامية الكبرى في غرب إفريقيا، حيث درس التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ الإسلامي.[3]

عرف الشيخ أحمدو الطريقة القادرية بواسطة الشيخ كبرا فارما.[4] ولما أكمل دراسته عاد إلى بلدته، حيث استقر وأخذ يعظ الناس ويدرس الناشئة، ومن المرجح أن أحمدو لوبو الذي أصبح يعرف بالإمام الشيخ قد تأثر بالتيارات الفكرية السائدة بالمنطقة، خاصة فكر الشيخ عثمان بن فودي مؤسس دولة الفلاني، ويعتقد الكثير أنه سافر إلى بلاد الهوسا عام 1805م، وشارك في الجهاد الذي أعلنه الشيخ عثمان بالمنطقة.[5]

---

1 Maurice Delafosse : Les noirs de l'Afrique, Payot, Paris, 1922 ،p 231

2- عثمان برايما باري : المرجع السابق، ص 167، وكذلك :

Hamadou Boly : Le soufisme au Mali du XIXème siècle à nos jours : religion, politique et société, thèse doctorat, dirigée par Geoffroy Eric, Ecole doctoral des humanités, Université de Strasbourg, 2013, p59.

3 عمر الماحي : المرجع السابق، ص 153.

4 Hamadou Boly : op.cit., p60.

5عثمان برايما باري: المرجع السابق، ص168.

ولقد كانت الأوضاع في ماسينا يسودها العداء والتناحر بين القبائل التي تسكنها، المسلمة وغير المسلمة، كما كان الأرما؛ وهي بقايا الجيش المغربي بعد الهجوم على سنغاي قد عادت إلى الواجهة بعد سقوط سنغاي سنة 1591م، وضاق هؤلاء بالشيخ فتحالفوا مع حاكم سيجو الوثني ضد الشيخ أحمدو الذي اعتبر هذا التحالف موجبًا للجهاد، حيث أرسل رسولين لأخذ الإذن من الشيخ بن فودي وقبل أن يصله الرد أعلن الجهاد على دولة ماسينا وحقق انتصارات باهرة وأخضعها لنفوذه في سنة 1225هـ/1810م، لقيت هذه الانتصارات صدى في نفوس المسلمين في السودان الغربي، وارتاح لها الشيخ عثمان ونصبه أميرًا على ماسينا ومنحه لقب الشيخ.[1]

أسّس الشيخ مدينة جديدة سمّاها حمد الله في 1815م، لتكون حاضرة لدولته الاسلامية، التي كانت تضم منطقة مالي وبوركينافاسو، وقد اختار لها مكان مناسبا من نهر النيجر ومرتفعة قليلا، وفي مأمن من أخطار الفيضان [2].

ب- تأسيس دولة ماسينا وتنظيمها:

- تأسيس الدولة :

لما انتهى الشيخ من بناء عاصمته، جمع علماء البلاد لاستشارتهم في كيفية تنظيم الدولة وادارتها، وقال لهم: "لا أريد أن أحكم البلاد لوحدي، ولا بد من مساعدة الآخرين، ولا بد من اجتماع الكل واتحادهم لتكون دولة منظمة؛ وطلب منهم أن يقدموا له مشروع الحكم، وبعد أشهر حضر له العلماء المشروع ويتكون من مجلس للشورى يسمى بالفلانية باتوماودو؛ أي مجلس الكبار متكونًا من أربعين عالمًا، ونظم الشيخ أحمد دولته تنظيمًا جيدًا حتى أصبحت من أرقى الدول في زمانه.[3]

1 أحمد بوعتروس: المرجع السابق، ص202.

2علي يعقوب: حياة الشيخ أحمد حمدي لبو ودولته الاسلامية في ماسينا، في مجلة قراءات، ع 08 ،أفريل جوان ،2011 ،ص7. عمر الماحي : المرجع السابق، ص 153.

3Hamadou Boly : op.cit., p61.

- تنظيم الدولة :

أما من حيث التنظيم الإداري، فقد قسّم أحمدو لوبو دولته إلى خمس مقاطعات وهي: إمارة دنيري، وإمارة فكلا كناري، إمارة هيري سينو، إمارة نيدوبي، إمارة ماسينا، ويرأس كل إمارة أمير يعاونه أحد الأمراء الأكفاء، ويتمتع الأمير بكامل السلطات العسكرية والقضائية.[1]

قسم العاصمة إلى سبعة أحياء يشرف على كل حي قاضٍ خاص، وعين قاضي القضاة على هؤلاء، وجعل للمدينة أربعة أبواب وأحاطها بسور ضخم، وبنى وسطها مسجدًا وجعل لكل حي من أحياءها سوقًا مع السوق المركزي، وجعل لكل سوق مشرفًا .[2]

- تأسيس المجالس:

لقد اعتمد الشيخ أحمدو في تنظيم دولته ثلاثة مجالس بعد أخذه بالرأي الاستشاري وهي:

مجلس الكبار: ويتكون من أربعين فردًا من كبار وعقلاء وعلماء البلاد، وأوكل رئاسته لأحد أكبر وأشهر العلماء فيها.

- مجلس المحكّمين:

ويتكون من ستين شيخًا من قدماء الشيوخ المجاهدين، ويترأسه الشيخ أحمدو نفسه بمعية اثنين من الأعضاء.[3] وفي حالة اختلاف في الآراء بين المجلسين المذكورين آنفًا يختار أربعين عضوًا بالقرعة من المحكّمين الستين لاتخاذ قرار نهائي في المسألة محل الخلاف. ولا يمكن الطعن والاستئناف في هذا القرار، ويمكن للأمير

1- عثمان برايما باري : المرجع السابق، ص171. انظر كذلك علي يعقوب، المرجع السابق،ع 8، ص7.

2- علي يعقوب : نفس المرجع، ع 8، ص 7.

3-Hamadou Boly : op.cité, p61.

تفويض بعض من سلطاته لأعضاء المجلس، والجدير بالذكر أن أعضاء هذه المجالس يشترط فيهم ألا يقل سن العضو منهم عن الأربعين سنة.[1]

وكان للقضاء في دولة أحمدو لوبو أهمية خاصة، لاعتباره صمام الأمان لحفظ الحقوق وإرساء العدل، فكان القضاة يستمدون أحكامهم من الكتاب والسنة ، ويتمتعون باستقلالية تامة عن الإدارة ،حتى أن القاضي يمكنه مقاضاة الأمراء أمام المجلس الاستشاري، إذا ما ثبت اتهامهم أو تورطهم في قضايا كالإخلال بالمهام الموكلة إليهم، أو عدم قيامهم بواجباتهم على الوجه الكامل، وكان كل قاض يتولى إدارة شؤون القضاء، وينظر في الخصومات و النزاعات، ويصدر الأحكام القضائية، وعلى رأس القضاة قاضي القضاة الذي يعد بمثابة وزير العدل، ومن اجل تسيير إجراءات المحاكمة وعرض السجناء على القاضي جعل محكمة العاصمة بجوار السجن [2].

-تنظيم الجيش:

أنشأ الشيخ أحمدو لوبو جيشا قويا، ونظمه تنظيما دقيقا للدفاع عن البلاد، وجعل في كل مدينة قوات من الجيش، وعين في كل منطقة قائدا عسكريا، وعين بن عمه بالبوبكر بولو، قائدا عاما للجيش، وقد سهر الشيخ احمدو على تفقد الجيش ومراقبته باستمرار؛ كما جهزه بأسلحة حديثة، كان يقتنيها من التجار الاوربيين، وأدخل الأساليب الحديثة في تدريباته، اما التجنيد فكان الزاميا ،اذْ يجب على كل أسرة أن تبلغ عن إبنها اذا ما بلغ عشرين سنة، ولقائد الجيش تجنيده أو تسريحه حسب الحاجة وصلاحية المجند، لذلك كان انتقاء المجندين من بين ذوي البنية الجسدية السليمة، المتميزة بالقدرة والحيوية والنشاط.[3]

ولم يتوقف الشيخ أحمدو في نشاطه الدعوي والجهادي بتنظيم الدولة وحضور مجالس الدرس إلى أن وافته المنية عام 1260هـ-1844م، ثم استخلفه ابنه أحمد بن

1- أحمد بو عتروس: المرجع السابق، ص280.

2- Maurice Delafosse : op Cit, p.231.

3- علي يعقوب: المرجع السابق، ع 8، ص8.

أحمدو لوبو الذي استعاد هيبة الدولة بعد التمرد من بعض السكان، وسار على نهج والده في الحكم، وبعد وفاته 1852م خلفه ابنه أحمد بن أحمد بن أحمدو لوبو (أحمد الثالث) الذي قتل في حروبه مع الحاج عمر الفوتي.

ممّا تقدمّ يمكن القول، بأن دخول الطريقة القادرية إلى أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء، قد أسهم في ترقية المجتمع من خلال نشر الإسلام وتطوير التعليم ومناهجه، كما كان لها تأثير فعال في ترقية الحياة السياسية في المنطقة، سواء بواسطة كتابات العلماء ومشايخ الفقهاء، أو ببروز شخصيات من أتباع الطريقة القادرية ساهموا في تأسيس ممالك وإمارات لشعوب تلك المناطق.

ويُعد الشيخ سيد أحمد البكاي من أوائل الدعاة للطريقة القادرية في القبائل الصحراوية والافريقية، والتي بلغت أوجّها على يد الشيخ سيد المختار الكبير الكونتي، الذي عاش في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ما بين ولاتة وتمبكتو ومنطقة توات جنوب غرب الجزائر.

والحقيقة أن الطريقة القادرية عرفت المجال الأكبر لانتشارها في غرب إفريقيا بعد أن تزعم عثمان بن فوديو عملية الاحياء القادري بتلك المناطق الافريقية.

ومهما يكن، فإن الطريقة القادرية قد أدّت في العالم الإسلامي عموما وفي افريقيا جنوب الصحراء خصوصا دورا سياسيا وعسكريا لا يمكن للباحث إنكاره، فقد شهد بدورها السياسي والعسكري كثير من المستشرقين والمؤرخين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المستشرقين الإنجليزي مرجيلوت، والمستشرق الألماني شاخت، والمؤرخ الفرنسي هنري طيراس، والمؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان، والكاتب الفرنسي ريشيه، والأستاذ ديبون، والضابط الفرنسي كوبولاني الذي قُتل في سنة 1906م، والجنرال الفرنسي كورو ، والأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي، وغيرهم كثير .

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

تجارة القوافل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد العثماني ودورها الحضاري

الطالب: أوزايد بالحاج

طالب دكتوراه / جامعة غرداية

أ.د. بوسليم صالح / جامعة غرداية

الملخص:

لقد أدّى موقع الجزائر دوراً مهماً في جعلها صلة وصل بين الشمال والجنوب، فوقوعها في قلب بلاد المغرب الكبير جعلها منفذا للبضائع الافريقية المتّجهة نحو الشمال أو العكس. ويهدف هذا البحث إلى إبراز دور التجار الجزائريين في التجارة العابرة للصحراء بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء خلال العهد العثماني، وذلك من خلال التعريف بتنظيم وتحضير القافلة التجارية، مع الإشارة إلى أهم المخاطر والصعوبات التي كانت تعترضها. كما لم يغفل الباحث التطرق إلى مسالك التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء ودورها الحضاري.

الكلمات المفتاحية: تجارة القوافل الصحراوية – الجزائر – إفريقيا جنوب الصحراء – العهد العثماني – مسالك التجارة الصحراوية – الدور الحضاري.

Summary:

Caravan trade between Algeria and sub-saharan Africa at the Ottoman era and its civilizational role

Summary:

Algeria's site has played an important role in making it a link between North and South. Its location in the Great Maghreb center maked it an outlet for African merchandise heading for South or vice versa. This research aims to show the role of Algerian merchants in cross-desert trade between Algeria and sub-Saharan Africa at the Ottoman era by defining the organization and preparation of the commercial caravan and point to the most important risks and difficulties that it confronts. The researcher turned also to trade roads between Algeria and sub-Saharan Africa and its civilizational role.

تقديم:

تُعد القوافل التجارية الصحراوية من أهم العوامل المساهمة في توثيق الروابط بين الشعوب، ورمزا من رموز الاتصال المحكم بين اللغة والعقيدة والثقافة والفكر والتفاعل الحضاري. فقد كانت الصحراء الكبرى تموج بقوافل التجار والعلماء والدعاة والرحالة المسلمين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر. كما كانت تموج أيضا باللاجئين السياسيين الذين يعملون من أجل استرداد أمجادهم في كل مكان يحلون فيه.

ولم تكن التجارة عبر الصحراء في العصر الإسلامي هدفا في حد ذاتها؛ بقدر ما كانت وسيلة لنشر الدين الإسلامي وحضارته، فكانت تحمل إلى البلدان الإفريقية علاوة على الدين، مجموعة من السلع التجارية، وتجلب منها ما تحتاجه بلدان المغرب[1]

لقد جابت القوافل الجزائرية في العصر الحديث مناطق عديدة، وبمختلف الاتجاهات، لترتاد المراكز التجارية المختلفة، وكان حجمها يختلف من حيث العدد من قافلة إلى أخرى، وسارت في طرق مختلفة، كما غيّرت من مسارها حين اقتضى الأمر ذلك، بحثا عن الأمن والسلامة، واختلفت حمولتها من حيث النوع والكمية والأهمية، حسب متطلبات السوق، وكانت هذه القوافل في كثير من الأحيان عُرضة لقطاع الطرق، لذا فنحن نتساءل: هل كانت القوافل التجارية الجزائرية تسير وفق نظام معين؟ وما هي المخاطر التي كانت تعترضها أثناء تنقلها؟ وماهي أهم المسالك التي

(1) عبد الرحمن عمر الماحي: مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي، مقال/في/مدونة أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، أيام:15-17 محرم 1428من ميلاد الرسول(ص)/12- 14- 1998 افرنجي، تنظيم كلية الآداب تطوان، المغرب، وكلية الدعوة الإسلامية طرابلس، الجماهيرية، مر وتق: عبد الحميد عبد الله الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العظمى، 1999 أفرنجي، ص68.

كانت تتبعها للوصول إلى الأسواق الإفريقية؟ وما تأثيرها في المناطق التي ترتادها في ذهابها وإيابها؟

أولا: تنظيم وتحضير القافلة

تجدر الإشارة في البداية إلى القول بأن تنظيم القوافل التجارية، ومواعيد تحركاتها ومسيرتها، ومدى ضخامتها ومقدار حمولتها، إلى غير ذلك من التفاصيل، لاتزال غير معروفة بشكل محدد ودقيق[1].

أ. مفهوم القافلة:

1- لغة: ورد تعريف للقافلة في لسان العرب على النحو التالي[2]:

يقال جاءهم القَفَل والقُفُول، واشتق اسم القافلة من ذلك لأنهم يقفلون، وقد جاء القَفَل بمعنى القُفُول(بالضم). قال أبو منصور: سميت القافلة قافلة، تفاؤلا بقُفولها عن سفرها الذي ابتدأته، قال: وظن ابن قتيبة أن عوام الناس يغلطون في تسميتهم الناهضين في سفر أنشأوه قافلة، وأنها لا تسمى قافلة إلا منصرفة إلى وطنها، وهذا غلط، مازالت العرب تسمي الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة تفاؤلا بأن ييسر الله لها القُفُول وهو شائع في كلام فصحائهم إلى اليوم.

والقافلة: الرفقة الراجعة من السفر.

والمقَفل: مصدر قَفَل يَقفل إذا عاد من السفر، والجمع هو القَفَل.

قال: وقد يقال للسفر قفول في الذهاب والمجيئ، وأكثر ما يستعمل في الرجوع.

---

(1) عمار بن خروف: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، ج2، نشر وتوزيع وطبع دار الأمل، الجزائر، 2008م، ص63.

(2) الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب المحيط، المجلد5،(ل)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مراجعة: عبد المنعم خليل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ص634.

نستنتج مما سبق أن التعريف اللغوي للقافلة مقترن فقط بفعل الرجوع أو العودة إلى الديار.

2- أما **اصطلاحا:** فالمقصود بها القافلة التجارية، وهي تنظيم مسبق تقوم به جماعات أغلبها تجار قد تختلف أصولهم ولكن هدفها اقتصادي هو الربح التجاري، والمتاجرة بيعا وشراء، هذه القافلة لها مكونات بشرية وحيوانية.

تعتبر القافلة الوسيلة الوحيدة الممكنة للتنقل في الصحراء في ذلك الوقت، وذلك باستخدام الجمال، حيث تضم مجموعات متعددة من التجار الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريق[1]، كما أن هناك ما يسمى بالنجع أو القبيلة السيارة التي تنتقل بكاملها، ولذلك فهي أبطأ من الأولى ولكنها أضمن بالنسبة للتجار[2].

ولا نستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تُجهز من الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء في القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي وما بعده، غير أنها على ما يبدو كانت أقل نشاطا مما كانت عليه في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فقد قدّر ابن خلدون (عاش في القرن الرابع عشر الميلادي) حجم كل قافلة بما لا يقلّ عن اثنا عشر ألف جمل، وذهب إلى أن كلّ القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه إفريقيا جنوب الصحراء[3].

أما عن عدد أفراد القافلة فليس هناك عدد محدد للأشخاص المشاركين في القافلة، أقلها اثنان إلى أكثر من ذلك، وكثيرا ما يرتبط العدد بأمن الطريق، فإذا كان

(1) محمد المبارك الميلي: صحراؤنا، نشر كتاب البعث، تونس، 1958م، ص23.

(2) محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830م، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984م، ص68.

(3) عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، الهامش رقم 11، ص 62.

الطريق آمنا، يستطيع اثنان أن يُسيرا قافلة، أما إذا كانت به أخطار فالمسافرين يكونون في حاجة إلى بعضهم البعض[1].

أما عن وسائل النقل، فهي تختلف من منطقة إلى أخرى: ففي التل يستعمل التجار الجمال والبغال للسلع، والخيل للأشخاص، وفي الصحراء، يستعملون الجمال والحمير معا.

ب. مكوّنات القافلة وهيكلتها:

تقود القافلة مجموعات بشرية تختلف حسب مهامها، معتمدة على الوسيلة الأساسية للنقل والتي تتمثل في الحيوانات التي يتم اختيارها وفق شروط معينة لتؤدي هذا الدور، لذا وجب الوقوف عند هذه المكونات سواء البشرية مع تحديد وإبراز مهام كل واحدة منها، أو الحيوانية منها[2].

1. المكونات البشرية:

1,1- قائد القافلة:

ويُطلق عليه أيضا شيخ القافلة، وهو المسؤول الأول عن القافلة، وأمنها ذهابا وإيابا، وعادة ما يكون ممن له خبرة وتجربة سابقة في الأسفار البعيدة خاصة عبر المسالك الصحراوية، وفي تسيير قوافل تجارية لمرات عديدة، كما يجب أن يتمتع باحترام وثقة مرافقيه. فقد ذكر الرحالة ابن بطوطة في سفره سنة 753هـ/1352م إلى بلاد السودان قائلا: "..ثم سافرتُ.. في رفقة مقدمها (أي قائدها) أبو محمد يندكان

(1) محمد الصالح حوتية: توات والقوافل التجارية، مقال/في/ كتاب طريق القوافل، مطابع عمار قرفي، باتنة، الجزائر، 2001م، ص36.

(2) رشيد خفيان: الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين 11-12ه/ 17-18م، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص: العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير، إشراف الدكتور خليفة حماش، قسم التاريخ، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م، ص62.

المسوفي...وفي القافلة من تجار سجلماسة وغيرهم..."[1] ؛ ويذكر الفرنسي دوما (ma Dau) في كتابه "الصحراء الكبرى"، الذي نشره عام 1848م، أنه أثناء رحلته في الصحراء الجزائرية تعّرف في متليلي على شخص يدعى شقوم (cheggum)[2]، يعمل قائدا للقوافل المتجهة من متليلي إلى عين صالح. أما دوره الرئيس فيكمن في توجيه نواة القافلة، وتنظيم سيرها الذي يتغير بتغير التضاريس، وحالة الأمن في الطريق، وبوزن الحمولة وثقلها.

1.2- الدليل:

وهو يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد قائد القافلة، ويطلق عليه أيضا اسم الخبير أو المرشد، باعتباره سائق القافلة. لذا كانت القافلة تعتمد في أغلب الأحيان على دليل ذي معرفة دقيقة بالبراري والقفار التي تقطعها، ودراية بالنجوم ومنازلها، وهذه المعرفة هي علم قائم بذاته تُعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالأمارات المحسوسة، إذ أن بعض أجزاء المسلك مطموسة المعالم، لا يهتدي فيها إلا من سار عليها مرارا، وهذا شأن المسالك الصحراوية على الخصوص، وهؤلاء الأدلاء على مستوى من الحذق والدراية لكثرة ترددهم على تلك المناطق، مهمتهم اختيار الطريق الأفضل والأقصر لضمان المرور بمناطق تنتشر فيها الآبار لتوفير الماء والمرعى للقافلة. فقد ذكر ابن خلدون في هذا الصدد: "... لا يهتدي فيها للسبيل ولا يمر

(1) أبو عبد الله محمد ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء1، تحقيق وتقديم وتعلي علي المنتصر الكتاني، نشر مؤسسة الرسالة، ط4، بيروت، لبنان، 1405ه/1985م، ص773.

(2) هو تارقي من الهقار، انتمى منذ 1839م إلى قبيلة الشعانبة برازقة. أنظر: Jean Fasquelle Editeurs, Melia:Ghardaia, charpentier,Bibliotheque Paris, 1930,p189.

الوارد إلا بالدليل الخبير من الملثمين الظواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط..."[1]

3,1- الترجمان:

يظهر دور وأهمية الترجمان مع وصول القافلة التجارية إلى إحدى البلدان الإفريقية، حيث تظهر الفوارق اللسانية بين المتعاملين من الجانبين، وقد كان دورهم ذو أهمية بالغة بالنسبة للتجار الجزائريين، على اعتبار أن جانبا من العملية التجارية يتحقق بواسطتهم ووساطتهم بين طرفي المبادلة التجارية، فرغم أن هذه المبادلات التجارية في بداياتها الأولى كانت تعتمد على لغة الإشارة، إلا أنه مع كثافة هذا النشاط عبر الأزمنة الطويلة لم يعد من المعقول استدامة هذه الطريقة البدائية في التفاهم والحوار، كما أن ضرورة معرفة التجار بالسوق وأحوالها يقتضي أن تجري الألسن بين المتعاملين[2].

ويذكر ابن خلدون في تاريخه أن سلطان مالي منسا موسى(ت1233م) حينما أرسل وفادته للسلطان أبي الحسن بتلمسان كان يرافقها "...ترجمان من الملثمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة..."[3]، مما يؤكد الحقيقة الدالة على مرافقة التراجمة للداخلين بالتجارة لبلاد السودان وبواسطتهم يتم تصريف شؤونهم وتدار عملياتهم.

1,4- الشواف:

ويُسمى أيضا التكشيف، وهو اسم يُطلق على كل رجل تكتريه القافلة بثمن متفق عليه مسبقا، وعمله ينحصر غالبا في أنه عند اقتراب القافلة من أحد المراكز التجارية المهمة في الصحراء الإفريقية الكبرى، يتقدم القافلة حاملا معه رسائل من

(1) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد7، نشر دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 1427هـ/2006م، ص216.

(2) غرايسة: مرجع سابق، ص 423.

(3) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، ص316.

تجار القافلة إلى أصحابهم بالمدينة المقصودة، ليكتروا لهم الدور للنزول بها مدة إقامتهم بها، وحسب ابن بطوطة فغالبا ما ينتمي هذا الشخص إلى قبيلة مسوفة، فيقول في هذا المجال: "...واكترينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب، وهو من مسوفة..."(1).

1,5 - الطبيب:

وهو شخص له معرفة جيدة بالأعشاب المفيدة لبعض الأمراض التي يمكن أن تصيب المسافرين خلال تنقلهم.

1.6- الفقيه:

ويشترط فيه فهم الأمور الشرعية، بحيث يكون قادرا على الإفتاء عما لبس لأعضاء القافلة من تساؤلات تتصل بالأمور الدينية.

1,7- الحراس:

ومن بين التنظيمات المسبقة لانطلاق القوافل التجارية، هو اتخاذ احتياطاتها من مخاطر الطريق خاصة قطاع الطرق، واللصوص، لذا وجب عليها تكليف حراس لحماية القافلة والدفاع عنها أثناء سيرها ليلا أو نهارا من شر هؤلاء، إذ كانت من عادة التجار استئجار حراس لحمايتهم من أخطار المناطق الغير الآمنة، و يكون هؤلاء الرجال مسلحون بالبنادق، مقابل أجرة شهرية تتراوح ما بين عشرة و اثنا عشر مثقالا، ومن خصائص هؤلاء الحراس القوة والشجاعة، وتنوع الانتماءات القبلية، حتى يكثر أنصارها ويصعب الاعتداء عليها(2).

1,8- الوكلاء:

(1) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ، مصدر سابق، ص ص774-775.

(2) محمد الصالح حوتية: آل كنتة، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق 18- 19م ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2008م.ص103.

ويعتبرون من العناصر المهمة في القافلة، إذ عادة ما يتم اختيارهم على أساس القرابة، ويتمثل دورهم في الاهتمام بالمصالح التجارية، وإعداد البضائع، والمشترين وإخبار القوافل بالأسعار، والسلع المطلوبة، وأوضاع الحركة التجارية وتغيراتها.

2. المكونات الحيوانية:

لقد كانت الوسيلة الأساسية للسفر قديما وحتى الفترة الحديثة تتمثل أساسا في الحيوانات بمختلف أنواعها، من خيل و بغال وحمير و إبل، وحتى المشي على الأقدام، فالقافلة التجارية كانت تضم عددا معتبرا من الحيوانات المختلفة، بعضها ملك لأصحابها، والبعض الآخر مكتراة[1].

وفيما يلي أهم الحيوانات مع ذكر بعض خصائصها:

2,1- الجمال:

الجمال هي وسيلة النقل الرئيسية في القوافل التجارية البرية، ثم يأتي بعدها الخيل، والبغال، وغيرها من الحيوانات القادرة على حمل البضائع الثقيلة، وقطع المسافات البعيدة وتحيمل مشاق الطريق[2]. فظهور الجمل أعطى فرصة مثالية لتعمير الصحراء واستغلال مواردها الطبيعية، وبفضله أصبحت الصحراء منطقة عبور للتجارة بين البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء. وقد لعب الجمل دورا أساسيا في تاريخ الصحراء، بفضل ما يتميز به من خصائص عديدة جعلته وسيلة النقل المفضلة لتجار القوافل الصحراوية[3]

2,2- الخيل والبغال:

(1) خفيان: مرجع سابق، ص ص67-68.

(2) بن خروف: مرجع سابق، ص64.

(3) إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، طبع: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1983م، ص 44.

تعتبر الخيل والبغال من أهم المكونات الحيوانية للقوافل التجارية، ومن أهم وسائل نقلها، لقدرتها على حمل الأثقال، يقول العياشي: "...وقد قدمنا معنا بثلاثة من الخيل...في أرض مزقت من حروثها النعال، وآلمت أخفاف الإبل وحوافر البغال..."(1)

ج) تنظيم القافلة:

تتخذ القافلة في تجارتها تنظيما محكما بدءا من الانطلاق من أجل الوصول إلى الهدف والعودة سالمة. ولقد كان التجار يسيرون في قوافل كثيرة، يحمل جزء من الإبل البضائع والجزء الآخر يحمل الماء والزاد، والباقي لا يحمل هذا ولا ذاك، بل يستخدم خزانا للمياه فقط، ولذلك مثلت الإبل جسر التلاقي بين شمال الصحراء وجنوبها(2).

1. عدد الجمال:

إن عدد الجمال في القافلة الواحدة لم يكن ثابتا عبر الأزمنة والعصور، فبينما قدر ابن خلدون عددها في زمانه(القرن الرابع عشر ميلادي)، بما لا يقل عن اثنا عشر ألف جمل، إلا أننا نلاحظ أن هذا العدد قد انخفض كثيرا بعد ذلك، حيث ذكر الرحالة الفرنسي كاييه(Caillie) في عشرينات القرن التاسع عشر، أنه سافر في قافلة بها حوالي ستمائة جمل فقط3.

ويظهر أن هذا الانخفاض الكبير في عدد الجمال المكونة للقوافل التجارية بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر للميلاد، يعود إلى تراجع تجارة الجزائر مع دول إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق البر، لأسباب وعوامل كثيرة من بينها:

(1) خفيان: مرجع سابق، ص70.

(2) الهادي المبروك الدالي: التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن15م إلى بداية القرن18م، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ربيع الثاني1420هـ/ أوت1999م، ص76.

3 - Caillie op-cit, p 255.

– الكشوفات الجغرافية، ومنها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من طرف البرتغاليين.

– التدخل الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء وإنشاء مراكز تجارية على السواحل.

كما أن عدد الجمال المكونة القافلة يتراوح حسب المواسم والفترات، وتُشترى من القبائل الرحل الصحراوية. وعندما يصل التجار إلى البلاد الإفريقية يبيعون الجمال لاقتصاد نفقات تغذيتها والعناية بها. وعند عودتهم يشترون جمالا جديدة، وبعد انتهاء السفر يبيعون ما تبقى لهم منها[1].

2. حمولتها:

لأخذ فكرة عن حمولة الجمل الواحد، نشير إلى ما أورده أحد الكتاب الفرنسيين مارتن(Martin) سنة 12461هـ/1830م، بأن أحد الأشخاص تعهد لأحد التجار الجزائريين بنقل عشر حمولات من التبغ من تمنطيط إلى أروان وبيعها مقابل تسعة مثاقيل من الذهب، مما يجعل الحمولة الواحدة يساوي ثمنها أقل من مثقالين، أي ما ينقله الجمل الواحد ثماني غرامات من الذهب الخالص وهو ما يعادل اثنان وثلاثون فرنك للقنطار الواحد بسعر ذلك الوقت.

أما رونيه كاييه (René caillié) في كتابه "سفر إلى تمبكتو" فأورد أن حمولة جمل واحد تساوي خمس مائة رطل(Livres) (حوالي227كلغ)، وهو تقريبا نفس الوزن الذي ذكره الباحث حوتية (250كلغ). وثمن نقلها من تمبكتو إلى تافيلالت يتراوح

(1) عثمان منصوري: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1422هـ/2001م، ص153.

بين عشرة واثنا عشر مثقالا من الذهب[1]، والتي تدفع مسبقا[2]. في حين أن هناك من الباحثين من أشار إلى أن الجمل يستطيع أن يحمل ما بين 120 و150كلغ[3].

3. نظام سيرها:

تبدأ القافلة سيرها مع الصباح الباكر، وتستغرق عملية تحميل الجمال بالبضائع عدة ساعات، بسبب تمنع الجمال وخاصة في الأيام الأولى من السفر، وتحمل القافلة معها جمالا إضافية، من أجل التغذية وحمل الزاد ونقل الماء والأمتعة، وفي منتصف النهار تتوقف القافلة ليستريح المسافرون مدة ساعتين يخرجون فيها زادهم المكون أساسا من التمر والقديد والشاي، عندها تكون القافلة قد سارت عشر ساعات قطعت خلالها حوالي 45كلم، علما أن هذه النسبة ليست ثابتة فقد تزيد أو تنقص بين رحلة وأخرى، فهي خاضعة لطبيعة المسلك وتوزيع الآبار واختلاف الفصول.

فإذا كان فصل الشتاء فإن القافلة تقطع أربعين كيلومترا بسبب قصر اليوم، أما في فصل الصيف فإن المسافة قد تصل إلى خمسين، وهذا راجع إلى طول اليوم، وعادة ما يكون السير شتاء في الفترة الصباحية لتستريح الإبل في الليل، أما في الصيف فإنها تبدأ السير من الليل، وعليه فالإبل قادرة على السير ما بين 14-15 ساعة في اليوم دون توقف[4].

وقد يتغير نظام سير القافلة بسبب الحرارة الشديدة في الصحراء، فحسب رواية الرحالة المغربي ابن بطوطة "... ودخلنا صحراء شديدة الحر... وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح..."[5].

---

(1) مثقال الذهب: قُدر بـ12 فرنك، وبـ4 فرنكات نقدا. أنظر: caillié: op-cit,p257

(2) حوتية: توات والقوافل التجارية...، المرجع السابق، ص36.

(3) منصوري: المرجع نفسه، ص153.

(4) حوتية: آل كونتة، المرجع السابق، ص105.

(5) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص775.

وهذا ما يؤكده النقيب روجيه ليسيل(Reger Leselle) أثناء رحلته في القرن التاسع عشر في صحراء الجزائر، قائلا: "... في الشتاء نمشي طول اليوم، أما في الصيف فنغادر المخيم بعد القايلة ولا نتوقف إلى الفجر..."[1].

ثانيا: المخاطر والصعوبات التي تواجه القوافل

كانت القوافل التجارية الرابطة بين الجزائر وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء تتعرض في الكثير من الأحيان لصعوبات ومخاطر عديدة ومتنوعة، نورد هنا البعض منها لكي نأخذ فكرة عن المشاق التي يتكبّدها تجار القوافل لتحقيق عمليات التبادل[2]، من أهمها:

أ. المخاطر البشرية:

وتتمثل في القبائل والمجموعات البشرية الساكنة قرب المناطق التي تمر بها القوافل التجارية، وبعض قطاع الطرق الذين استفحل أمرهم في أواخر العهد الزياني بالجزائر، حتى أن ملوك تلمسان عجزوا عن القضاء عليهم، وبالتالي عن توفير الأمن لتجارة مملكتهم مع بلاد السودان[3].

وقد استمر هذا الحال طوال الحكم العثماني للجزائر وحتى عهد الاحتلال الفرنسي، حيث كانت مجموعات من قطاع الطرق، ينتمي أفرادها إلى مختلف القبائل الصحراوية، تجوب باستمرار المناطق غير الآهلة بالجنوب الجزائري، باحثة عن المغامرة، يهاجمون كل القوافل التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها. فقد كانت القوافل

(1) Capitaine Roger Leselle: Les noires du souf, mémoire de candidature au centre des hautes études d'administration musulmane de l'université de Paris, France, 1957,p9.

(2) الزبيري: المرجع السابق، ص162.

(3) بن خروف: المرجع السابق، ص71.

تتعرض للنهب إن لم تدفع للقبائل الصحراوية ثمن المرور بسلام، كما تضطر إلى تسليح حرس يحميها طوال هذا الطريق المحفوف بالمخاطر[1].

خلاصة القول إن أثر القبائل البدوية الوسيطة في العصر الحديث وما قبله، كان سلبيا في مجمله، حيث نجم عن نزاعاتها فيما بينها، وعن غاراتها على الطرق والأسواق والقرى والمدن، وعلى القوافل التجارية، انعدام الأمن والاستقرار، خاصة قبل قيام حكم العثمانيين في الجزائر، الذين سعوا إلى إخضاع تلك القبائل بشتى الطرق[2].

ب. المخاطر الطبيعية:

إن السفر عبر الصحراء هو دائما متعب جدا للإنسان والحيوان(الجمال)، وتعتبر الظروف الطبيعية من بين أهم العناصر المؤثرة في التجارة العابرة للصحراء، فالطبيعة قوة قاهرة من الصعوبة التغلب عليها، حيث يتعرض المسافر إلى صعوبات ومشاق كثيرة، كقلة الماء، وهبوب الزوابع الرملية، وعدم وضوح معالم الطريق، ونهش الهوام، وغيرها من المخاطر التي تلاقيها القوافل التجارية، والتي لا يمكن حصرها في هذا المقال.

ج. الحلول والإجراءات المتخذة:

اتخذت السلطة الحاكمة في الجزائر خلال تلك الفترة جملة من التدابير والإجراءات للحد من الصعوبات والمشاكل التي تعترض القوافل التجارية منها[3]:

---

(1) Commendant Déporter:"La question du Touat", Sahara Algérien, Gourara-Touat-Tidikelt, caravanes et transsaharien, deux conférences, imprimerie p. Fontana et compagnie,Alger,1891,p62 .

(2) الوزان: المصدر السابق، ص63.

(3) يحيى بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين ويليه الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر،2009م، ص ص45-46 .

– تزويد القوافل بالأسلحة الكافية لتدافع عن نفسها، وترغم المهاجمين على الارتداد، ودفع تعويض عن كل خسارة يلحقونها بها؛

– تأليف القافلة من رجال أقوياء، أشداء، محاربين. وتنويع انتمائهم القبلي حتى يكثر أنصارها ويصعب الاعتداء عليها؛

– فرض ضرائب متنوعة على العُربان مثل ضريبة العشر، وضريبة المرور، وإلزامهم بتقديم الرجال لخدمة القافلة وإرشادها، لكي لا تُغلق في وجوههم أسواق الشمال التي يترددون هم عليها كذلك؛

– تنظيم شُرطة صحراوية على طول طريق القافلة خلال الذهاب والإياب، لمراقبة البدو الرحل، والقيام باستعلامات سريعة، ومسبقة تتكلف إبلاغ القافلة مسبقا بكل تحركات العصابات البدوية حتى تحتاط لنفسها، وتنظم دفاعها؛

– اتخاذ أدلاّء أو قُيّاد عارفين بمسالك الصحراء، ومواطن المياه، وظروف الأمن، وأماكن العصابات المهاجمة، وهوية المهاجمين وأساليب هجومهم، وتحركاتهم.

ثالثا: أهم مسالك التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

تعتبر المسالك البرية أهم وسيلة لارتباط الجزائر بعلاقات تجارية بإفريقيا جنوب الصحراء، فهناك عدة مسالك تربط بين المنطقتين، وقد اختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه المسالك ونهاياتها، كما ركّز بعضهم على أهمية بعضها دون غيرها، والتي كانت وسيلة الاتصال الاقتصادي والثقافي والسياسي في أواخرها، ذلك أن التجارة تُعدّ أهمّ الروابط التي تصل بين الأقاليم الجغرافية، وبين الشعوب والحضارات. لهذا اهتمّ المسلمون بهذه المسالك، لإعادة إحياء الحركة التجارية بين السكان[1].

(1) نور الدين شعباني: علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين/10 و15م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات بين السودان

والمتأمّل في حركة التجارة الدائبة، يجد أن المسالك المتّبعة نوعان: أحدهما أفقي من الشرق إلى الغرب والعكس، والآخر رأسي يأتي من أعماق إفريقيا جنوب الصحراء إلى الشمال، ومن الأسواق الشمالية إلى غات وتمبكتو وأغاديس وكانو وغيرها[1].

أما عن أهم المسالك التي تربط الجزائر بإفريقيا جنوب الصحراء، فهي[2]:

أ) مع شرق الجزائر:

1- المسلك الرابط بين سكيكدة وتمبكتو: عبر قسنطينة ثم أمقيد والهقار، ويمرّ على باتنة، وبسكرة، وتقرت، وورقلة، والبيوض، وأمقيد، والهقار، وتيميساو، وأيفروان، إلى مبروك، وتمبكتو، أو إلى شط بوروم(برنوح). وقد مرّ على جانب من هذا المسلك الضابط الفرنسي فلاترس(Flaters) عبر حوض إغرغر. ويضطرّ التجار المارين بهذه المسلك اجتياز صحراء جافة وخطيرة[3]. ولهذا المسلك فرع يبدأ من جنوب بسكرة، ويتجه إلى وادي سوف، ومن هناك إلى غدامس، وغات، وجبادو، وبلما، وأقاديم، وماو. وفرع من البيوض إلى عين صالح، وفرع ثالث إلى غات[4].

الغربي والمغرب الإسلامي، إشراف الدكتور موسى لقبال، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1426-1427هـ/2005-2006م، ص71.

(1) الزبيري: المرجع السابق، ص ص 104-105.

(2) أنظر الملحق رقم(2).

(3) تبتدئ هذه الصحراء عند إيغيدي وتمتد إلى تخوم القفر الذي يسكنه شعب برداوة، وتتاخم شمالا قفار تقرت وورقلة وغدامس، وجنوبا حتى كانو مملكة بلاد السودان. أنظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص153.

(4) بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية، المرجع السابق، ص42.

2-مسلك طرابلس إلى تمبكتو: ويمرّ على سناون، وغدامس، وتيمياسين، والبيوض، أين يتصل بطريق قسنطينة إلى تمبكتو، ولهذا المسلك فرع إلى غات، وبئر عيسو، وأغاديس، ثم إلى سوكوتو، وكاتسينا غربا، وإلى أقاديم، وماو شرقا[1].

ب) في الوسط[2]:

1- مسلك مدينة الجزائر إلى تمبكتو(يتجاوز طوله 3500كلم): ويمر على البليدة، وبوغار، والأغواط، وغرداية، والمنيعة، وعين صالح، وأقبلي، وبئر تيريشومين حيث يلتقي بطريق توات إلى تمبكتو، وقد سلكه الضابط بالا. ولهذا المسلك فرع آخر من عين صالح إلى بئر عسيو، حيث يتفرع إلى فرعين كذلك: فرع إلى أقاديم، وماو شرق بحيرة تشاد، وإلى أقاديم وكوكا جنوبا. وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أغاديس، حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين: فرع إلى سوكوتو، وفرع إلى كاتسينا بنيجيريا حاليا.

ج) في الغرب:

1- المسلك الرابط بين وهران وتمبكتو: ويمر على الخيثر، ومشرية، وعين الصفراء، وفقيق، ويتبع مجرى واد زوزوفانة إلى إيغلي، حيث يلتقي بمسلك فاس إلى تمبكتو. ولهذا المسلك فرع آخر إلى شرق الأول مستقيم، يبدأ من الخيثر إلى البيض، والأبيض سيدي الشيخ، والمنقب، وتوات، أين يلتقي بمسالك: وهران، وفاس، ومكناس، إلى تمبكتو. وقد سلكه الضابط الفرنسي كولونيو(Colonio) عام 1860م[3].

2-مسلك مراكش إلى تمبكتو: ويمر على تارودانت، وتاوريرت، وتندوف، ويخترق رمال إيقدي، وعرش شاش، ويتجه إلى تاوديني، كما يخترق الجوف شرقا مارا بأوتان، وأروان، ليتّجه إلى تمبكتو. ولهذا مسلك فرع من تندوف يتجه إلى الجرف

(1) إبراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر، 1830-1962م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2007م ، ص ص35-36.

(2) انظر الخريطة في الملحق رقم(2).

(3) بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية، المرجع السابق، ص41.

الأصفر، وأوقلت العزل، وقرونه، وزمور، والقلتة، وسماميت، وحاسي بوتلان. ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبكتو، وفرع إلى قصر البرشان، وعطار، وأوجيفت، وتنورت، على شاطئ المحيط الأطلسي(1).

3- مسلك فاس ومكناس إلى تمبكتو: ويمر بقصبة المخزن وأم دريبينة، ويتبع حوض واد قير إلى إيغلي، ثم حوض الساورة إلى توات، وأقبلي، وبئر تيريشومين، ووالن، وعين رنان، ومبروك، وتمبكتو. وفي هذا مسلك توجد بعض الآبار المكسوة من داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها(2).

وعلى غرار ما سبق، يمكن القول بأن الجزائر قد توفّرت خلال الفترة الحديثة، على شبكة من المسالك كادت تكون مُكتملة من حيث الانتشار، فهي بمواصفات ذلك العصر كانت تصل جُلّ المراكز العمرانية وتربط أغلب الجهات وتضمن الانتقال للأشخاص والقوافل، وتُساهم في تصريف المنتوجات الفلاحية وإيصال الحاجات المعاشية للسكان، رغم أن هذه الشبكة لم تعرف التّقنيات المستخدمة في وسائل النقل بأوروبا آنذاك، كما يمكن القول بأن المسالك البرية بالجزائر طيلة العهد العثماني لم تجد العناية الكافية من الحكام وظلت على ما كانت عليه في أواخر الفترة الإسلامية من حيث الوسائل المستخدمة أو المسالك المستعملة(3).

إنّ المسالك السالفة الذكر، لم تبق ثابتة عبر الحقب الزّمنية، فهناك ظروف سياسية وأمنية، عملت على تغيير مسارها من فترة لأخرى، ولكن الاتجاهات عموما حافظت على ثباتها، ما دامت بعض المراكز التجارية لم تفقد أهمّيتها(4).

(1) مياسي: المرجع نفسه، ص35.

(2) الوزان: المصدر السابق، ج1، ص76.

(3) ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص446.

(4) انظر الملحق رقم(2).

رابعا: الدور الحضاري للقوافل التجارية الجزائرية:

لقد أدّت القوافل التجارية الجزائرية دورا حضاريا هاما سواء داخل الجزائر أو خارجها، ويؤكد هذا الدور الباحث عبد الجليل التميمي بقوله: "...فلا غرو إذن اليوم إن قُلنا بأن التبادل التجاري كان أحد الروافد الأساسية التي عمّمت وجذّرت هذا الارتباط العضوي للصلات الحضارية بين شعوب الصحراء، وشمال إفريقيا وهو التبادل الذي لم يُتَح لغيرهم بهذه الأهمية والحجم..."(1).

أ- تأثيرها الاقتصادي:

كانت القوافل التجارية الجزائرية تغدو وتروح بين موانئ الشمال وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى في تشاد، والنيجر، ومالي، وإفريقيا الوسطى، والسينغال وغيرها. وكان مُرحب بها عند عودتها وهي محملة بتبر الذهب، وريش النعام، والتمور، وعدد مُعتبر من العبيد السود الموجّهين للأعمال التي تتطلب المهارة في المدن الجزائرية، وذلك كخدم في منازل الطبقة الجزائرية العليا(2).

كما كان الأمراء على أيام مملكة سنغاي يستقبلون التجار بحفاوة ويُهيّئون لهم الأمن ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم وما ذلك إلا للأهمية الاقتصادية التي كانت تنتج عن مجيء التجار بأعداد كبيرة إلى سنغاي، ويشير الرحالة ابن بطوطة إلى هذا الأمر قائلا: "...ثم إن مُشرف والاتن ويُسمّى منشاجو، استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته...فتوجهتُ فيمن توجّه..."(3).

إن هذا الاستبشار بقدوم القوافل التجارية تواصل عبر الزمن حتى أواسط القرن التاسع عشر، سواء في البلدان الجنوبية الواقعة على ضفتي الصحراء الكبرى أو الشمالية، والدليل ما ذكره الكاتب الفرنسي مياج(Miége) عن تلهف السكان في

(1) خفيان : المرجع السابق، ص95.

(2) يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، طبع دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص528.

(3) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص776.

الشمال لوصول القوافل الكبرى من الجنوب، حيث أعطانا بايتون (Payton) صورة حيّة سنة 1870م للفرحة التي تعمّ اليهود في الملاح(Mellah) وموقادور(الصويرة بالمغرب حاليا)، عند الإعلان عن عودة القافلة بسلام(1).

1. على بلدان إفريقيا جنوب الصحراء:

إن ازدهار الممالك الإفريقية في العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة، كان قائما إلى حد كبير على التجارة مع بلدان المغرب ومنها الجزائر، ويتّضح ذلك بشكل ملموس من أن سلطان بورنو(نيجيريا حاليا) في سنة 1440م كان قد بعث برسالة إلى علماء توات بالجزائر يشتكي لهم فيها أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كبيرة، كما كانوا يفعلون في السابق، وقد كانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، مما سبّب نقصا في وجود البضائع القادمة من الشمال، ورأت المملكة أن موارد الدولة قلّت جرّاء ضعف التجارة بها، مما دفع بالسلطان إلى مُكاتبة علماء توات ووجهائها(2).

2. على الواحات الصحراوية:

يغلب على الظن أن تجار القوافل والمشرفين عليها كانوا المساهمين الأساسيين في حفر الآبار على أطراف معظم شبكات تنقلهم، وذلك للتزود بالمياه الصالحة للشرب التي يحتاجونها انطلاقا من الجزائر و بلدان المغرب حتى سواحل إفريقية الغربية. وقد أثرت عملية حفر الآبار هذه مع مرور الزمن على مظاهر عديدة منها استقرار بعض

(1) Jean-Louis Miege: Les Juifs et le commerce transsaharien Au Dix-Neuvieme Siecle, communauté juives des marges sahariennes du Maghreb, Revue Francaise d'histoire d'outre mer,1979,p400.

(2) صادف في هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة في توات، وهذا ما دفع بالتوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو، إلى عدم السماح للقوافل التجارية التي يسيطر عليها اليهود من المرور بأراضيهم، فقلّ ورودها إلى بورنو.أنظر: عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت.ن، ص ص 312-313.

القبائل حولها، وأدى فيما بعد إلى تكوين الواحات التي نجدها منتشرة في أغلب مسالك القوافل التجارية، حيث لا يُشك في رعاية بعض تجارها للنخيل وغيرها من الأنشطة الزراعية. ونظرا لاحتياج القوافل إلى أماكن للإقامة ومحطات للاستراحة بعد كل مرحلة من مراحل السفر، فقد كان من الطبيعي أن تتوطد العلاقات الاجتماعية بين التجار وسكان تلك الواحات(1).

لذا كانت القوافل التجارية عاملا مهما لا في زيادة العمران في الصحراء فحسب، بل أيضا في تحسين ظروف المعيشة والاتصال والتبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري بين مختلف أطراف الصحراء وبينها وبين التل، وبدون هذه القوافل كان من المحتمل أن تظل الواحات مغلقة على نفسها، محرومة من كل مد خارجي، ومن كل اتصال بالعالم غير الصحراوي(2).

لذلك كان سكان الواحات الصحراوية في جنوب الجزائر في ذلك الوقت يحرصون كل الحرص على إبقاء علاقات تجارية مع مدن الشمال، لأنهم كانوا يرون أن رخاء منطقتهم مرهونا بانتظام القوافل التجارية وزيادة حمولتها(3).

ومن مميزات هذه القوافل أنها تتاجر بالبضائع المحلية وبضائع أوروبا المستوردة، فيستغل السكان مرورها ببُلدانهم وقُراهم، ويحشدون سلعهم وبضائعهم إليها، ويشترون منها بعض بضائعها التي يرغبون فيها: الأوروبية الشمالية والصحراوية الجنوبية(4).

(1) بشار قويدر: القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجارة وآثارها) مقال/في/ كتاب طريق القوافل،نشر:م.و.ب.ع. ق. ت.ع. إ.ت، مطابع عمار قرفي، باتنة، الجزائر، 2001م، ص17.

(2) العربي: المرجع السابق، ص45.

(3) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، طبع: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985، ص236.

(4) بوعزيز: موضوعات وقضايا ...، المرجع السابق، ص528.

والثابت أن سكان الواحات قد حافظوا محافظة كبيرة على ما استفادوا به من خلال علاقاتهم بتجارة القوافل، كما يعدون بمثابة الصورة الصادقة لمدى تأثير تلك القوافل الصحراوية في الميدان الاقتصادي وغيره.

3. على بلدان المغرب الكبير:

إن تجارة القوافل العابرة للصحراء وفرت لدول المغرب الكبير ومدنه كل أسباب النمو والتطور الاقتصادي والاجتماعي على حد سواء، وقد لاحظنا كيف اهتم المغاربة أفرادا وجماعات بالتجارة وغامروا في المشاركة في قوافلها نظرا لما تدر عليهم من فوائد، أقلها تحسين مستوى المعيشة وتحقيق الأمن الغذائي، وغير ذلك من النتائج.

وفوق كل هذا ساهمت تجارة القوافل في تطوير الاقتصاد المغاربي بتوفير رؤوس الأموال ممثلة في قناطر الذهب الخالص والتبر، وقوافل الرقيق الذين كانوا يُستغلون في الخدمات والأعمال الكبرى وغير ذلك، مما انعكس إيجابيا على نمو وتطور الحرف وظهور الصناعات المختلفة ووفرة الإنتاج الزراعي، وانعكس كذلك إيجابا على الحياة اليومية للمجتمعات المغاربية[1].

ب. تأثيرها الاجتماعي:

كانت القوافل التجارية الجزائرية تحمل إلى أسواق دول إفريقيا جنوب الصحراء بضائع أغلب مصدرها بلدان المغرب الكبير عامة والجزائر خاصة، وكانت هذه البضائع من الأهمية بحيث ينتج عن وُرودها فوائد كثيرة على الأفارقة منها: تنشيط التجارة الداخلية، تغذية الجبايات الحكومية، المساهمة في توفير مجال التشغيل، ترقية الذوق العام في الاستهلاك، المساعدة على إشاعة ظاهرة الأناقة في اللباس خاصة بين

(1) بشار : المرجع السابق، ص ص18-17.

الطبقات الموسرة. وحين يتوقف الوارد من البضائع إلى الأسواق الإفريقية، كان قسم من الناس يضطرون إلى الالتجاء لجذور الحشائش للتغذي بها، وتحصل المجاعات[1].

كما استفادت بلاد السودان من علاقاتها التجارية الخارجية مع الجزائر في تصريف منتوجاتها بحيث لم تعرف الركود، وكانت هذه العلاقات تشكل وسيلة اتصالها بالعالم الخارجي، بحيث جلب لها ازدهارا حضاريا كبيرا، وهكذا كانت بلدان إفريقيا جنوب الصحراء بواسطة تجارتها الخارجية النشيطة تأخذ من العالم وتعطيه[2].

ومن الجدير بالذكر أن كل التأثيرات الخارجية التي عرفتها بلدان إفريقيا جنوب الصحراء في ميدان الحضارة، حتى نهاية القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي، كان الفضل فيها يعود للمغاربة والجزائريين بالدرجة الأولى، نظرا للعوامل الجغرافية[3].

ج. تأثيرها الثقافي:

لقد عرف الإنسان الجزائري التجارة مع إفريقيا منذ أمد بعيد، ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلما زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، فأصبح يجمع بين تجارته ونشر الدعوة الإسلامية، فوجد ترحابا أينما حل وأصبح مكان إقامته منارة للفكر الإسلامي لما يحمله من مدنية وحضارة، واختار مساعديه من خيرة الناس فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة[4].

فما أن يدخل هذا التاجر قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار ويبهر النفوس بتصرفات لم يألفها الأفارقة من قبل، مثل كثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وعبادته التي يبدو فيها وهو خاشع يُناجي ربه، ومنظره في سجوده وسكينته يُضفي عليه من

(1) زبادية : مملكة... ، المرجع السابق ، ص ص217-218 .

(2) زبادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 40.

(3) زبادية: المرجع نفسه، الهامش رقم15، ص 63، .

(4) عطية مخزوم الفيتوري: دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1998م، ص104

المهابة والجلال ما يحرك فطرة الإفريقي الوثني، فيُدرك أن هناك بدون شك قوة إلهية عظيمة، فضلا عما يتحلى به التاجر المسلم حينئذ من صفات حميدة وأخلاق فاضلة في معاملاته التجارية، إضافة إلى أعمال البر والإحسان والتي تتجلى خاصة في إخراج الصدقات والزكاة وتوزيعها على المحتاجين، مما أثر فيهم فقلدوه واقتدوا به.

ومع التجارة وزيادة الاتصال بين المغاربة والأفارقة، زادت الرغبة عند هؤلاء في التعمق في أصول الدين الإسلامي، والشريعة الإسلامية، فسار بعض الأفارقة على نفس طرق القوافل التجارية ذاهبين إلى الشمال، وإلى مراكز الحضارة والثقافة الإسلامية، لكي يزيدوا فقها في الدين وفي العلوم الإسلامية[1].

د. أهم القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر والعابرة لها نحو البلدان الإفريقية:

شهدت الجزائر حركة تجارية مكثّفة بفضل القوافل التي كانت تجوب البلاد طولا وعرضا، وهذا قبل التدخل الأوروبي في التجارة العابرة للصحراء. ومن ضمن القوافل الطولية بين الشمال والجنوب، نذكر مثلا:

1. قافلة سكيكدة إلى قسنطينة وبسكرة وتقرت وورقلة ووادي مزاب والأغواط، حتى تمبكتو[2].
2. قافلة وادي مزاب إلى الأغواط وبوسعادة وقسنطينة والكاف، حتى تونس.
3. قافلة وادي سوف إلى غدامس وطرابلس بليبيا.
4. قافلة ورقلة إلى غدامس وطرابلس.
5. قافلة عين صالح إلى غات والعكس.
6. قافلة وهران إلى تمبكتو عبر تافيلالت بالمغرب الأقصى[1].

(1) جلال يحيى: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، نشر المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2010م، ص21.

(2) جلال يحيى: المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

هـ. نموذج للقافلة التجارية الجزائرية العابرة للصحراء

❋ قافلة بني مزاب:

بدأت علاقة المزابيين بالتجارة منذ نهاية القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي، حيث أخذوا يخرجون من عزلتهم وسط الصحراء، منطلقين صوب مختلف أنحاء القطر الجزائري، وذلك بسبب تزايد السكان في الوادي وضعف المردود الفلاحي، الشيء الذي أجبرهم على التفكير في موارد أخرى للعيش يضمنون بها بقاءهم في المنطقة فأخذوا في الاغتراب إلى مدن التل قصد التجارة[2].

كان للمزابيين نصيب من تجارة الجزائر العاصمة في العهد العثماني، إذ احتكروا التجارة الخاصة بالتبر وريش النعام والتمور وحتى تجارة العبيد، وذلك بعد أن حصلوا على تسهيلات واسعة من طرف الحكومة التركية بالجزائر التي منحتهم حرية التجارة الداخلية والخارجية، فقاموا بعقد عدة اتفاقيات مع الحكومة[3]، فقد كانوا في عهد حسن بن خير الدين يقودون حركة القوافل التجارية، فكانت عملياتهم التجارية نشطة بين مدينتي تمبكتو والجزائر يسلكون طريق غدامس أو تافيلالت[4].

ولعل أقدم النصوص المتعلّقة بهذه الفترة (أي الفترة العثمانية) نص للحسن الوزان (حوالي 1552م)، يقول فيه: "...مزاب منطقة مأهولة في قفار نوميديا على بعد ثلاث مائة ميل شرق تيكورارين (قورارة)، وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط،

---

(1) وليام شالر: مذكرات شالر، قنصل أمريكا بالجزائر(1816-1824م)، ترجمة وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م

(2) بومدين بوداود: تجارة بني مزاب، تجسيد المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال التجارية، تقديم: الأستاذ بكلي عبد الوهاب، دار رياض العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م، ص86.

(3) من بينها معاهدة سنة 1510م لحماية قوافلهم التجارية، وقد كانت معاهدة "ولاء ودفاع"، مما جعلهم يشاركون في معركة كدية الصابون سنة 1518م ضد الإسبان. أنظر: بوداود: المرجع نفسه، ص57.

(4) Mouloud Gaid: Les berberes dans l'histoire - les Ibadites - tome 6,imprimerie Merkouche, Algerie, SD,p264

تشتمل على ستة قصور...، وهي أيضا رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار أرض السودان..."[1].

وبداية من هذا العهد أخذت الحياة الفكرية والاقتصادية والعمرانية بمزاب في النمو والازدهار بسبب الطريق التجاري، التي استحدثها المزابيون بكدّهم ونشاطهم، فغدت منطقة مزاب معروفة كمحطة تجارية هامة بشمال الصحراء في جنوب الجزائر، وأصبح موقعها لا يغيب عن الخرائط الجغرافية التي أنجزها الأوروبيون خلال القرون الثلاثة الميلادية السادس عشر، السابع عشر، الثامن عشر[2].

ويظهر أن نشاط بني مزاب بين الجنوب والشمال قصد التجارة لم يكن مضمونا، فقد كانت قوافلهم المتنقلة بين الصحراء والتل تتعرض أحيانا في الطريق لغارات النهب والسلب من طرف أعدائهم وقطاع الطرق، حيث أن السلطة العثمانية بالجزائر لم تف بالتزاماتها تجاه المزابيين من حيث حماية قوافلهم التجارية، وتأمين طرق المواصلات، لذلك لجؤوا إلى تسليح أنفسهم لحماية قوافلهم، وعقد تحالف دفاعي وتعاوني مع بعض الأعراش مقابل مبلغ مالي متفق عليه بين الطرفين، وبهذا التحالف أصبح الطريق مأمونا نوعا ما طوال الحكم العثماني[3].

(1) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص ص34-35.

(2) مقالة بعنوان: " ولاية غرداية "، موقع: منتدى ثانوية الحاج علال بن بيتور: http://ibnbitour47.ahlamontada.net/t4906-topic، الزيارة لهذا الموقع كانت يوم 02,02,2013م، الساعة 12:00.

(3) حمو محمد عيسى النوري: دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، المجلد1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت.ن، ص58.

خاتمة:

وفي ختام هذه الورقة البحثية، توصلنا إلى الاستنتاجات الآتية:

-تبيّن من خلال البحث، بأن الصحراء الكبرى لم تُشكّل في يوم من الأيام حائلاً ولا حاجزاً في التواصل بين سكان ضفتيها الشمالية والجنوبية، بل كانت عاملاً من عوامل الاتصال.

- عرفت العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء نشاطا كبيرا عبر مختلف العصور، وهذا بفضل القوافل التجارية التي كانت تجوب الصحاري والفيافي ذاهبة آيبة، آخذة مسالك عديدة، مُعرضة أصحابها إلى صعوبات ومخاطر لا تعد ولا تحصى.

- كانت القافلة في ذلك الزمن الوسيلة الوحيدة الممكنة للتنقل في الصحراء، مستخدمة الجمال خاصة، تضم مجموعة من التجار تجمعهم المصلحة المشتركة، وللقافلة تنظيم خاص بها من حيث هيكلتها ونظام سيرها.

- كانت القوافل التجارة العابرة للصحراء بالجزائر خلال العهد العثماني تغدو وتروح بين موانئ الشمال وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى في كل من التشاد، ونيجيريا، وإفريقيا الوسطى، والنيجر ومالي، والسنيغال، وغيرها. مُرحب بها في كل الحواضر التي تمر بها أو تحط الرحال بها، سواء داخل الجزائر أو خارجها، نظرا لدورها الإيجابي في بعث النشاط التجاري والاقتصادي والثقافي بتلك المناطق البعيدة والمعزولة.

- لقد استطاع التجار الجزائريون بإمكانياتهم المتواضعة والبسيطة أن يتأقلموا مع الظروف الصعبة المحيطة بهم أثناء تنقلاتهم، ويسلكوا مسالك برية تربط بين شمال الجزائر وجنوبها، ومع بلدان دول إفريقيا جنوب الصحراء.

– إن المسالك السالفة الذكر لم تبق ثابتة عبر الأزمنة، فقد عملت ظروف سياسية وأمنية على تغيير مسارها بين فترة وأخرى، لكن الملاحظ أن الاتجاهات عموما حافظت على ثباتها.

– يمكن القول بأن الجزائر في العصر الحديث لم تتوقف عن كونها ساحة مرور تلتقي فيها المواد الأوروبية بمواد بلدان المغرب الكبير وإفريقيا جنوب الصحراء، وذلك حتى في أصعب الظروف، إذ كان تجار الجزائر يُصدّرون إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء مُنتجات الجزائر الصناعية والزراعية، مثل: الحبوب، الزيوت، التمور، الملح، الأقمشة، الأسلحة، الكتب والمخطوطات...، و كذلك البضائع التي كانوا يستوردُونها من وراء البحار، كالقهوة، والشاي، والسكر، التبغ...، مقابل تزويد تجار شمال الجزائر وأوروبا، بتبر الذهب، العبيد، والجلود، العاج، الفول السوداني، المسك، العنبر... وغيرها من البضائع القادمة من البلدان الإفريقية جنوب الصحراء.

وبمجرد أن احتلت فرنسا شمال الصحراء الجزائرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي، عملت على شلّ الحركة التجارية مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بتشديد الرقابة على القوافل التجارية، وبتحريم ومنع تجارة العبيد، وعلى الأسواق بفرض الضرائب، ممّا دفع بالكثير منها إلى تحويل وجهتها نحو أسواق غات وغدامس حيث تشتري منها بضاعة السودان تفاديًا للمضايقات الكبيرة التي تتعرض لها في الذهاب والإياب. مما أثّر سلبًا على الحركة التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، وأدّى إلى تراجعها وانكماشها مع نهاية القرن التاسع عشر ميلادي.

الملاحق

ملحق رقم(1): وصول القافلة التجارية إلى إفريقيا جنوب الصحراء. نقلا عن: عبد القادر زبادية، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء ...، الجزائر، 2010، ص267.

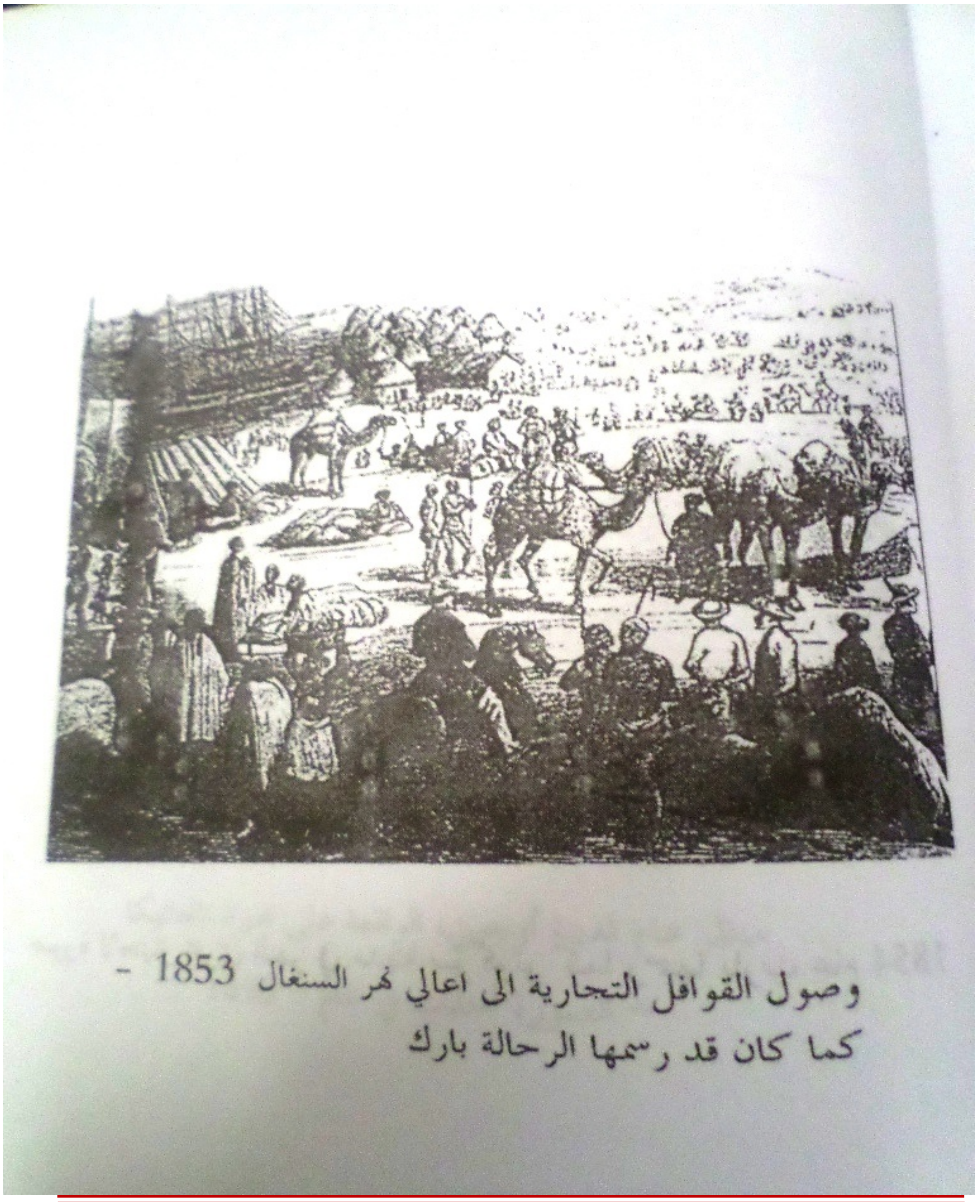

وصول القوافل التجارية الى اعالي نهر السنغال 1853 -
كما كان قد رسمها الرحالة بارك

ملحق رقم(2): مسالك التجارة العابرة للصحراء من البحر المتوسط إلى بلاد السودان. نقلا عن: Elika M'bokolo et autres : Afrique Noire et

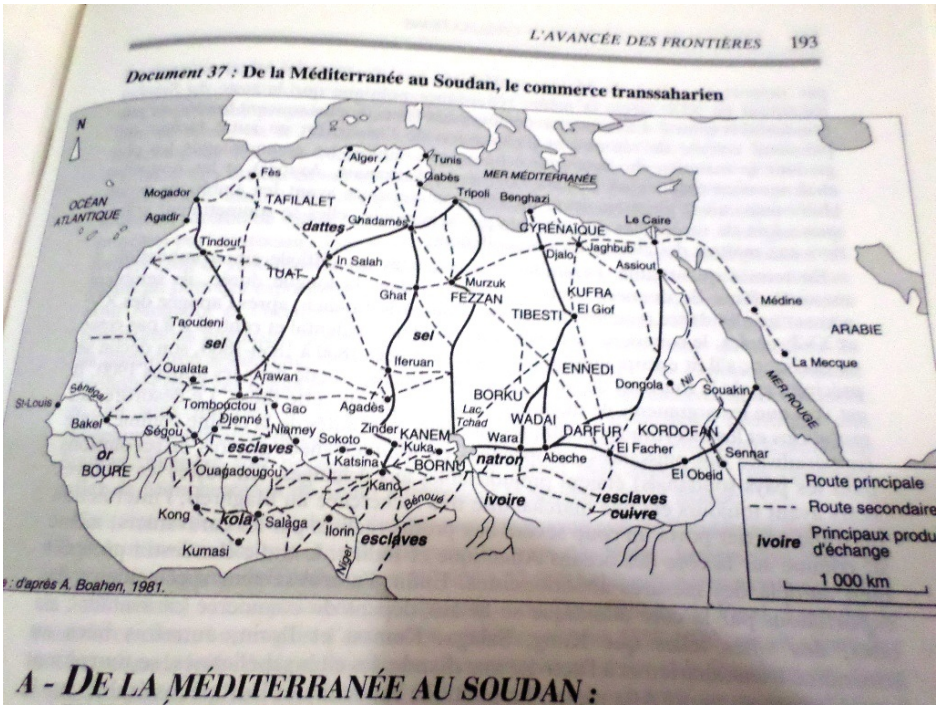

civilisation, Paris, France, 1992,p193

ملحق رقم(3): المسلك الأوسط الرابط بين مدينة الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء.نقلا عن: **F. de Nussy:**

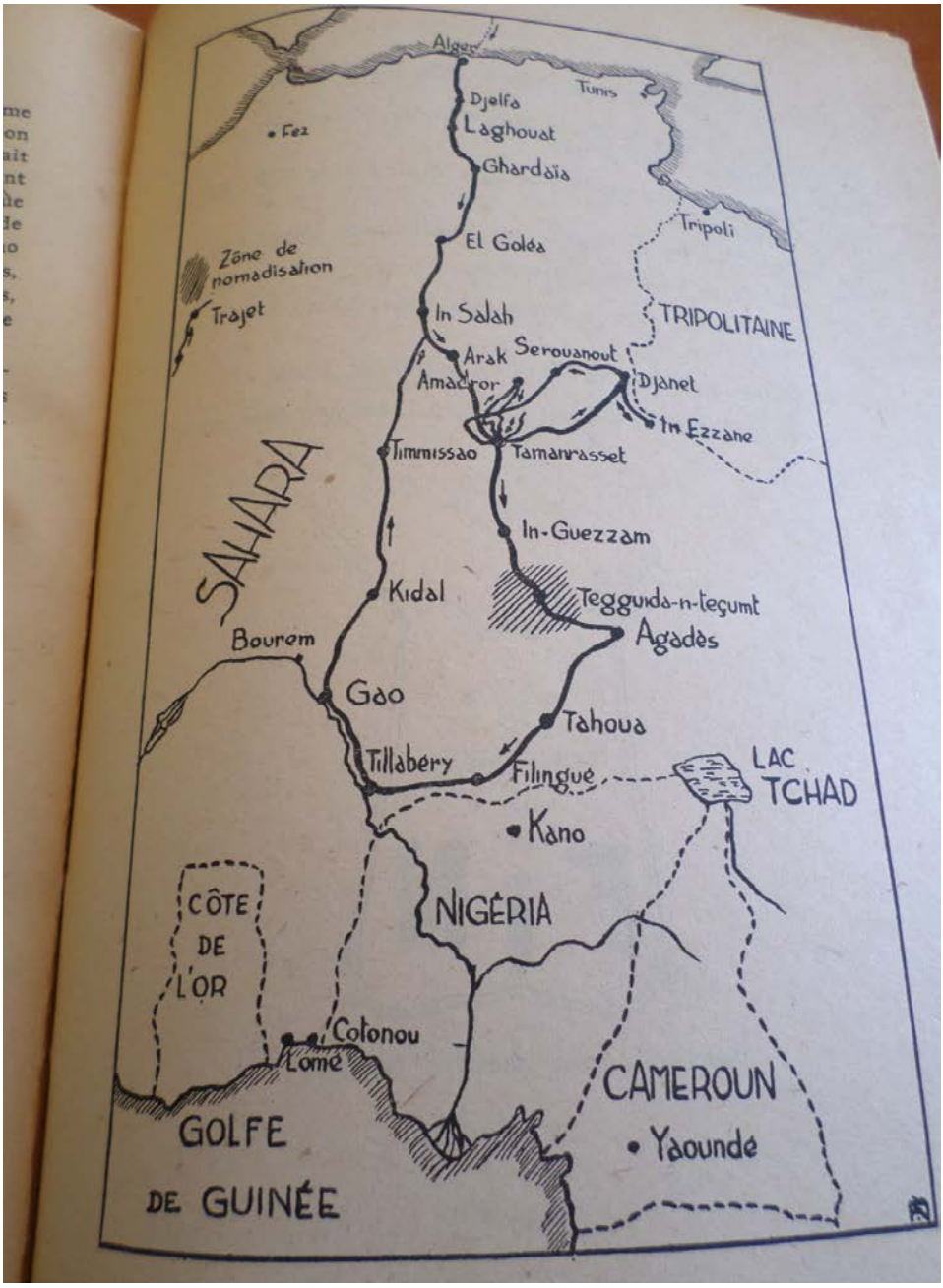

الملحق رقم(4): ساحة سوق مدينة غرداية قديما، نقلا عن: **Général Bonneval : circuits sahariens, Laghuoat, Le m'zab, Metlili,circularsaharianTour,SD.**

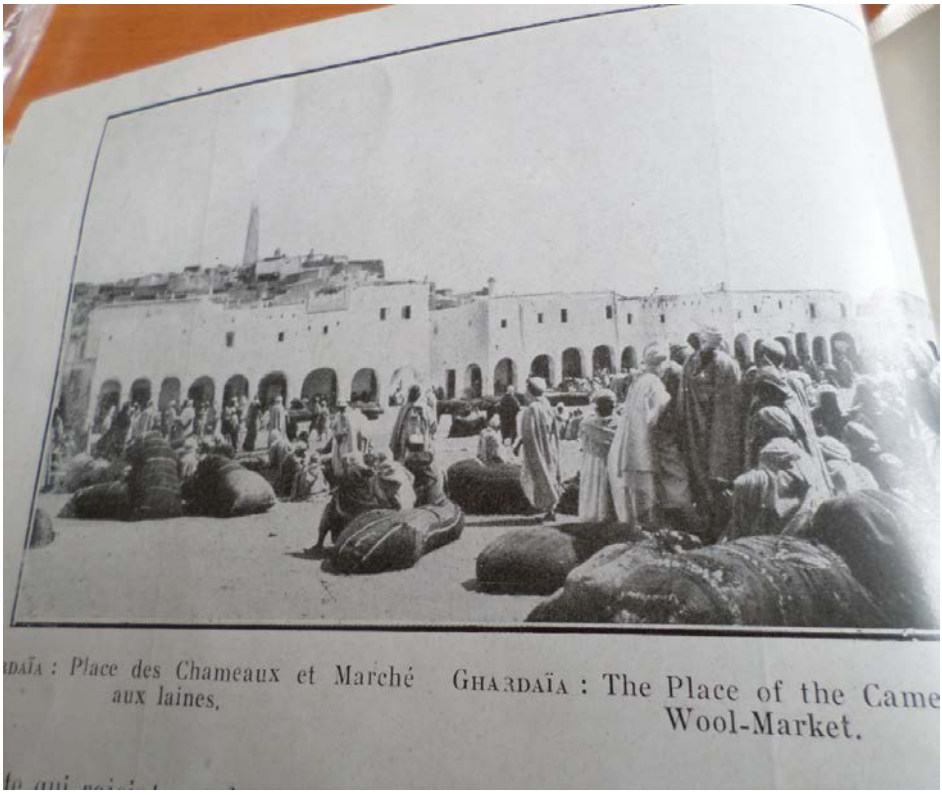

ıdaïa : Place des Chameaux et Marché aux laines.

Ghardaïa : The Place of the Came Wool-Market.

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

الحكم الشرعي في التسويق الشبكي

عبد الرزاق شرع
طالب دكتوراه / جامعة غرداية
أ.د. بوزيد كيحول / جامعة غرداية

الملخص:

تعد معاملة التسويق الشبكي من أحدث المعاملات المالية المعاصرة التي اقتحمت المجال الاقتصادي، وقد انخرط الكثيرون فيه دون بصيرة ودراية فكان لزاما على الباحثين الوقوف على حقيقته وبيان حكمه، ومن تم **فإن الدراسة تهدف** إلى بيان معاملة التسويق الشبكي ومحاولة الوقوف على حكمه الشرعي. **والإشكال المحوري للبحث:** ما حقيقة معاملة التسويق الشبكي؟ وما حكم التعامل بها؟. **ويقوم البحث** على محاورين أساسين هما ماهية التسويق الشبكي، والوقوف على حكمه الشرعي. **ويتبع البحث منهجا استقرائيا** في تتبع نصوص الشريعة وقواعدها وأقوال الفقهاء والخبراء في المجال، **ومنهجا تحليليا** في بيان صورة التسويق الشبكي منذ ظهوره إلى غاية انتشاره والتعامل به. **وقد توصل البحث إلى نتائج ابرزها** التسويق الشبكي نظام حديث النشأة ظهر في الولايات المتحدة يهدف إلى كسب أرباح وأموال طائلة دون عناء عن طريق التغرير بالمسوقين المتعاملين به وعليه فيحرم التعامل بالتسويق الشبكي وكذا يحرم استهلاك المنتجات الواردة من خلال هذا النظام. **وخلص البحث إلى توصيات منها**: العمل على بيان حكم التسويق الشبكي في مختلف الوسائط لتوعية الشباب من خطر الوقوع في شراكه مهما كانت المسوغات والمغريات.

الكلمات الدالة: التسويق الشبكي- الهرمي-النظام_ الحكم الشرعي.

Summary:

The network marketing (or the Multi-level Marketing MLM) is being considered as one of the top modern financial transactions that takes on the economic sphere nowadays. A lot of people who have been going through it are not really well aware and with no perception of what is about. Hence, it was inevitable for researchers to clarify its nature and to explain its legal aspect. The main purpose of the present study is to demonstrate the network marketing transaction and the deliverance of its formal legal opinion. The key problematic of the research is: What is the fact behind the network marketing transaction and what is the ruling on dealing with according to the law? The present research is based on two major axes which are the nature of the network marketing and its Sharia ruling. It tracks in a hand, an extrapolative method in following the Sharia texts, its rules and the theologians and experts sayings in this field; and in the other hand, the analytic approach in showing the image of the network marketing since its appearance till to be spread out and its dealing with. This research has led to concluding the results of which the prominent is that the network marketing is a new system saw the light in the United States, it aims to earn profits and money effortlessly by deceiving the marketers dealing with. For this reason, dealing with the network marketing is considered as unlawful and prohibited, the same as consuming the products gained throughout this system. The research concluded with recommendations, amongst which: aiming to clarify the legal ruling of the network marketing in the various media to raise consciousness to youth and cautioning them of its risks no matter what the justifications and the attractions are.

Keywords: Network Marketing – Pyramid – Sharia ruling – System.

المبحث الأول: مفهوم التسويق الشبكي والأنظمة المشابهة له.

المطلب الأول: تعريف التسويق الشبكي

1- لغة:

1-1 التسويق لغة: أصلها من سَوّق، ومنها السوقُ وهو موضع المبيعات.

والسوَق: بفتح الواو يعني القيادة والتقدم، ساق الإبل يسوقها سوقا و سيقا[1].

فالتسويق في اللغة مشتق من كلا المعنيين، معنى البيع والشراء والتجارة، ومعنى القيادة والإدارة والسياقة، وعليه التسويق هو فن ادارة المبيعات.

- ويعرف أيضا بترويج السلع بطرق مختلفة لترغيب الناس في شرائها، تقول العرب: تسوق فلان: اي باع واشترى[2].

- والسوق كما يقول ابن منظور: موضع المبيعات، والجمع أسواق سميت بهذا لأن التجارة تجلب اليها وتساق المبيعات نحوها[3].

1-2 الشبكي لغة: أصل الشبك في لغة العرب: الخلط و التداخل ومنه تشبيك الأصابع، واشتبك الظلام اي اختلط[4].

سمي هذا النوع من التعامل بهذا الاسم، لان التعامل به يوجد شبكة من العلاقات شبيها بشبكة الصائد الذي يصطاد السمك.

1 - ابن منظور، ابو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، الطبعة الثالثة، مادة السوق، دار الحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

2 - انيس، ابراهيم وآخرون(إشراف مجمع اللغة العربية بالقاهرة)، المعجم والوسيط، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1972.

3 - ابن منظور، ابو الفضل محمد بن مكرم بن علي، المرجع السابق، الطبعة الثانية، ص.242.

4 - الرازي محمد، مختار الصحاح، دار المعارف ، القاهرة، ص 328.

2- اصطـلاحا:

2-1 التسويق الشبكي باعتباره مركب اضافي:

أ **التسويق:** Marketing يرجع أصل الكلمة الى الانجليزية وهي تتألف من مصطلحين هما Market التي تعني السوق ing والتي تعني داخل أو ضمن، وعليه عرفوا التسويق بأنه مجموعة الاعمال والوظائف التي تتم داخل السوق[1].

وعرف كذلك بأنه عبارة عن وضعية فكرية دقيقة ومجموعة من التقنيات تسمح للمؤسسة بأن تستولي على الاسواق بخلقها والاحتفاظ بها ومن تم تطوريها.

ويعرف كذلك بأنه نشاط الأفراد الموجه لإشباع الحاجات والرغبات من خلال عملية تبادل.

ومن خلال التعاريف المذكورة نستنتج أن عملية التسويق تقوم على مقومات هي:

- التسويق قناعة خاصة بالمسوّق؛
- التسويق يعتمد على مجموعة من التقنيات والاستراتيجيات تجلب الزبائن؛
- محور التسويق حاجات ورغبات الزبائن؛
- نتيجة الحاجات والرغبات تصنع وتصدر المنتجات وتحقق قيمة لدى الشخص الذي تشبع حاجاته[2].

ب الشبكي: وهذا نسبة لشبكة العملاء والزبائن المنخرطين في نظام تسويقي محدد كنظام المصفوفة، الثنائي ونظام الطبقة الواحدة، وليس إلى شبكة الأنترانت كما يعتقد الكثير[1].

---

1 - منير نوري، التسويق مدخل المعلومات والاستراتيجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، بن عكنون الجزائر، ص13.

2 - المرجع نفسه، ص14.

2-2 باعتباره فنا قائما بذاته:

برنامج التسويق يحصل فيه المسوق على عمولات أو حوافز مالية نتيجة لبيعه المنتج أو الخدمة، اضافة لحصوله على عمولات عن كل شخص يتم اعتماده مساعدا أو تابعا للمسوق وفق أنظمة و برامج عمولات خاص.

ويعرف أيضا: الاشتراك بنظام تسويق شبكي يجلب فيه كل مشارك مشاركين آخرين، وكل من هذين يجلب اثنين... وهكذا، ويكون ذلك مقابل مبلغ من المال يدفعه المشترك مقابل منتج صوري حتى يتسنى له الدخول في مجال التسويق[2].

ويعرف كذلك: احتيال استثماري وتسويقي يكافئ المشتركين، ليدفعهم لإقناع أشخاص آخرين للانضمام إلى البرنامج.

كما يعرف: نظام يبنى بموجبه هرم من أشخاص ينظمون بعد أشخاص آخرين انضموا قبلهم، وهؤلاء الأشخاص الذين انظموا يدفعون لمن قبلهم في الهرم مع توقع أنهم سيكونون قادرين على جمع مبالغ من أشخاص ينظمون لاحقا[3].

وفي تعريف آخر: يهدف التسويق الشبكي على اقامة علاقات بين المصنع والمستهلك والاستغناء عن كافة الوكلاء والوسطاء وشركان الرعاية والاعلان، واستخدام مبدا التسويق الشبكي يجعل المنتج يصل إلى المستهلك مباشرة ويتم الغاء جميع التحويلات التي يحصل عليها الوكلاء والوسطاء ومصروفاتهم من ايجارات ومرتبات ودعاية وتسويق، ويتم توزيع مجموع هذه النفقات بين المصنع وبين مجموع الزبائن في شكل عمولات، فيتم توزيع منتجات الشركة في مبدأ التسويق لشبكي

---

1 - بندر بن صقر الذيابي، التسويق الشبكي تكييفه وأحكامه الفقهية، اطروحة ماجيستر، المعهد العالي للقضاء، الفقه المقارن، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، 1425- 1426ه، ص 13.

2 - على حسن عبد المجيد الحلبي، تعريف عقلاء الناس بحكم معادلة بزناس، دار الجنان جامعة الزرقاء، الأردن، ص.4.

3- Jean calais – auley, Frank sternnitz, Paris. Droit de la comsummation. 5edition Dalloz 2000, P 117/110.

بواسطة العملاء المشترين، حيث يقوم المشترى بعمل الدعاية الشفهية للشركة ومنتجاتها، ويحصل على عمولة نظير تسويقه لمنتجات الشركة وفق شروط معينة تختلف من شركة إلى آخرى.

– يتبين مما سبق أن تسميته بالتسويق الشبكي ترجع إلى شبكات العملاء وليس إلى شبكة الانترنت التي تستخدم في الترويج.

ويعتمد هذا النظام على شبكات في شكل شجرة ذات أفرع عديدة أو في شكل هرم في درجات ومستويات متدرجة ويحصل العضو الأول في الشجرة أو الهرم على عمولات عن كل عضو جديد يدخل فيها[1].

– ويعرف (وهو المختار من بين التعريفات السابقة): التسويق الشبكي الذي يقوم على الترويج والدعاية لمنتجات معينة ضمن شركة شبكية متسلسلة بطريقة يختزل وسائل وقنوات التوزيع الكلاسيكية ويقرب بين المنتج والمستهلك بحيث أن الأرباح التي يجنيها الوسطاء الجدد ضمن سلسلة هرمية تبدأ من رأس الشركة إلى آخر عضو منخرط في أسفل الشبكة ضمن قواعد وشروط تضعها الشركة، فمن أراد الانضمام يدفع اشراكا سنويا ويلتزم بشراء منتوج معين يدفع ثمنه ثم يقوم بالدعاية والترويج، وله أن يختار الدرجة التي ينظم اليها من بين أربع درجات من المبدأ إلى درجة المدير حسب قيمة المنتج المشترى، فيحصل بذلك على عمولات حسب الدرجة التي انظم إليها والشرط الأساسي الجوهري هو أن يتكون النظام من شخصين اثنين أحدهما من اليمين والثاني على اليسار وأن يسيرا في خط متوازن فإن اختل التوازن حرّم المتعامل من العمولة المستحقة ولا يستلمها إلا إذا استوفى الشرط المطلوب[2].

1 – بندر بن صقر الذيابي، التسويق الشبكي (تكييفه واحكامه الفقهية)، المملكة العربية السعودية، الطبعة 1، 1426ه، ص.2.

2 – حمدي محمد بن صالح، التسويق الشبكي مفهومه واثاره وحكمه الشرعي، شركة opes نموذجا، ص .40.

وحسب رأي الباحث في الموضوع فإن التعريف السابق هو الأنسب بالتسويق الشبكي، وهذا لجمل من الأسباب نحصيها في ما يلي[1]:

1. ذكر المبدأ الذي يقوم عليه التسويق الشبكي: (يقوم على الترويج والدعاية لمنتجات معينة)؛
2. ذكر الطريقة المعتمدة في التسويق الشبكي: (ضمن شبكة متسلسلة بطريقة يختزل وسائل وقنوات التوزيع الكلاسيكية ويقرب بين المنتج والمستهلك)؛
3. شروط الانضمام بقوله: (فمن أراد الانضمام يدفع اشتراكا سنويا ويلتزم بشراء منتوج معين يدفع ثمنه ثم يقوم بالدعاية والترويج، وله أن يختار الدرجة التي ينظم اليها)؛
4. تقسيم الارباح: (بحيث أن الأرباح التي يجنيها الوسطاء الجدد ضمن سلسلة هرمية تبدأ من رأس الشركة إلى آخر عضو منخرط في أسفل الشبكة ضمن قواعد وشروط تضعها الشركة).

والرسم البياني يوضح ذلك:

الشكل رقم 1: مخطط التسويق الشبكي

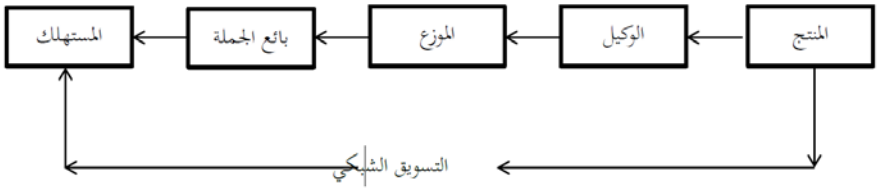

المصدر: مخطط: وصفي أبو عشور، (طرق التسويق الشبكي)

1 – من اعداد الباحث، اعتمادا على تعريف حمدي محمد بن صالح، التسويق الشبكي مفهومه واثاره وحكمه الشرعي.

الشكل رقم 2: **طريقة النظام الثنائي**

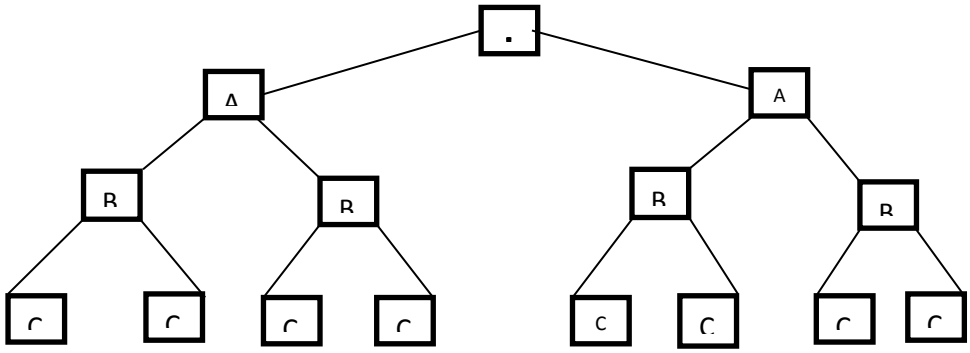

المصدر: مركز التميز للبحوث والدراسات الاقتصادية: التسويق الشبكي

المطلب الثاني: المصطلحات المشابهة للتسويق الشبكي

يتحدث هذا المطلب في الفروق الجوهرية بين نظام التسويق الشبكي وبين الأنظمة المشابهة له.

ويعرف التسويق الشبكي كما ذكر من قبل ذاك النظام الذي يقوم على الترويج والدعاية لمنتجات معينة ضمن شركة شبكية متسلسلة، بطريقة يختزل وسائل وقنوات التوزيع الكلاسيكية ويقرب المنتج من المستهلك أي (فكرة التسويق المباشر)[1].

وفيه يعطى للمشاركين حق شراء التوظيف لمزيد من المشاركين، وبيع منتوجات او خدمات والتعويض عن المبيعات عن طريق الأشخاص الذين قاموا بتجنيدهم، فضلا عن المبيعات الخاصة لهم.

أو هو : نظام تسويقي مباشر يروّج لمنتجاته عن طريق المشترين باعطائهم عمولات مالية مقابل كل من يشتري عن طريقهم وفق شروط معينة[2].

1 – التكييف الفقهي لمعادلة التسويق الشبكي، مرجع سابق، ص.7.

2 – وصفي عاشور ابوزيد، الفكرة الجوهرية للبرنامج التسويقي، ص.1.

ومن خلال هذه التعريفات وقع خلط عند كثير من الناس بين نظام التسويق الشبكي وبين عدة انظمة مشابهة له نذكر منها الاتي:

1. **الفرق بين نظام التسويق الشبكي وبين التسويق الهرمي:**

يعرف التسويق الهرمي بانه: ارتباط العائد للمشترك على دخوله في مستوى مرتبط بمستويات آخرى تشكل بمجموعها طبقات، ويزداد العائد كلما كان موقع المشترك أقرب إلى المشترك الأول (رأس الهرم)[1].

ومن خصائص التسويق الهرمي نجد[2]:

- شركة تسوّق منتجا معدوما أو منتجا صوريا لنصب والخداع؛
- بيع منتج بأضعاف سعره الحقيقي؛
- المنخرط في هذا النظام يقصد المكافأة لا المنتج بحدّ ذاته؛
- وعد بمكافأة خيالية لمن ينظم لشبكة المسويقين؛
- لا يمكن الحصول على امتياز تسويق المنتجات إلا بعد شرائها؛
- إذا أقنع المسوّق شخصا آخر بشراء المنتج فإن ذلك الشخص يصبح عضوا في شبكة المسوّقين يصب عمله وجهده في جيب المسوّق الأول.

لا خلاف بين أهل العلم على حرمة هذا النوع من التسويق وهو يندرج تحت أنواع من المحرمات، لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[3]. ويتضح الفرق في الجدول الآتي:

جدول رقم 1: الفرق بين نظام التسويق الشبكي والتسويق الهرمي:

1 – تشويش المحاميد، السمسرة الهرمية، بحث مقدم لمؤتمر قضايا مالية معاصرة من منظور كلية الشريعة، جامعة الزرقاء الاهلية، الاردن، 2004، ص.4.

2 – احمد سمير القرني، حكم التسويق بعملة هرمية، دراسة فقهية وقانونية مقارنة، الطبعة 1، الصفحة .4.

3 – سورة النساء الآية 29.

التسويق الشبكي	التسويق الهرمي
بيع منتج حقيقي	بيع منتج صوري او معدوم
بيع المنتج بسعره الحقيقي	بيع المنتج بأضعاف سعره
دفع رسوم الاشتراك	دفع رسوم الاشتراك
وعد بمكافآت خيالية لمن ينضم لشبكة	وعد بمكافآت خيالية لمن ينضم لشبكة
لا يمكن الحصول على العمولة إلا بعد التسويق	لا يمكن الحصول على العمولة إلا بعد التسويق
خلاف بين أهل العلم بين حلّه وحرمته	لا خلاف بين أهل العلم في حرمته

المصدر: من اعداد الباحث، اعتمادا على تشويش المحاميد، السمسرة الهرمية، مرجع يبق ذكره.

2. **الفرق بين التسويق الشبكي والتسويق التقليدي**: يعتمد التسويق التقليدي على الوسطاء المتعددين بين المنتج والمستهلك، فالمنتج لا بد له أن يمر بسلسة من الوسطاء قبل أن يصل الى المستهلك الأخير، ومن جملتهم الوكيل والموزع والمحل. كما أنّ المنتج بحاجة إلى دعاية واشهار واللذان يكلفان مبالغ مالية كبيرة يتحملها المنتج، بينما يلغي التسويق الشبكي كل هؤولاء الوسطاء ويقوم على فكرة أساس هي التسويق المباشر، وهي ببساطة الربط المباشر بين الشركة المنتجة والزبون.

الشكل رقم3: مخطط يوضح الفرق بين مسار التسويق الشبكي و التقليدي

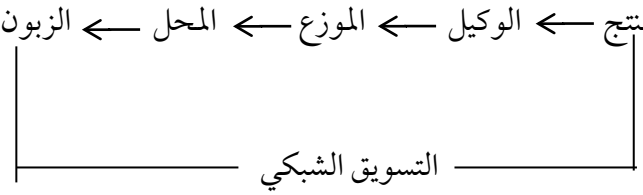

المصدر: من اعداد الباحث، اعتمادا على مركز التميز للدراسات والبحوث الاقتصادية.

مسار التسويق التقليدي

مسار التسويق الشبكي

بهذه الصورة فإن التسويق الشبكي يقوم على الغاء كل الوسطاء بين المنتج والمستهلك، واستبدالهم بالزبون المسوّق الذي ستعطيه الشركة نسبة من الأرباح مقابل جلب كل زبون بشكل مباشر أو غير مباشر، زاعمة بأن التسويق التقليدي مكلف وأنه يرفع من السعر أو الخدمة نحو60٪ من تكلفة انتاجها، أن الشركة تدفع لمن يعمل ويجتهد أكثر فمن يجتهد أكثر يحصل على مبلغ أكبر[1].

جدول رقم 2: الفرق بين نظام التسويق الشبكي والتسويق التقليدي:

التسويق الشبكي	التسويق التقليدي
بيع منتج حقيقي	بيع منتج حقيقي
بيع المنتج بسعره الحقيقي	بيع المنتج بسعره الحقيقي
دفع رسوم الاشتراك	عدم دفع رسوم الاشتراك
وعد بمكافآت خيالية لمن ينضم لشبكة	عدم وجود مكافآت
الربط المباشر بين المنتج والزبون	وجود وسطاء (بيع الجملة، التجزئة، المحل)
خلاف بين أهل العلم بين حلّه وحرمته	لا خلاف بين أهل العلم في حلّه

1 مركز التميز للدراسات والبحوث الاقتصادية، ص13.

المبحث الثاني: نشأة التسويق الشبكي وألية العمل به

نحو مطلع القرن الحادي والعشرين، انتشرت التجارة الإلكترونية الرقمية انتشارا رهيبا في العالم، واستطاعت في فترة زمنية وجيزة غزوا الساحة الاقتصادية، وطغت على أغلب التعاملات المالية في صورها القديمة واستبدلتها بصور حديثة، فكان لزاما على طلاب العلم المتخصصون أن يحيطوا بهذه التعاملات فقها ودراية، وبما يتعلق بها فهما دقيقا وعميقا، ويأتي من بين هذه المعاملات الحديثة التسويق الشبكي الذي طاف على العالم بأسره فلا تكاد تخلوا دولة ولا اقليم إلا وفيه نسبة من المشتركين، قد انظموا إليه وصاروا عملاء فيه طمعا فيما قد يقدموا من عملات وامتيازات للمشتركين، وفي هذا المبحث سنحاول تسليط الضوء على نشأة التسويق الشبكي، ودواعي انتشاره وكيفية العمل به.

المطلب الأول: نشأة وأماكن انتشار التسويق الشبكي

1. نشأة التسويق الشبكي:

يعتبر التسويق الشبكي حديث النشأة تم ابتكاره كوسيلة لتسويق المنتجات والخدمات في ضرف وجيز وأقل تكلفة مما أدى إلى انتشاره بشكل رهيب في العالم فلا تكاد تخلوا دولة إلا وقد تسلل إليها بانضمام عدد من العملاء فيه بسبب الاغراءات والمكافئات التي يوعدون بها أن هم قاموا بالانخراط في هذه الشركة خصوصا بظهور آلات الاتصال حديثة[1].

وتعيد الدراسات والبحوث في مجال التسويق الشبكي أن عمر التسويق الشبكي ما يقارب 60 عاماً ففي منتصف الأربعينيات ظهرت شركة تسمى فيتامين كاليفورنيا California Vitamins تسويق منتوجات غذائية وكان أغلب زبائنها هم أقارب وأصدقاء موظفيها فوضعت خطة عملات لتسويق منتجاتها الغذائية وهذا بإعطاء

1 - يوسف أبو الحجاج، التجارة عبر الانترنت، الطبعة الأولى، 2010، دار الوليد للدراسات والنشر والترجمة ، دمشق سوريا، ص11.

الموظفين عملات عن كل ما يقومون بتسويقه إلى أقاربهم وأصدقائهم ومن هنا شاهدنا ولادة فكرة التسويق الشبكي.

أدى نجاح فكرة التسويق الشبكي إلى تفطن مسوقين اثنين لشركة فيتامين كاليفورنيا يدعان ب "ريدج ديفوس" و"جي فاناندو" إلى الاعتماد الكل على التسويق الشبكي في تسويق المنتجات وأسسا شركة خاصة بهما تدعى بأمواي AmwaY تسويق منتجا واحدا وهو عبارة عن منظف متعدد الأغراض وبهذه الطريقة تمكنا من ربح أموال طائلة في ظرف وجيز[1].

كانت هذه هي البداية الفعلية لتجارة التسويق الشبكي، وفي عام 1974 صدر قانون في محاكم أمريكا بمنع الشركات التي تتبع هذا الأسلوب في التسويق، فتعرضت عدة شركات على هذا القانون ورفعت بذلك دعاوى قضائية تقضي بإلغاء هذا القانون ودفعت أموال طائلة من أجل إلغائه.

وفي عام 1979 صدر حكم من Feberal Trade يقضي بقانونية هذه الشركة[2].

تفجرت تجارة التسويق الشبكي بعد ذلك انتشارا هائلا في العقد التالي إذ يقدر عدد المنخرطين في هذه الشركات بحوالي 50 مليون منخرط في انحاء العالم[3].

وتعتبر الولايات المتحدة الأميركة مهد التسويق الشبكي ومنها انتشر إلى بقيت دول العالم وترجع الدراسات سبب انتشار التسويق الشبكي إلى عدة عوامل ويمكن تقسيمها إلى قسمين:

---

1 – مركز التميز، مرجع سابق، الندوى 1، ص 13.

2- www. Ftcgou/ bcp/ conling/ edcans/ pyramid/indx.htm. موقع التجارة الامريكية من الانترنت، 2014/09/12

3 – يلخص الكاتب ريتشر ديبول في كتابها الموجة الرابعة تطور التسويق الشبكي ال اربعة مراحلوهي:

المرحلة الأولى من عام 1945 الى 1979 مرحلة النشأة؛ 1979 الى 1989 مرحلة الانتشار؛ 1990 الى 1999 مرحلة الشيوع ؛ 2000 الى يومنا هذا مرحلة العولمة.

أ- قسم اقتصادي : ويتجسد في النقاط التالية:

- التسويق الشبكي طريقة ممتازة لكسب مصدر دخل ثاني، أدى هذا السبب إلى إقبال عدد معتبر من الأشخاص طمعا في العوائد والعملات المعتبرة التي سيجنيها منه في ظل موجة تحسين نمط الحياة من خلال العمل في البيت؛
- التسويق الشبكي فرصة متاحة للجميع لا تكلف مجهودات كبيرة ولا مشقة مع امكان الانخراط في أي وقت؛
- التسويق الشبكي طريق إلى إنشاء شركة خاصة بك دون متطلبات كبيرة ولا متبعات ولا التزامات ضريبية؛
- ذيوع آلات اتصال حديثة لدعاية والإعلام: فبسبب انتشارها وذيوعها في العالم أصبح من السهل انتشار أسلوب التسويق الشبكي ومن هنا استغلت كثير من الشركات هذا الأسلوب لترويج سلعها ومنتجاتها مما كان له أثر بالغ في نجاحها وزيادة الطلب عليها في المقابل وعود العملاء بمبالغ طائلة فلا تكاد تخلوا قرية إلا وتحتوي على عملاء منخرطين فيها[1]؛
- طريقة لتعرف على الناس وكسب علاقات اقتصادية؛
- الحوافز المالية المرصدة التي تدفع للعملاء (خطة حوافز) توضح في ما يلي[2]:
  - اعطاء حافز مالي للمنخرط الذي يقوم بترويج لهذه المنتجات ما يشكل حافز؛
  - كلما زاد عدد العملاء والزبائن كلما زادت نسبة العملات؛
  - توضيح النظام المعتمد لحساب العملات (نظام ثنائي، نظام الطبقة الواحد، نظام المصفوفة)؛
  - مدة الانخراط (أسبوعية، شهرية، عدد العملاء).

ب- قسم ديني: ويتجسد في النقاط التالية:

- ضعف التدين وقلّة تحري الحلال عند الكثير من الناس[1]:

1 – بندر بن صقرالذيابي، مرجع سابق، ص23.

2 – ابراهيم أحمد الشيخ الضرير، التكيف الفقهي لشركات التسويق الشبكي شركة بزناس، الطبعة الأولى، مركز الكلم الطيب للبحوث والدراسات، 2002، ص3.

فبسبب ضعف الوازع الديني في الآونة الأخيرة أصبح من السهل انظمام الناس إلى هذا الأسلوب من التسويق طمعا في الأموال التي تذر عليهم بدون جهدا أو مشقة تذكر وكثيرٌ من هؤلاء الناس لا يهتمون ولا يكترثون بما جمعوا من الأموال أمن حلال أو من حرام ولا يسألون أهل العلم عما يريدون المشاركة فيه والواجب على المسلم اذ لم يكن له علم أن يسأل أهل العلم عن الموقف الشرعي لهذه المعاملات لقوله تعالى " فسألوا أهلَ الذّكر إن كنتم لا تعلمون "[2]؛

- الإقبال على الدنيا والتنافس في جمع الأموال لقد كان للنظم المالية القائمة في وقتنا الحاضر أثر عظيم وضرر جسيم على الشعوب والأمم في العصور المتأخرة ولقد كان العالم لسببه دويلات كثيرة نتيجة اصراره على كون منفعة واللذة هما أقصى ما يمكن تحقيقه من السعادة للإنسان [3]؛
- ضعف المنظومة القانونية التي لا تحارب هذا النوع من التعامل نظرا لضعف المنظومة القانونية لدول العربية وعدم اكتراث الدول الغربية لمثل هذه المعاملات المعاصرة انتشر التسويق الشبكي انتشارا سريعا.

2. أماكن انتشار التسويق الشبكي:

أول ما ظهرت فكرة التسويق الشبكي في الولايات المتحدة الأمريكية والتي تعتبر بؤرة التسويق الشبكي حين ظهرت شركة أمواي (ذكرت سابقا) التي كانت ترويج لسلعا منزلية متمثلة في منظف متعدد الاغراض ومن تم انتشر التسويق إلى بقيت دول العالم في غضون 50 عاما[4].

توغل التسويق الشبكي إلى الدول الأوروبية واحتضنه أصحاب الأموال والثروات بالنظر إلى كثرة الأرباح والمجهودات البسيطة التي تتمثل في اقناع أشخاص بالانظمام إلى شركات تتعامل بهذا النظام مقابل عمولات.

---

1 – بندر بن صقر الذيابي، مرجع سابق، ص 25.

2 – سورة الأنبياء، الآية 7.

3 – أحمد عبد الفتاح الحلمي، الإعلان ووسائل الإعلام، الطبعة الأولى، دار الوليد، سوريا، ص84.

4 ابراهيم أحمد الضرير، مرجع سابق، ص13.

وأصبحت هذه المجهودات أيسر وأبسط بكثير بعد الانفتاح العالمي الهائل لوسائل الاعلام والتقدم التقني فلا تكاد تلمح قارة ولا بلد إلا وفيه عدد كبير من العملاء المنخرطين في هذه الشركات المنتشرة عبر كامل دول العالم، فعلى سبيل المثال قارة استراليا انخرط فيها عملاء كثيرون كدا قارة افريقيا ولا سيما جمهورية مصر وبقية الدول العربية في شمال افريقيا، أما ميدان هذه الشركات وساحة تعاملاتها ففي قارة آسيا خصوصا في البلاد الاسلامية والعربية فهو منتشر في مدن كثيرة من باكستان و انتشر مؤخرا في سوريا والمملكة العربية السعودية بالإضافة إلى أعداد هائلة في الخليج العربي فعلى سبيل المثال شركة **biznaz** حيث ظهرت في أكتوبر سنة 2001 على يد عمران خان وزمان أحمد ونور المحمود (بكستان) وحسب نتائج بعض الابحاث بلغ عدد المنخرطين فيها بعد سنتين على الأقل 315000 [1]. شركة **oprs** والتي تعني حروفها فرصة لإيجاد العمل والنجاح هي شركة تسويق شبكية عربية تأسست سنة 2012 بدولة تونس ولها عدة فروع في كل من مصر الجزائر وبعض البلاد العربية وهي من أوائل شركات التسويق الشبكي التي ظهرت في البلاد العربية[2]. شركة كويست نت[3] Quest international ظهرت في سنة 1998 في هونكونغ كمنظمة حرة في العالم أسست من قبل رجال أعمال أسيويون بالتنسيق مع عملاء من أوروبا انتشرت في 128 دولة من العالم في حين أن مكاتبها لا يتعد أجودها 24 دولة تقوم هذه الشركة على مبدأ التسويق الشبكي وإلغاء الوسطاء بين منتج ومستهلك حققت بعد مرور 7 سنوات بفضل هذا النظام 1 مليار دولار ربحا صافيا[4]

1 – ذيب موسى ناصيف، التجارة الالكترونية(دراسة خاصة من biznaz)، جامعة الزرقاء، الاردن، مؤتمر القضايا المالية المعاصرة، ص12.

2- www.o.p.e.s./store.com 04/12/2014

3- www.questnewjoo.net

4 – مركز التمييز، مرجع سابق، ص54.

المطلب الثاني: ألية عمل التسويق الشبكي:

لتعرف على التسويق الشبكي لابد من دراسة ألية عمله بدقة ليتسنى لنا فيما بعد التحدث عن حكمه لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره وسنحاول في هذا المطلب التعرف على ألية عمل التسويق الشبكي.

1- الخصائص المشتركة لشركات التسويق الشبكي[1]:

تقوم الفكرة الأساسية لتسويق الشبكي بتجنيد الزبون نفسه لتسويق السلع ومنتجات الشركة ما يصطلح عليه بالزبون المسوّق ويقتضي هذا الأسلوب الوعي بأنك إذا وافقت على أن تكون مسوقا فإنك ستحصل بالمقابل على حوافز وعملات مالية نتيجة لشراء منتج من ناحية وتسويقه لغيرك من ناحية أخرى وكلما زاد عدد العملاء زادت العملات .

الجدول رقم 3: شجرة نمو العملاء[2].

الشهر	الأعضاء	مجموع الأعضاء	العمولة بالدولار
1	2	2	0
2	4	6	0
3	8	14	55
4	16	30	110

المصدر: أسامة عمر الأشقر، التسويق الشبكي من المنظور الفقهي، ص7.

يلاحظ من ألية التسويق الشبكي عناصر مشتركة بين جميع الشركات التي تتعامل بها الأسلوب:

1 – خالد بن محمود الجوهني، التسويق الشبكي من وجهة نظر اسلامية ، الطبعة الاولى، 1434ه، السعودية، ص 10.

2 – اسام عمر الأشقر، التسويق الشبكي من المنظور الفقهي، الطبعة الأولى، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات، المجلد الثامن، العدد الأول، الاردن، ص7.

أولا: شراء المنتج ولو مرة واحدة ويعتبر بمثابة شرط للحصول على العملات والمضي قدما في عملية التسويق

أولا:(اشتري لتسوّق، فقد تكسب)؛

ثانيا: توظيف عدد غير محدد من المسوّقين؛

ثالثا: تسديد مستحقات الاشتراك وهو شرط أساسي للانضمام إلى الشركة والحصور على موقع في شبكتها فلا يستحق زبون العمولات إذا لم يدفع رسوم الاشتراك[1]؛

رابعا: تضع جميع الشركات خطا أحمر لكبح تضخم عملات رؤساء الهرم يختلف من شركة إلى أخرى؛

خامسا: لا يمكن الدخول في عملية التسويق الشبكي إلا عن طريق مسوّق قبلك؛

سادسا: لا تهتم الشركة بالمنتجات بقدر ما تهتم بتوظيف المسوّقين؛

سابعا: الآليات وقواعد تنظيم لكل شركة وتختلف من شركة إلى أخرى (مبلغ الاشتراك + عدد العملاء + نوع المنتج).

2- أنظمة التسويق الشبكي:

تتعامل كل شركة وفق نظام محدد ولهذه الأنظمة عدة أنواع نذكر منها الأنظمة المشهورة وهي:

2-1 نظام الطبقة الواحدة: ويعني أن المسوق يقوم بتكوين شبكة أفقية من المسوقين الجدد ولا يكن هناك أي حد لعدد المسوقين الجدد الذين جلبهم المسوق الأول يقصد بالشبكة الأفقية هي الجهة الامامية frentfine وكلما كانت أكبر كان عدد بيع المنتجات أكثر، والقصد من تحديد النظام بطبقة واحدة هو تشجيع كل مسوّق على جلب أكثر عدد من المسوّقين وبهذا تصبح المنافسة بين المسوّقين الرئيسين

1 – مركز التميز، مرجع سابق، ص 25.

شديدة مادام باستطاعة كل مسوّق القيام بهذا العمل وبهذا ستجني الشركة أرباحا معتبرة من خلال هذه المنافسة.[1]

الشكل رقم 4: شكل نظام الطبقة الواحدة

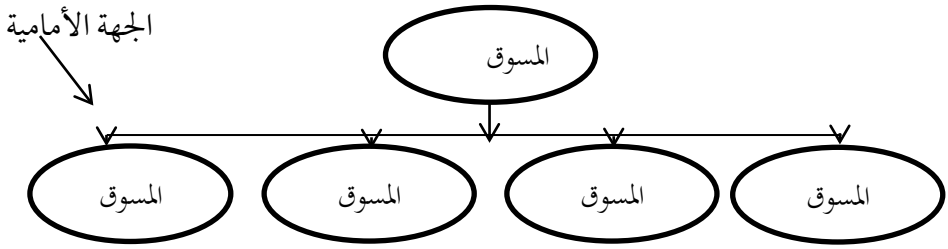

المصدر: حمزة البلوشي، التسويق الشبكي نشأته ومستقبله، ص,3

2-2 نظام المصفوفة: في هذا النظام يتقيد الموزع بعدد محدود في الجهة الأمامية وعلى المصفوفة أن تتجه في اتجاه رأسي، بإقناع أشخاص جدد لتكوين شبكتيهم الرأسية وهو نوع من أنواع التسويق الشبكي، ولمنح العمولة يشترط تحديد عدد زبائن الجهة الامامية وعدد المستويات كي لا يتضخم الشكل وبالتالي يحصد الزبون الرئيسي أموال لا تعد مثال ذلك لو قامت إحدى الشركات باستخدامك مسوّق رئيسي، وحددت لك عدد مستوى الاول ب خمسة وعدد مستويات ب خمسة أيضا لاستحقاق العمولة، حينها تقوم بالتسوّيق لخمسة أشخاص بصفة مباشرة وتقنعهم بالعمل مثلك حينها ستستريح ويقوم الزبائن الجدد بالتسويق فاذا اكتمل النصاب استحققت العمولة وسينتهي العقد بينك وبين الشركة (لعدم استغراق الأرباح بصفة كبيرة وبعد اعطاء العمولات سيسيل لعاب المسوّق الرئيسي وسيشرع في بناء مصفوفة أخرى جديدة والشكل التالي يوضح ذلك[2].

1 – مركز التميز، مرجع سابق، ص 14.

2 – حمزة البلوشي، التسويق الشبكي نشأته ومستقبله، الطبعة الاولى، 2009، ص 8.

الشكل رقم 5: نظام المصفوفة

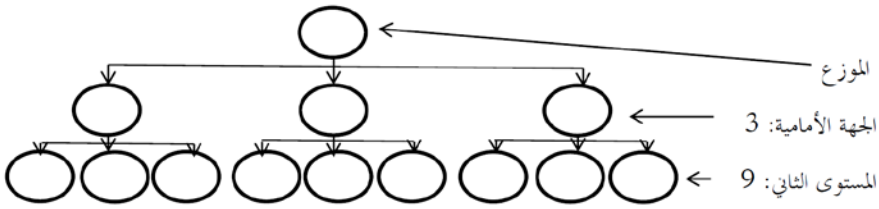

المصدر: مركز التميز، مرجع سابق، ص ,15

2-3 النظام الثنائي

فكرة النظام الثنائي كبقة الأنظمة السابقة غير أن عدد مستوى الأول يحدد بمسوقين اثنين فقط وكل من هذين المسوقين الجديدين له الحق في جلب مسوقين آخرين وهكذا، ويشترط لاستحقاق العملات توازن الجهتين اليمنى واليسرى وإذا كانت إحدى الجهتين أقل من الاخرى تحسب العمولة بأقلهما عدد ويحتفظ بالعدد المتبقي في الدورات القادمة.

ويعتبر هذا النظام من أشهر الأنظمة بيوعا وأكثرها تعاملا وتحتسب العمولات بعدد الزبائن الجدد أسبوعيا أو شهريا حسب كل شركة وتحديد الزمن له دور في كبح عدد الزبائن الجدد الذين يعتبرون شرطا لمنح العمولة لمن فوقهم في الشبكة وعليه ستبق الشركة في حالة استقرار وبعيدة عن الافلاس (تحديد العدد في فترات زمنية يعين الشركة لدفع العمولات وزيادة الأرباح) والشكل الآتي يوضح ذلك.

الشكل رقم 6: النظام الثنائي

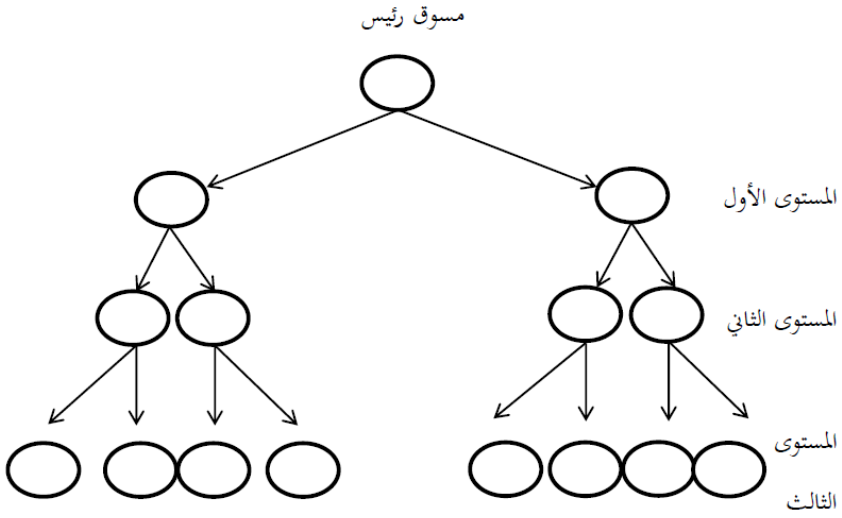

المبحث الثالث: حكم معاملة التسويق الشبكي.

في هذا المبحث سنحاول بعون الله تعالى الوقوف على حكم معاملة التسويق الشبكي من الجانب الشرعي، والوقوف على أدلة المجيزين والمانعين وتكيف هذه الحالات على معاملة التسويق الشبكي..

في هذا المطلب سنقف بعون الله تعالى على حكم التسويق الشبكي، بعد أن قمنا بدراسته وكذا ألية العمل فيه والأنظمة المعمولة به، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وهذا المطلب سيكون مربط الفرس ومحور الدراسة، بعد أن كثر الحديث وتعدد وتنوع وتباينت أقوال العلماء في حكم التسويق الشبكي وهذا بسبب اختلافهم في زوايا النظر لهذه المعاملة، فمنهم من رأى التحاق هذه المعاملة بالسمسرة المباحة، وعلى هذا المنظار بنى جواز التسويق الشبكي، ورأى آخرون بطلان التسويق الشبكي وحرمته لمّا يشتمل عليه من موانع ومحظورات شرعية تلاحظ عند التدقيق في التكيفات الواردة على هذه المعاملة.

وقبل الشروع في دراسة أدلة المجيزين وأدلة المانعين للتسويق الشبكي يلاحظ أن كلا الطرفين اتفقوا على نقاطتين أساسيتين هما:

أ-لا يجوز تسويق منتج محظور، اتفق الفقهاء على حرّمته، كبيع لحم الخنزير، والمسكرات، والخمور، أو الصور الفاضحة المخلة بالحياء، وجميع الممنوعات شرعا.

ب-لا يجوز بأي حال مدح البضاعة ووصفها بما ليس فيها، لأجل الحصول على أجر كبير.

ومع هذا الاتفاق فإنهم مختلفون في أصل المعاملة، وفي ما يلي حصر الأقوال في المسألة.

المطلب الأول: أدلة المجيزين لمعاملة التسويق الشبكي.

ذهب فريق من الفقهاء إلى جواز معاملة التسويق الشبكي، لجملة من الأدلة التي اعتبروها كافية للقول بجواز التسويق الشبكي، وفي ما يلي أدلتهم:

-يعد المسوّق في الشركة سمسارا، يأخذ أجره على السمسرة بتسويقه لمنتجات الشركة.

- يعد المشترك المسوّق وكيلا للشركة، والوكالة تصح بأجرة وبغير أجرة[1].

-إن الأرباح التي يأخذها المشترك تدخل في باب الجعالة، والجعالة تغتفر فيها الجهالة.

-إن المشترك يعمل أجيرا لدى الشركة، والإجارة جائزة بالإجماع.

-اعمالا بالقاعدة: (الأصل في العقود الحل والإباحة)، والتسويق الشبكي من العقود والبيوع الجديدة التي لم يأت نص من الكتاب ولا السنة بمنعها، فتردّ على أصلها من الإباحة.

1 - خالد بن محمود الجهني، التسويق الشبكي من وجهة نظر إسلامية، ص21.

- إن الثمن الذي يدفعه المشتري في الظاهر هو مقابل السلعة، والعمولة التي يأخذها في مقابل جهد التسويق وتعبه، فما دامت السلعة قد توسطت فلا قمار ولا ربا.

-يعد التسويق الشبكي مجرد هبة، فوهبت الشركة جزءا من أرباحها للمشترك عندها، والهبة جائزة في الإسلام.[1]

-إن العمل في التسويق الشبكي عمل شاق فيه تعب ونصب، وعليه يستحق المسوّق فيه العمولات الممنوحة له، وحتى ولو سلّمنا بعدم اعتبار الجهد والتعب، فلا يحرم المسوّق من العمولات من أجل ذلك، ولا تعد العمولات من أكل أموال الناس بالبطل، بسبب عدم العمل، لأن الإنسان قد يحصل على مال مباح من غير نصب ولا تعب، شأن الهبة والميراث.

-ليس في التسويق الشبكي غرر ولا جهالة، فالعمولات تجب وتلزم إذا تحقق عدد من المبيعات المعينة، مثال ثلاث من اليمين ومثلها من اليسار، إضافة إلى أن ثمن السلعة حقيقي ليس مبالغا فيه، والأمر الآخر إن الشركة أعطت للمشترك خيار أن يشتري دون أن يسوّق.

-يستحق المسوّق عمولة كقياسه مع مالك الدكان وتاجر الجملة، حيث يستفيدان من تاجر التجزئة بأخذ أجرة المحل وقيمة البضاعة، وكذلك المسوّق الأول يستفيد من شراء الذي بعده، لأنه أسس له الطريق والشبكة.

-إن المنتج في التسويق الشبكي منتج حلال، يلبي حاجات ورغبات الناس، وليس في الشركات منتجات محرّمة، فلا وجه للتحريم.

-إن كل تاجر يريد الكسب والمال، وكذلك المشترك في التسويق الشبكي ينبغي أن لا ينكر عليه رغبته في الكسب والمال.

1 - المرجع نفسه، ص22.

-إن ما تعطيه الشركة من مكافآت على انضمام الزبائن إلى الشركة ، شبيه بجزاء الله تعالى على الأعمال الصالحة، فهو يؤتي الناس أجورهم على أفعالهم التي يباشرونها وعلى أفعال من سلك مثل طريقهم، خيرا أم شرا .

المطلب الثاني: أدلة المانعين للتسويق الشبكي.

-سنحاول بتوفيق الله عزّ وجل الوقوف على أدلة المانعين للتسويق الشبكي وهذا ما ذهب إليه الكثير من أهل العلم فمنهم اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية ومجمع الفقه الإسلامي بالسودان ودار الإفتاء بحلب وكذا لجنة الفتوى بمركز الإمام الألباني للدراسات ومركز الفتوى بالشبكة الإسلامية القطرية ومن الفقهاء الدكتور إبراهيم الضرير والدكتور بندر بن صقر الذيابي والدكتور علي محي الدين القره داغي والدكتور سلمان العودة والدكتور حسين الشهراني والدكتور أسامة عمر الأشقر والشيخ محمد المنجد والدكتور عبد الله الركبان والدكتور رفيق يونس المصري والكثير منهم ويمكن حصر أدلتهم في ما يلي:

1-إنّ الشريعة مبينة على العدل والقسط والمساوة بين المتعاقدين ومنع الجور والظلم لأي طرف، والتسويق الشبكي يتنافى مع هذه المقاصد، فيظهر الدليل بأن الشريعة مبينة على العدل والقسط ومنع الجور والظلم، فإذا وجد سبيل و طريق للكسب يتنافى مع هاته القيم والركائز منعت الشريعة ذلك وحرّمته، والتسويق الشبكي يناقض هذه القيم ففيه ظلم وأكل لأموال الناس بالباطل و تغرير للناس من أجل الانضمام فإذا انضموا أكل أولهم مال آخرهم وعلى ما منعته الشريعة وحذرت منه.

2ل-إحتواء معاملة التسويق الشبكي على الغرر المحرم[1] المؤدي إلى غبن المسوّق، فقد يتمكن من جلب العدد المطلوب من المسوّقين وقد لا يتمكن وهذا هو عين الغرر، فيبين هذا الدليل أنّ معاملة التسويق الشبكي فيها غرر ، والغرر كما هو

1- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الغرر وحبل الحبلة الحديث رقم 70/2143،3.

معلوم محرّم وهو الأمر الذي يتردد بين الحصول وعدمه، وذكر بأنه: اغراء العاقد وخديعته ليقدم على العقد ظنا منه أنه في مصلحته، والواقع خلاف ذلك[1].

وكما هو ملاحظ في حقيقة التسويق الشبكي بأن المنخرطين يجهلون عدد ما يمكنهم إقناعهم من المسوّقين الجدد، وعليه يجهلون قيمة ما سيحصلون عليه من عمولات فهم لا يدرون في بداية العقد هل سينجحون في تحصيل العدد المطلوب أم لا؟، والتسويق الشبكي مهما استمر فإنه لابد أن يصل إلى نهاية يتوقف عندها، ولا يدري المشترك حين انضمامه إلى التسويق هل سيكون في الطبقات العليا منه فيكون رابحا أو في الطبقات الدنيا فيكون خاسرا، والواقع أن معظم أعضاء الشبكة خاسرون إلا الفئة القليلة في أعلاها، فالغالب إذن هو الخسارة وهذه هي حقيقة الغرر وهي التردد بين أمرين أغلبهما أخوفهما، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغرر.

وتظهر صورة الغرر في شكاوى كثيرة من الناس المشتركين الذين غرر بهم فدفعوا الأموال الباهظة ولم يستطيعوا استرجاعها وبعد أن علموا وانتبهوا أنهم كانوا في عملية نصب واحتيال وايهام بالثراء، فكم من شاب فقد ماله بعد أن باع سيارته أو أرضه، أو استدان مبلغ الاشتراك على أمل ارجاعه وزيادته عند منح العمولات ولكن كان ضربا من الوهم، والشريعة ترفض المعاملات التي تسبب ضررا للمتعاقدين كالجهل بمقدار المعقود عليه أو الجهل بثمنه أو عدم القدرة على تسليمه، والغرر ممنوع لأنه يؤدي إلى الاختلاف والتنازع وزرع الأحقاد، ولا يقبل أن يقال إنه قد تم ابرام التسويق الشبكي بتراضي العاقدين فلا غرر في ذلك فهذا لا يجوز لأن التراضي لا يحل ما حرّم الله، والرضا هنا لا يتصور وجوده، كما أنّ الرضا لا يحصل على مجهول، وإنما يقع التراضي على علم ودراية، وما لا سبيل الى التراضي به فلا يحل بيعه[2]

1 – الصديق محمد امين الضرير، الغرر في العقود وأثاره في التطبيقات المعاصرة، المعهد العالمي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامين جدة المملكة العربية السعودية ، 1414ه، ص10.

2 – أحمد سمير القرني، مرجع سابق، ص17.

3- تحتوي معاملة التسويق الشبكي على القمار المنهي عنه شرعا، ذلك لأن المسوّق يدفع مالا محققا مقابل أن يحصل على مبلغ أكبر منه معلق هذ الأمل على التوقع والحظ، وحتى يتضح ذلك أكثر لا ينال المسوّق عمولة إلا إذا تمكن من إقناع عدد محدد من المسوّقين الجدد، وعليه فدائما الطبقات الأخيرة مخاطرة ومقامرة، لأنها تدفع عمولات قمة الشبكة على أن ترتفع هي وتتدرج في الشبكة، ولا يتحقق ذلك إلا باستقطاب أعضاء جدد ليكونوا مستويات دنيا لهم، وبالتالي تكون الطبقة الجديدة هي المعرضة للخسارة، فالتعرض للخسارة في البداية للدخول في نظام التسويق الشبكي لابد منه ولا مفر عنه، ولا يمكن في أي لحظة من اللحظات أن يصبح الجميع رابحا، وإنما يربح القليل مقابل مخاطرة العدد الأكبر .

وقد وردت فتاوى كثيرة للعلماء و المراكز العلمية والمجامع الفقهية، تقضي بحرمة التسويق الشبكي لعلة القمار كون صورته واضحة في هذه المعاملة.[1] .

وعليه فمبنى العملية كلها مؤسّس على الحظوظ[2]، إذ إنّ الرسوم التي تدفع للانخراط في الشركة شرط للدخول في الشبكة وأخذ موقع ضمن الشبكة ولا يكون ذلك إلا بالدفع المحقق والمقابل متوقع، وبالتالي لا يختلف تكييف التسويق الشبكي عن القمار الذي منعته الشريعة إذ هو دفع مال مقابل الحصول على منافع غير متحققة ولا مستحقة بجهد يبذله الدافع، فقد ينجح في كسب زبائن وقد يعجز عن ذلك، فتذهب أمواله أدراج الرياح، والدليل على أن الرسوم الذي تدفع سواء رسما أو شراء منتج تتناسب ومستوى الأرباح التي يرغب الزبون الحصول عليها كما هو الحال في شركة أوبيس وعلى هذا فالمعاملة فيها قمار الرابح فيها الشركة والمسوّقون الموجودون في أعلى الشبكة، بينما الخاسرون هم الموجودون في المستويات السفلى من الشبكة. ولا يخفى على أحد ما جاء في النصوص من نهى عن القمار ومنها قوله تعالى:(يأيها الذين

1 - مركز التميز، مرجع سابق، ص28.

2 - ابن تيمية، مجموع فتاوي ابن تيمية،ج19ص283.

آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)[1].

4-عند ملاحظة جوهر معاملة التسويق الشبكي يلاحظ أنّ ماهية المنتج تافهة وأما قيمته باهظة، مما يسبب غبنا للمسوّقين الجدد في أدنى الشبكة، ويلاحظ أنّ التركيز منصب على مقدار العمولات الممنوحة، فهذا تحايل على الشريعة لتلاعب على أحكامها، ومما هذا فيقتضي تحريم المعاملة.

5- معاملة التسويق الشبكي أكل لأموال الناس بالباطل، وكما ذكرنا سابقا أنه لابد من خسارة عدد كبير من المسوّقين في مقابل ربح عدد قليل من المسوّقين المتربعين في أعلى الشبكة، فتلك الوعود بالعمولات للطبقات الأخيرة لا حقيقة لها على أرض الواقع فبأي حق تأكل هذه الشركات أموال المسوّفين الجدد[2].

وعليه لا يستفيد من معاملة التسويق الشبكي إلا الشركة ومن هم في أعلى الشبكة وهذا الذي جاء فيه النهي لقوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيما)[3]

وأكل أموال الناس بالباطل واضح جليّ، ذلك أنّ نظام التسويق الشبكي غير قابل للاستمرار وأنه آيل إلى التوقف لا محالة وحينئذ يكون أعضاء الطبقات الأخيرة قد دفعوا رسوما لاشتراك واشتروا منتجات لا يرغبون فيها بحد ذاتها ودون التمكن من الاستفادة من العمولات الموعودة.

6- تحتوي معاملة التسويق الشبكي على الربا بنوعيه ربا الفضل وربا النسيئة مما يوّدي إلى تحريم المعاملة[4].

1 - سورة المائدة، الآية 90.

2 - المرجع نفسه، ص31.

3 - سورة النساء، الآية 29.

4 - مركز التميز، مرجع سابق، ص31.

وربا الفضل وهو الزيادة في مبادلة مال ربوي بمال ربوي من جنسه، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع[1] .

وأما ربا النسيئة فهو التأخير في بيع كل جنسين اتفقا في علة ربا الفضل..

وقال الامام النووي عليه رحمة الله:" وأجمعوا على أنه لا يجوز بيع الربوي بجنسه وأحدهما موّجل، وعلى أنه لا يجوز التفرق قبل التقابض إذا باعه بجنسه أو بغير جنسه مما يشاركه في العلة كالذهب بالفضة والحنطة بالشعير."

وعليه يمكن القول بأن التسويق الشبكي يتضمن الربا بنوعيه، ربا الفضل وربا النسيئة، وبيان ذلك إن المسوّق يدفع نقودا حالة وهو يهدف إلى الحصول على أكثر موّجلة واستنادا للتعريف فهذا عين ربا الفضل(التفاضل وزيادة المال). وأما ربا النسيئة (فتأخير التقابض)، وقد جاء في نص فتوى للشيخ محمد بن صالح المنجد:" وأهم المحاذير في هذه المعاملة أنها مبينة على الربا على الأقل من جهة المشتري وذلك إذا كان يريد النقد (المكافأة) لا السلعة، فيجتمع فيها الربا ربا الفضل لأجل الزيادة، وربا النسيئة لأجل التأخير."

وأما عن قولهم أن المنتجات قد توسطت فلا معنى له لأن ثمن الذي يدفع للشركة ليس هو مبلغ السلعة الحقيقي، والمنتجات في التسويق الشبكي ليست مقصودة لذاتها وإنما لتحقق للشركات عدة أهداف منها إعطاء واجهة سلعية مقبولة لتبني عليها الترخيص النظامي لمزولة النشاط في الدولة ولمراعاة الحالة النفسية للمشتركين وإيهامهم بأنهم يزاولون عملا منتجا مفيدا، والأصل خلاف ذلك[2].

7-حرّم الاسلام الإنتاج الذي يحقق مصلحة الفرد ويضر بمصلحة الجماعة، وهذا ما يحدث في التسويق الشبكي فقد حرم الإسلام الربح عن طريق استغلال حاجة المعوزين أو استغلالهم أو الحاق الضرر بهم، والأدلة متضافرة على تحريم إلحاق

1 - ابن همام، فتح القدير، مرجع سابق،ج7،ص4.

2 - صحيح مسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: من غشنا فليس منا) رقم الحديث:99،101/1.

الضرر بالأخرين، ومن ذلك أمره صلى الله عليه وسلم بقلع نخلة فيها ضرر للآخرين، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :(لا ضرر ولا ضرار)[1].

واستنادا لما ذكر فيلاحظ أنه لا ينبغي أن يتضرر أي شخص في أية معاملة، والملاحظ في معاملة التسويق الشبكي أن المسوّقين في أواخر الشبكات يتضررون، وذلك بإعطاء أموالهم عمولات للمتربعين في أعالي الشبكات.

8- يشبه التسويق الشبكي بيع العينة إلى حد كبير، مما يجعل المعاملة محرّمة أو في دائرة الشبهات التي ينبغي على الإنسان أن يبتعد عن مواطنها ما استطاع[2]. .

وأوجه التشابه بين التسويق الشبكي وبين بيع العينة أن كلا العاقدان لم يردا العقد وإنما أرادا النتيجة المحظورة، ففي عقد العينة لم يكن المشتري يريد شراء الغرض الذي اشتراه ولم يكن البائع يريد الغرض الذي باعه، لأنه بعد الحصول على المال سيعود إلى شراه بأكثر مما باعه فالمقصود هو المال وليس صورة البيع المزعومة، وعليه فكل من العاقدين لم يقصدا العقد بل قصدا ما يحصل لهما من العقد، والدليل على ذلك أن مقصود المسوّق هو البرنامج والاشتراك فيه وليس المنتج الذي لم يكن ولن يكون مقصودا

وعليه وجود قصد يخالف مقتضي العقد فهو باطل، وهذا هو محل التشابه بين بيع العينة والتسويق الشبكي.

9-للتسويق الشبكي مألات ضرورية لا مناص منها ولا مفر عنها وهي محرّمة منهي عنها[3]، والأمر الذي تنجر منه هاته الأمور الوخيمة ينبغي منعه ووقفه و تتجلى في الأمور التالية:

1 - أخرجه ابن ماجه في سننه، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، حديث رقم 2341 ج2، ص784.

2 - جمهور الفقهاء بخلاف الشافعية والظاهرية أن بيع العينة محرم.

3 - مركز التميز، مرجع سابق، ص66.

-هدر مال المسوّق الذي دخل في النظام ولا يدري هل سيأخذ مقابل ذلك أم لا؟

-تفشي ظاهرة القمار والرهان و والولوج في هاته المعاملات والعقود قصد الربح السريع.

-انتشار البطالة وانتشار أفكار الربح السريع التي تعود على المجتمع بالخسارة والوبال.

-كبح الطاقات والمواهب والابداعات وبتالي كبح الانتاج والمردودية.

-انتشار الاحتيال والخداع وتغرير الناس.

وكل ما ذكر وأكثر جراء انتشار التسويق الشبكي، ومن باب سد الذرائع وجب تحريم هذه المعاملة.

10-تعتمد معاملة التسويق الشبكي على الغش والخداع والتلبيس على الناس من أجل اغرائهم لدخول في هذا النظام وذلك بإغرائهم بالعمولات الممنوحة لهم والتي لا تتحقق غالبا، ومقدار العمولات التي وعدوا بها تستهوي أصحاب النفوس الضعيفة وأصحاب الدخل الضعيف، وتغريهم بالدخول إلى هاته الشركات وهذا لا يكون إلا باستعمال الشعارات والعناوين البراقة وأقوال لبعض أغنياء العالم، وكل هذا من الغش المنهي عنه شرعا ولحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم:(من غّش فليس مني)[1].

11-ينتج عن التسويق الشبكي أضرار اقتصادية ومالية تعود على الفرد والمجتمع على حد سواء[2]، فيعود الضرر على الفرد حين يدخل المسوّق إلى احدى شركات التسويق الشبكي ويكون في الطبقات الأخيرة أو لا يتمكن من إقناع العدد المطلوب فيضيع ماله وهذا ضرر بليغ خصوصا وأنّ ثمن الاشتراك كبير، وغالبا ما يكون هؤلاء ذوى الدخل المحدود ومن ليس لهم القدرة على الدخول في مشاريع

1 - حديث سبق ذكره.

2 - أسامة عمر الأشقر، مرجع سابق، ص12.

تجارية وهم عموما غير راضين عن مستوى معيشتهم ويرغبون في تحسينه بأي فرصة سانحة وعليه فيتم التغرير بهذه الفئة واستخدام عوزهم وبأسهم وحاجتهم في دفعهم لرسوم الاشتراك على أمل الحصول على أموال طائلة أو ثراء سريع غير مكلف وبه فقد تم الاثراء على حساب الفئة المعوزة التي لو تركت دون تغرير لما أقبلت على شراء هذا المنتج بذلك السعر المرتفع الذي قد يفوق حجم قدارتها المالية.

وأما عن الضرر الذي يلحق بالاقتصاد الوطني حين يبلغ رأس مال بعض الشركات الملايين من الدولارات في فترة وجيزة وهذا المقدار من المال الذي تملكه هذه الشركات يكبل الاقتصاد ويمنع التنمية خصوصا حين لا تكون هناك سلع حقيقية بل سلع ثانوية صورية فحسب.

الترجيح: بعد عرض أدلة الفريقين ومناقشتها وملاحظة منهاجهم في الاستدلال، يتبين للباحث منع وحرمة التعامل بالتسويق الشبكي وذلك لقوة أدلة المانعين كما سبق ذكره وبيانه في معرض الوقوف على الأدلة ولما ذهب إليه الكثير من أهل العلم في مقابل ضعف أدلة المجيزين للتسويق الشبكي وعدم سلامة أدلتهم من المناقشة، وعليه يحرم التعامل مع شركات التسويق الشبكي بكل أشكاله، سواء أكان التعامل معها بهدف الاستفادة من نظام العمولات أم كان ذلك بهدف الاستفادة من المنتجات أو السلع.

قائمة المصادر و المراجع:

1. ابراهيم أحمد الشيخ الضرير، التكيف الفقهي لشركات التسويق الشبكي شركة بزناس، الطبعة الاولى، مركز الكلم الطيب للبحوث والدراسات، 2002.

2. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار الحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

3. أبو فأرة يوسف، استراتيجية التجارة الالكترونية ، الفوائد المادية في التسويق على الانترنت، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمة، بيروت لبنان.

4. أحمد سمير القرني، حكم التسويق بعملة هرمية، دراسة فقهية وقانونية مقارنة، الطبعة 1، دار النفائس، الإمارات العربية، الشارقة،2011.

5. أسامة عمر الأشقر، التسويق الشبكي من المنظور الفقهي، الطبعة الأولى، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات، المجلد الثامن، العدد الأول، الأردن.

6. أنور سلطان، مصادر الالتزام، الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

أنيس، ابراهيم وأخرون، المعجم والوسيط، الطبعة الثانية، دار الحياء التراث العربي، القاهرة، 1972.

7. بحوث ندوة التميز الفقهية، التسويق الشبكي،مركز التميز للبحوث والدراسات الاقتصادية، العدد الاول، الجزائر، 2014.

8. بندر بن صقر الذيابي، التسويق الشبكي تكييفه وأحكامه الفقهية، أطروحة ماجيستر، المعهد العالي للقضاء، الفقه المقارن، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، 1425- 1426ه.

9. تشويش المحاميد، السمسرة الهرمية، بحث مقدم لمؤتمر قضايا مالية معاصرة من منظور كلية الشريعة، جامعة الزرقاء الاهلية، الأردن، 2004.

10. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية ،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، 1979.

11. حليمة آيت سعدي، نظرية الباعث في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، الطبعة الثانية ، بيروت، 1988.

12. حمدي محمد بن صالح، التسويق الشبكي مفهومه وأثاره وحكمه الشرعي، شركة opes نموذجا.
13. حمزة البلوشي، التسويق الشبكي نشأته ومستقبله، الطبعة الاولى، 2009.
14. خالد بن محمود الجهني، التسويق الشبكي من وجهة نظر إسلامية ، الطبعة الاولى، 1434ه، السعودية.
15. الدبوسي، أبي زيد عبيد الله بن عمر، تحقيق خليل محي الدين، تقويم الأدلة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت،2001.
16. ذيب موسى ناصيف، التجارة الالكترونية(دراسة خاصة من biznaz)، جامعة الزرقاء، الأردن، مؤتمر القضايا المالية المعاصرة.
17. الرازي محمد، مختار الصحاح، دار المعارف، القاهرة، مصر.
18. شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول، الطبعة الأولى، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، القاهرة، 1393ه.
19. الصديق محمد أمين الضرير، الغرر في العقود وآثاره في التطبيقات المعاصرة، المعهد العالمي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي، جدة، المملكة العربية السعودية،1414
20. عبد المنعم فرج العدة، عقود الإذعان في التشريع المصري، الطبعة الأولى، القاهرة، 1946.
21. على حسن عبد المجيد الحلبي، تعريف عقلاء الناس بحكم معادلة بزناس، دار الجنان جامعة الزرقاء، الأردن.
22. منير نوري، التسويق مدخل المعلومات والاستراتيجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، بن عكنون الجزائر.
23. مسلم بن الحجاج القشري، صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
24. نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي، شرح مختصر الروضة، الطبعة الأولى، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة.
25. نضال إسماعيل برهم، أحكام عقود التجارة الإلكترونية، الطبعة الأولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2005.
26. نضال سليم برهم، أحكام عقود التجارة الإلكترونية، الطبعة الأولى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن،2005.
27. يوسف أبو الحجاج، التجارة عبر الانترنت، الطبعة الأولى، 2010، دار الوليد للدراسات والنشر والترجمة، دمشق سوريا.
28. يوسف أبو الحجاج، مهارات وفنون إدارية لتجارة عبر الانترنت، الطبعة الأولى، دار الوليد، سوريا 2010.

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية

علي حسيني
طالب دكتوراه / جامعة غرداية
أ.د. بوزيد كيحول / جامعة غرداية

الملخص:

إن سياسة التجريم التي ينتهجها المشرع الإسلامي تتميز بخصائص جوهرية تهدف أساسا إلى التأكيد على شموليتها وسموها عن باقي التشريعات الأخرى، سواء السماوية منها أم الوضعية، وتتجسد أهم هذه الخصائص في تدرج التشريع الجنائي الإسلامي من جهة، واقتصاره على الكليات دون الجزئيات والعموميات دون الخصوصيات من جهة ثانية. فالنظام الجنائي الإسلامي جزء من الشريعة الإسلامية التي تقوم على أساس الدين، و الذي يكفل للنظام الجنائي قوة وفاعلية لارتباطه بعقيدة المسلم ووجدانه الديني، فإذا كان الهدف من تجريم بعض الأفعال ووضع العقوبات لها هو رعاية مصالح المجتمع، فإن الشريعة الإسلامية تتميز باتساع دائرة رعاية هذه المصالح، فتعمق جذور الصلة بين الإنسان وخالقه –جل شأنه– أولا، وبين الإنسان ومجتمعه ثانيا، وهذا ما تفتقده نظرة المجتمع إلى القوانين الوضعية، مما أدى إلى انتشار الجرائم، واعتياد الإجرام، فالشريعة الاسلامية شريعة ربانية المصدر، كاملة شاملة لشؤون الحياة صغيرها وكبيرها، عالمية متكاملة موافقة للفطرة، صالحة لكل زمان و مكان. قامت على أصول و قواعد عظيمة روعي فيها جلب المصالح و تكثيرها و درء المفاسد و تقليلها، فحققت الأمن و السعادة وأقامت العدل كما ينبغي أن يكون. و الحقيقة التي قامت عليها السياسة الجنائية مبدأ التجريم والذي هو جوهر النظام الجنائي و لهذا لابد أن نلفت الانتباه إلى أن مبدأ " لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص " هو مبدأ إلهي.

Résumé:

La politique de criminalisation du législateur islamique se caractérise par des caractéristiques fondamentales visant principalement à confirmer son inclusivité et son altesse aux autres lois, que les célestes ou le statut. Le plus important de ces caractéristiques incarnent au graduation de la législation pénale islamique d'une part, et les limites aux lois globales sans détails et les généralités sans conditions particulières d'une autre part. Le système pénal islamique fait une partie de la loi islamique, qui est fondée sur la religion, ce qui assure le pouvoir judiciaire et l'efficacité du système pour son association avec la doctrine de la conscience religieuse musulmane, Si le but de la criminalisation de certains actes et imposer des sanctions est la prise en charge des intérêts de la société, la loi islamique se caractérise par une large soin des intérêts et le but peut-être d'approfondir les racines du lien entre l'homme et son créateur d'abord, et entre l'homme et sa société deuxièmement, et c'est ce qui manque dans la perception de la société des lois positives, ce qui a conduit à la propagation de la criminalité et la criminalité habituelle, la loi islamique est la source divine, parfaite pour toutes besoins de la vie petits et grands universalité, intégré valable pour tous les temps et les lieux. Les actifs et les grandes règles prennent en compte les intérêts et sa multiplication et aussi de conjurer et réduire le mal, la sécurité ainsi obtenu, le bonheur et la justice mis en place comme il devrait être. La vérité que la politique pénale a était basée sur est le principe de la criminalité, qui est l'essence même du système de justice pénale; pour cela il faut attirer l'attention au principe selon lequel « aucune sanction ne peut criminaliser et aucune crime sauf le texte» est le principe de divin.

مقدمة:

إن الشريعة الاسلامية شريعة ربانية المصدر، كاملة شاملة لشؤون الحياة صغيرها و كبيرها، عالمية متكاملة موافقة للفطرة، صالحة لكل زمان و مكان. قامت على أصول و قواعد عظيمة روعي فيها جلب المصالح و تكثيرها و درء المفاسد و تقليلها، فحققت الأمن و السعادة و أقامت العدل كما ينبغي أن يكون. فشرع الله سبحانه العقوبات في الإسلام لحكم عظيمة منها: رحمة العباد .. وتحقيق المصلحة لهم .. ودرء المفسدة عنهم. وبذلك يحصل لهم كل خير، ويندفع عنهم كل شر، وتحصل الحياة والسعادة في الدنيا والآخرة. [1] و المتتبع للتشريع الاسلامي يجد أن الاسلام لا يحرم شيئا فيه منفعة صرفة للامة أو منفعة تغلب ضرره و تفوته .. و الناظر في الجرائم يرى أنها مضرة سواء كان هذا الضرر عقديا أو خلقيا، صحيا أو اقتصاديا، فرديا أو جماعيا، أو غير ذلك مما يقتضي حال البشرية أو المجتمع المثالي الحفاظ عليه و صيانته بكل ما يلزم تجاهه و تدارك المفاسد و الاضرار التي تلحق به و عدم التفريط فيه[2]. و الباحث يجد أن الغاية من العقوبات تجمل في أربعة أشياء: حفظ المصالح، رحمة المجتمع، إقامة العدل، إصلاح الجاني.

1. حفظ المصالح: حفظ الكليات الخمس أو الست

2. رحمة المجتمع: " و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" " و لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب" " الذي أطعمهم من جوع و ءامنهم من خوف" [3] .

3. إقامة العدل: لا بد من عقوبات تمنع الفوضى و تحفظ الحقوق، حديث: عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ قُرَيْشًا، أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ قَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى

1 – موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، بيت الأفكار الدولية، ط: 1، 1430 هـ – 2009 م، ج 5، ص 12.

2 – آثار تطبيق الشريعة في منع الجريمة، محمد بن عبد الله الزاحم، دار المنار . القاهرة، ط 1، 1412هـ ، 1991م، ص 31.

3– المرجع السابق، ص 101.

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

4.إصلاح الجاني: العقوبات جاءت:

أ: لتجتث عضوا فاسدا في المجتمع لا سبيل إلى إصلاحه، و بقاؤه سيكون مصدرا لشيوع الفاحشة و الفساد في المجتمع (و تصديق هذا القول أن أصحاب السوابق هم أول المتهمين)

ب : لمعالجة و إصلاح العضو المريض الذي يمكن ان يكون صالحا في المجتمع[2].
فلو نظرنا الى البغاة و المحاربين الباحثين عن شهوة السلطة التي هي أعلى من شهوة الولد و الزوجة ... قبل التوبة يقطع دابرهم و إن تابوا قبل مسكهم فهذا دليل على حسن رجوعهم عما هم فيه فهنا العقوبة اخف من ذي قبل ...و لنتأمل في البيعة النبوية: أن عبادة بن الصامت، من الذين شهدوا بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه ليلة العقبة أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وحوله عصابة من أصحابه: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا

1 – السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تح: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 1، 1421 هـ – 2001 م.ج 7، ص 16، رقم: 7345. و في البخاري: عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة من بني مخزوم سرقت، فقالوا: من يكلم فيها النبي صلى الله عليه وسلم؟ فلم يجترئ أحد أن يكلمه، فكلمه أسامة بن زيد، فقال: «إن بني إسرائيل كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، لو كانت فاطمة لقطعت يدها»، رقم 3733، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،باب ذكر أسامة بن زيد.

2 – آثار تطبيق الشريعة في منع الجريمة، محمد بن عبد الله الزاحم، دار المنار . القاهرة، ط 1، 1412هـ ، 1991م، ص 103.

فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه» قال: فبايعته على ذلك[1].

و لأجل هذه الحكمة الناصعة في التشريع و الأهمية البالغة لوجود العقوبة، كانت كتابة هذه الأسطر حول سياسة التجريم التي انتهجتها الشريعة و التي على أساسها تكون المواخذة ثم العقاب، و قد جاء هذه البحث تحت عنوان سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية (المفهوم والخصائص) و قد انتظم البحث في تمهيد و مبحثين:

المبحث الأول: و فيه مفهوم سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني: خصائص سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية.

مبحث تمهيدي

المتتبع للفقه الإسلامي في شتى مجالاته، وعلى الأخص في مجال التجريم والعقاب يجد أنه قد وصل بالناس إلى بر الأمان يوم حكمهم، وقضى بينهم بقضائه العادل، ومبادئه القويمة الرشيدة. وليس ذلك من باب العاطفة الدينية التي لا يقوم عليها دليل، وإنما الدليل واضح نطق به إنسان غير مسلم يوم قال للخليفة عمر قولته المشهورة: حكمت فعدلت، فأمنت فنمت يا عمر. و ما كان سيدنا عمر –رضي الله عنه– إلا قاضيًا بين الناس بقانون العدل وقضائه، منفذا لتعاليم الإسلام ، ولم تكن لديه هذه الكثرة الكثيرة من السجون التي تعج بمن فيها من مجرمين عائدين محترفين، أن حال الأمة الإسلامية الآن ينادي بأعلى صوته. يطلب عودة إلى ما كانت الإمة عليه يوم لم يكن فيها مسجون، ولا سجن ولا مظلوم، ولا مهضوم، واستوى الناس فيها أمام حكم الإسلام، فاقتص عمر لأحد رعاياه من حاكم مصر، وجلس علي وهو خليفة المسلمين بجوار يهودي أمام قاض من رعية علي و محكوميه، ويطلب القاضي من علي البينة، والدليل على كل ما يقول.[2]

1 – البخاري، باب وفود الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وبيعة العقبة، رقم: 3892.

2 – الشبهات وأثرها في العقوبة الجنائية في الفقه الإسلامي مقارنا بالقانون المؤلف: منصور محمد منصور الحفناوي الناشر: مطبعة الأمانة الطبعة: الأولى 1406هـ – 1986م ص 7

المطلب الأول: تعريف الجريمة لغة

الجريمة والجرائم لغة: الذنب، تقول منه جرم وأجرم وأجترم وجرم أيضًا: كسب، وبابهما ضرب.

وجاء في تفسير قوله تعالى: {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا}(المائدة:8) أي: لا يحملنكم بغض قوم ... أو لا يكسبنكم ...

وقوله تعالى: {قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا} (سبأ:25) أي: عما اكتسبنا.

والإجرام مصدر أجرم، وهو اقتراف السيئة، قال تعالى: {قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي} (هود:35) أي: عقوبة إجرامي، أو جزاء جرمي وكسبي.

فالجرم يستعمل بمعنى الذنب، ويستعمل بمعنى كسب الآثم.

وكثيراً ما يعبر الفقهاء عن الجريمة بلفظ الجناية

الجَرِيرَةُ: الْجِنَايَةُ وَالذَّنْبُ[1]

الجِنَايَةُ: الذَّنْبُ والجُرْم وَمَا يَفْعَلُهُ الإِنسان مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِ الْعِقَابَ أَو الْقِصَّاصَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[2]

المطلب الثاني: الجريمة في الفقه الإسلامي:

الجرائم في الشرع: هي محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير، ولها عند التهمة حال استبراء تقتضيه السياسة الدينية، ولها عند ثبوتها وصحتها حال استيفاء توجبه الأحكام الشرعية[3].

والمحظورات الشرعية: هي عصيان أوامر الله تعالى ونواهيه، فعصيان النواهي جرائم إيجابية؛ لأنها فعل ما نهى الله تعالى عنه، كالقتل أو الزنا، وعصيان أوامره

1 – لسان العرب، ابن منظور، فصل الجيم ، دار صادر – بيروت ، ط: 3، 1414 هـ، ج 4، ص 129.

2 – لسان العرب ، ابن منظور، فصل الجيم ، ج 14، ص 154.

3 – الأحكام السلطانية، الماوردي أبو الحسن علي، دار الحديث – القاهرة، ص 192

جرائم سلبية؛ لأنها امتناع عن أداء ما أوجبه الله سبحانه وتعالى، كترك الصلاة، ومنع الزكاة.[1]

والحدود زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر، وترك ما أمر به؛ لما في الطبع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة، فجعل الله تعالى من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذرًا من ألم العقوبة، وخيفة من نكال الفضيحة؛ ليكون ما حظر من محارمه -جل شأنه- ممنوعًا، وما أمر به من فروضه متبوعًا، فتكون المصلحة أعم والتكليف أتم، وتتحقق الرحمة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} أي: في استنقاذهم من الجهالة، وإرشادهم من الضلالة، وكفهم عن المعاصي، وبعثهم على الطاعة، وتحقيق مصالحهم الحقيقية في الدارين[2]. والجريمة بهذا المعنى إنما تكون إذا شرع الله تعالى للمحظور عقوبة، وما لم يشرع له عقوبة لا يكون جريمة.

وذلك لأن التشريع الإسلامي جاء بأمور ثلاثة: إصلاح العقائد، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح علاقات الإنسان بربه -جل شأنه- وبالمجتمع الذي يعيش فيه أفرادًا جماعات، أحياء أو أمواتًا، وبالكائنات الأخرى، وفي كل مجال من هذه المجالات أحكام إما أوامر توجب عملًا من الأعمال أو نواهي توجب تركًا من التروك أو تحظر فعلًا من الأفعال، وهي في كل ذلك تشرع للناس ما يحقق مصالحهم بجلب النفع لهم، ودرء الضر عنهم، حتى يعيش المجتمع آمنًا مطمئنًا مستقرًّا لا يعكر صفوه شاذ أو ناد، أو متهور أو أناني[3].

و الهدف من تجريم بعض الأفعال ووضع العقوبات لها هو رعاية مصالح المجتمع، فإن الشريعة الإسلامية تتميز باتساع دائرة رعاية هذه المصالح، وربما تهدف إليه من تعميق

1- الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون ، حسن علي الشاذلي، دار الكتاب الجامعي، ط 2، ص12

2 - الأحكام السلطانية للماوردي، ص 325

3 - الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي و القانون، حسن علي الشاذلي ، ص13

جذور الصلة بين الإنسان وخالقه –جل شأنه– أولا، وبين الإنسان ومجتمعه ثانيا، وهذا ما تفتقده نظرة المجتمع إلى القوانين الوضعية، مما أدى إلى انتشار الجرائم، واعتياد الإجرام، وأدى هذا بدوره إلى إقلاق الأمن ووأد الطمأنينة في ظل هذه القوانين[1]

المطلب الثالث: الشرعية الجنائية

التجريم باعتباره أحد أهم العناصر المكونة للسياسة الجنائية، ارتبط ظهوره بتكون الجماعة البشرية الأولى وتزايد أهمية المصالح المشتركة التي تستدعي حمايتها الحفاظ عليها من كل اعتداء قد يطالها من الداخل أو الخارج، وهو بذلك يعتبر من أقدم الوسائل التي تلجأ إليها التشريعات لحفظ كيان الجماعة وتحقيق الأمن والاستقرار لها، واعتبارا لذلك فإن التجريم يعد من المواضيع الحساسة التي تكتسي أهمية خاصة سواء في القانون الجنائي الوضعي أو القانون الجنائي الإسلامي. ونظرا لخطورة التجريم باعتباره يشكل استثناء على الأصل العام الذي يقتضي بأن الأصل في الأفعال الإباحة فإن كلا من التشريعين الجنائيين قيداه بمبدأ عام، هو مبدأ الشرعية الجنائية، والذي يقتضي بأن المشرع وحده الذي يتولى تحديد الجرائم والعقوبات المقررة لها.

و التجريم والعقاب في الفقه الإسلامي هو من وضع الخالق جل شأنه، فلا تغيير ولا تبديل ولا نقصان، إلا في حدود ما رسمه وقدره، وفي هذا المسلك الثبات والاستقرار لفكرة التجريم والعقاب، وعكس ذلك القانون الوضعي. وكل الأفعال المحظورة شرعًا والمعاقب عليها هي جرائم وهي جنايات، سواء كانت عقوبتها جسيمة أو غير جسيمة؛ لأنها كلها متساوية في أنها انتهاك لحرمات الله تعالى[2].

و المتتبع لآي الذكر الحكيم يستشف مبدأ الشرعية في كثير من المواضع:

قال تعالى: فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة:66]

1 – الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون ، حسن علي الشاذلي، ص 28

2 – الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون ، حسن علي الشاذلي، ص 28.27

قال الشيخ الشعراوي عند تفسيرها:... **على أننا لابد أن نلفت الإنتباه إلى أن مبدأ أنه " لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص " هو مبدأ إلهي**. . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الإسراء: 15]، أي يأتي الرسول أولا ليجرم هذه الأفعال، فإن ارتكبها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة، ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعي مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله، فلا يوجد في عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعي[1].

و في القرآن الكريم آيات كثيرة لو تمعنا فيها وجدناها تقرر هذا المبدأ، و منها قوله تعالى:

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:209]

﴿ يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ.﴾ . [المائدة: 19]

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ([الانفال:20]

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم:52]

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. [الإسراء:15] قال الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله عندها: وهذا استقصاء في الإعذار لأهل الضلال زيادة على نفي

1- تفسير الشعراوي، متولي الشعراوي، ج1 ، ص 387

مؤاخذتهم بأجرام غيرهم، ولهذا اقتصر على قوله: وما كنا معذبين دون أن يقال ولا مثيبين. لأن المقام مقام إعذار وقطع حجة وليس مقام امتنان بالإرشاد[1].

. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. [الحج: 8.10]

. وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ () ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ [الشعراء: 209 – 208]

كل هذه الآيات و ما في معناه من آي الذكر الحكيم ترشدنا لقاعدة قطعية، أنه لا عقوبة إلا بعد بيان، و هذا البيان يقتضي تجريم هذه الأشياء و بيان العقاب لها، و لهذا نجد أن الله تعالى أخبر على لسان ابن آدم عندما أراد قتلته: ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 28 ، 29] بعد إنتهاء قصة ابني ءادم مباشرة يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32]

والأصل في قولهم فعلته من أجلك: أجل عليهم أجلا ؛ أي جنى وجر ، وأجل عليهم شرا يأجله (بضم الجيم وكسرها) أجلا: جناه وهيجه... قال أبو زيد: أجلت عليهم آجل أجلا ؛ أي جررت جريرة، قال أبو عمر: يقال: جلبت عليهم وجررت وأجلت، بمعنى واحد ؛ أي جنيت... وزاد الراغب في مفرداته قيدا في تعريف الأجل، فقال: الأجل: الجناية التي يخاف منها آجلا، فكل أجل جناية، وليس كل جناية أجلا، يقال: فعلت كذا من أجله، قال تعالى: (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل) أي من

1- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ، ج15، ص 51، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الأولى، ج 4،ص 120

جرائه[1].قال الشيخ الطنطاوي عند تفسير آيات المائدة هذه: أن هابيل قد استعمل في صرف أخيه عن جريمة القتل وسائل متنوعة فهو:

أولا أرشده إلى أن الله- تعالى- إنما يتقبل الأعمال من المتقين، فإذا أراد أن يتقبل قربانه فعليه أن يكون منهم.

وأرشده ثانيا إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح.

وأرشده ثالثا إلى أنه لا يمنعه من بسط يده إليه إلا الخوف من الله رب العالمين.

وأرشده رابعا إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدي به إلى عذاب النار يوم القيامة، بسبب قتله لأخيه ظلما وحسدا[2].

أما من السنة النبوية فمن تعامله صلى الله عليه و سلم، حصل لنا يقين أن النبي عليه الصلاة و السلام راعى هذا المبدأ، فقد روى مسلم في صحيحه أن رجلاً من الصحابة يقال له: معاوية بن الحكم السلمي رضوان الله عليه، هذا الصحابي دخل الصلاة يوماً خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الصحابي لم يعلم بعد أن حكم الكلام في الصلاة قد نسخ؛ لأنهم كانوا يتكلمون في الصلاة في أول الأمر، ولم يعلم هذا الصحابي بحكم النسخ، وليس في ذلك من حرج ولا إثم، فبعض الصحابة رضوان الله عليهم كان لا يبلغه الدليل في المسألة أو في كثير من المسائل. فلما دخل هذا الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمي الصلاة، وعطس رجل من القوم في الصلاة، فقال له معاوية : يرحمك الله وهو يصلي، ولم يردوا عليه؛ لأنهم تعلموا أن قضية الكلام بغير ما ثبت عن النبي في الصلاة قد نسخ. فماذا قال سيدنا معاوية قال: (فرماني القوم بأبصارهم) نظروا إليه وهو يصلي، فقال: (واثكل أماه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟!)، أي: لماذا تنظرون إليَّ هكذا؟! قال: (فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم يصمتونني -يعني: يريدون أن يسكتوني- قال: فسكت) -انظر ماذا يقول- يقول: (فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته، فبأبي هو وأمي، والله ما رأيت

1- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م، ج 6، ص 287

2 - التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي: ص 118 و ما بعدها

معلماً قبله ولا بعده أحسن منه صلى الله عليه وسلم، والله ما كهرني -يعني: لم ينهرني- ولا ضربني ولا شتمني وإنما قال لي: إن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)، و لهذا نجد الإمام الشافعي -رضي الله عنه يقول: أطلع الله رسوله على قوم يظهرون الإسلامي ويسرون غيره، ولم يجعل له أن يحكم عليه بخلاف حكم الإسلام، ولم يجعل له أن يقضي عليهم في الدنيا بخلاف ما أظهروا ...إلى أن يقول: وبذلك قضت أحكام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيما بين العباد من الحدود، وجميع الحقوق وأعلمهم، أن جميع أحكامه على ما يظهرون، وأن الله يدين بالسرائر[1].

وأما أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تقرر تطبيقا لمبدأ الشرعية منها قوله في حجة الوداع: " ألا وان دم الجاهلية موضوع وأول دم أبدأ به دم الحارث بن عبد المطلب ، وأن ربا الجاهلية موضوع وأول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب " ومنها قوله عليه الصلاة والسلام لعمرو بن العاص: " الإسلام يهدم ما قبله ".و من هذه الآيات والأحاديث استخرج الفقهاء القاعدتين الأصوليتين اللتين تفيدان أنهما مضمون قاعدة " لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص " : 1. قاعدة أنه لا تكليف قبل ورود الشرع .2. وقاعدة أن الأصل في الأشياء الإباحة وتطبيق هاتين القاعدتين في مجال الفقه الجنائي يعني حضر العقاب على صور السلوك التي لم يرد نص بتجريمها ، وقصر العقاب على صور السلوك المجرمة على حالات ارتكابها التي تقع بعد ورود النص القاضي بالتجريم.[2]

وبعد هذا التمهيد فماذا تعني سياسة التجريم ؟ و ما هي أهم المبادئ التي تقوم عليها سياسة التجريم ؟

1 - الأم ، الشافعي، دار الشعب، ج7، ص268، 269

2 - أصول النظام الجنائي الإسلامي، محمد سليم العوا، دار المعارف، ط 2، 1983 ، ص 58-59.

المبحث الأول:ماهية سياسة التجريم

المطلب الأول: مفهوم سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية

بين ابن خلدون رحمه الله في مقدمته بأن الجريمة واقعة اجتماعية لابد من وجودها في كل مجتمع بشري، ثم بعد ذلك بين ما رءاه مناسبا لمواجهتها، فقد رأى حتمية وجود حاكم يزع الناس ويسوسهم و لابد له حينئذ من أداة لان يحكمهم بالتالي ضرورة وجود سياسة ينتظم بها أمر الناس، أشار إليها بقوله:"...وحكمه فيهم تارة يكون مستندا إلى شرع منزل من عند الله، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم" [1]. و هذا ما اصطلح عليه بالسياسة الشرعية، و التي عرفها بعضهم بأنها:

." فعل يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحي "[2].

.هي التوسعة على ولاة الأمر في أن يعملوا ما تقتضي به المصلحة ممالا يخالف أصول الدين وإن لم يقم عليه دليل[3].

ولعل أشمل تعريف للسياسة الشرعية هو: العمل على جلب أقصى ما يمكن من المصالح للجماعة ودفع ما أمكن من المفاسد عنها بإقامة الشريعة تنفيذا واجتهادا، أو استفراغ لوسع وبذل الجهد للوصول إلى الأنظمة المناسبة زمانا ومكانا، وفي جميع المجالات الاقتصادية والسياسة والإدارية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية، وفي حال الاختيار والاضطرار والسلم والحرب، وتصريف الشؤون اليومية بالتدبير والحكمة

1- المقدمة، عبد الرحمان بن خلدون ، شرح و تعليق د. عبد الواحد ،ي دار الكتب العلمية، 1996، ص156.

2 – طرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية لبنان . ج 3، ص10

3 – السياسة الجزائية في فقه العقوبات الإسلامي المقارن، أحمد حصري ، در الجيل بيروت ، 1993، ج 1 ،ص106 .

والتذرع بكافة الوسائل والطرق المادية والفكرية والحسية والمعنوية في ضوء نصوص الشريعة وروحها ومقاصدها"[1]. والسياسة الشرعية لا تخرج عن :

1. جلب المصالح أو بناء الكليات الخمس بإيجادها وإقامتها وتنميتها

2 . دفع المفاسد أو حماية البناء المقام للكليات الخمس بمنع زوالها والإخلال بها والاعتداء عليها.

والسياسة الجنائية باعتبارها جزءا من السياسة الشرعية، فإنها تعمل على ترسيخ هذين الهدفين في جانبهما الجنائي، وذلك بدفع المفاسد الناتجة عن الجريمة أو المتوقع حصولها منها علاوة على توفير الأمن للأمة وصيانة الحقوق والممتلكات، والعمل على تحقيق ذلك بكافة الطرق والوسائل كاستصدار الأنظمة المناسبة واتخاذ الإجراءات الملائمة سواء أكانت مادية أم فكرية حسية أم معنوية، دون الخروج عن أسس الشريعة وقيمها ومقاصدها وأهدافها، وهكذا تدخل ضمنها سياسة التجريم وتغليظ العقوبات أو تخفيفها والتعازير بصفة عامة.

فيقوم مفهوم التجريم في الشريعة الإسلامية على إضفاء الحماية الجنائية على مجموعة من المصالح والقيم والمبادئ التي تعمل الشريعة السمحة على حفظها باعتبار أهميتها في حفظ كيان المجتمع، فالشريعة الإسلامية تعتبر الأخلاق الفاضلة أولى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع، ولهذا فهي تحرص على حماية هذه الأخلاق وتتشدد في هذه الحماية بحيث تكاد تعاقب على كل الأفعال التي تمس الأخلاق[2]، والعلة في اهتمام الشريعة بالأخلاق على هذا الوجه، أن الشريعة الإسلامية تقوم على الدين الذي يأمر بمحاسن الأخلاق ويحث على الفضائل ويهدف إلى تكوين الجماعة الصالحة .

1 – اتجاهات السياسة الجنائية المعاصرة و الشريعة الإسلامية، محمد بن المدني بوساق ، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، الرياض ،2002 ص 15 .

2 – التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقوانين الوضعية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة بيروت ط 10، ج 1، ص 69 .

فالنظام الجنائي الإسلامي جزء من الشريعة الإسلامية التي تقوم على أساس الدين، والدين بما له من قدسية وحرمة يكفل للنظام الجنائي الإسلامي قوة وفاعلية لارتباطه بعقيدة المسلم ووجدانه الديني،حيث لا يخفى أن تكوين الفرد الصالح الذي يكون في مجموع تصرفاته نزاعا إلى الخير عزوفا عن الشر من أهم مقاصد الإسلام، وهو ما جعل المشرع الإسلامي في تجريمه للعديد من التصرفات والأفعال يهتم بالجانب الديني والعقائدي .[1]

وحاصل القول أن علماء الشريعة قد حصروا المصالح التي جاءت الشريعة الإسلامية على حفظها وحمايتها في خمسة أصول ، على رأسها حفظ الدين باعتباره المقوم الأساسي لكيان المجتمع الإسلامي، لذلك نجده جرم بعض السلوكات حفاظا على هذا المقام، منها جريمة الردة وتشدد في العقاب عليها. ثم يأتي حفظ النفس، فجرم كل اعتداء عليها، و من بعدها حفظ العقل فجرمت الشريعة الخمر والمسكرات و ما عطف عليها كالمخدرات ، وأما حفظ المال فقد جرمت الشريعة السرقة و الغصب و الغش و النجش ، و في حفظ النسل جرمت قذف للمحصنات و الزنا.

المطلب الثاني : فلسفة التجريم في الفكر الاسلامي

1. مذهب الجبرية: يرون أن الإنسان لا قدرة له فلا يخلق أفعاله[2]، وأصلا لا إرادة له ولا اختيار وهو آلة محضة كالسكين بيد القاطع[3]، و تعليلهم أن الله هو خالق الأشياء و الإرادات والأفعال فالفعل لله وحده، قدرة الله تعالى فقط بلا قدرة من العبد أصلا[4]، و

1 – التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقوانين الوضعية، عبد القادر عودة ، ج 1، ص 70 .

2 – تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، بدر الدين الزركشي، دراسة وتحقيق: د سيد عبد العزيز – د عبد الله ربيع، المدرسان بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث – توزيع المكتبة المكية، ط 01، 1418 هـ – 1998 م، ج 4، ص 961

3 – غاية الوصول في شرح لب الأصول، زكريا الأنصاري، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، ط 2، 1354 هـ، 1936 م، ص 167

4 – حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن بن محمود العطار، دار الكتب العلمية، بدون طبعة وبدون تاريخ، ج02، ص 532.

نسبة الأفعال للأفراد على سبيل المجاز ونتيجة لذلك لا يجوز تكليف الإنسان بعمل لا دخل له فيه ولا يصح تواب الإنسان ولا عقابه تجاه شيء لم يفعله.

2. مذهب المعتزلة: يرون أن الله خالق لكل شيء وقد خلق في الإنسان قوة تمكنه من سلوك الطريق الذي يريده فالعبد مستقل بإجاد فعله بقدرته وإرادته ودواعيه، ولولا ذلك لم يحسن التكليف والثواب والعقاب، لكنهم قالوا: إن تلك القدرة والداعية مخلوقتان لله[1] ومن ثم فإن أتى بمعصية فهي مسندة إلى إرادته، في المقابل الله سبحانه وتعالى لا يعاقب الإنسان على أمور ليست من أفعاله، ولا يقبل أن يقدر عليه أمرا ثم يفرض عليه عقوبة لارتكابه، فللإنسان إرادة حرة مطلقة في كل ما يفعله وبذلك فهو مخير في أفعاله وله أن يختار بين الشر والخير والدليل قوله تعالى " أنا هديناه السبيل أما أن يكون شاكرا إما كفورا " وكذلك " وهديناه النجدين " .

3. مذهب الأشاعرة: أما الأشاعرة فيرون أن للإنسان القدرة، ولكن لا تأثير لقدرته، وله أفعال والله خالقها، وله إرادة أيضا تستند أفعاله إليها، فالله هو مقدر أفعال العباد إلا أن فعلها هو من العبد لا من الله وبدلك يعد مختار في أفعاله[2].

خلاصة: الملاحظ أنه عند الجبرية لا قدرة لإنسان ولا إرادة ولا فعل ، وعند المعتزلة للإنسان قدرة مطلقة ، وهذا الرأي يتعارض مع قوله تعالى " لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين " . أما عند الأشاعرة فله حرية الاختيار، و هذه الحرية و هذا الاختيار يحتم توضيح وتحديد الأفعال التي يعاقب على فعلها حتى يعلمها الفرد ويجتنبها.

1 تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، بدر الدين الزركشي، دراسة وتحقيق: د سيد عبد العزيز – د عبد الله ربيع، ج 4، ص 961

2 التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ،ج 1، ص 257.

المبحث الثاني : خصائص سياسة التجريم في الشريعة الإسلامية

إن سياسة التجريم التي ينتهجها المشرع الإسلامي تتميز بخصائص جوهرية تهدف أساسا إلى التأكيد على شموليتها وسموها عن باقي التشريعات الأخرى، سواء السماوية منها أم الوضعية، وتتجسد أهم هذه الخصائص في تدرج التشريع الجنائي الإسلامي من جهة، واقتصاره على الكليات دون الجزئيات والعموميات دون الخصوصيات من جهة ثانية.

المطلب الأول : التدرج في التشريع الإسلامي

لقد تدرج التشريع الإسلامي في وضعه للأحكام التكليفية الجنائية، وذلك تبعا لحاجة الزمان وقدرة الناس على استيعاب وتقبل ما فرض عليهم من أوامر ونواهي، فمن المعلوم أن الإسلام قد جاء والعرب في إباحة مطلقة استحكمت فيهم عادات منها ما هو صالح للبقاء ولا ضرر منه، ومنها ما هو فاسد لا يصح السكوت عليه أو البقاء على وجوده. لذا اقتضت الحكمة الإلاهية رحمة بالناس ألا يفاجئوا بالأحكام جملة واحدة، فيعسر عليهم تقبلها والامتثال لها[1]. ولهذا فقد نزل القرآن الكريم منجما وجاءت الأحكام الشرعية متدرجة حتى يكون السابق منها ممهدا للنفوس لقبول اللاحق .

ولعل أهم مثال قد يستشهد به على تدرج التجريم في التشريع الجنائي الإسلامي هو التدرج في تحريم الخمر[2]، حيث إن المشرع الإسلامي قد وقف موقفا حازما من شرب الحمر، لكنه مع ذلك لم يجرمها جملة واحدة، إذ لما كان العرب قبل الإسلام يدمنون شربها ويتغنون بها في أشعارهم ونثرهم لم يكن قط من السهل تجريمها عليهم دفعة واحدة ، فلم يكن تحريمها كلية وإنما على مراحل عدة [3]:

1 – السياسة الجنائية في ظل النظام العقابي الإسلامي، مجموعة من طلبة كلية الحقوق بطنجة ، السنة الجامعية 2003– 2004، ص 5.

2 – تاريخ التشريع الإسلامي ، مناع القطان ، مؤسسة الرسالة، ط 27، 1998، ص54 .

3 – تنظر هذا المراحل في كتب التفسير: جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر الطبري ،تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط 1، 1420 هـ – 2000 م، ج 4 ص 334.

المرحلة الأولى: قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67]. جاءت هذه الآية الكريمة للتفرقة بين الرزق الحسن (وهو الطعام الحلال) والسكر[1]، و العطف يقتضي المغايرة . ومن ثم نجد بعض الصحابة رضوان الله عليهم أدركوا حرمة شرب الخمر انطلاقا من الآية المتقدمة.

المرحلة الثانية: قال تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ . فبنزول هذه الآية كان المسلمون بين شارب للخمر راغبا في منافعها، وبين ممتنع عن شربها لما فيها من آثام ومفاسد .

المرحلة الثالثة : قال تعالى ﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾. سورة النساء : الآية 43 وهكذا كان المسلمون يشربونها بعد انتهاء صلاة العشاء وقبل دخول وقت صلاة الفجر، نزلت هده الآية على ما رواه الترمذي عن على بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمان بن عوف طعاما فدعانا و سقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلات فقدموني فقرأت : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، و نحن نعبد ما تعبدون ، قال فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيها الدين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ . خرجه الترمذي وصححه.

المرحلة الرابعة: قال تعالى ﴿يا أيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. سورة المائدة : الآيتان 92-93 نزلت هذه الآية لتقطع يقينا ونهائيا بحرمة الخمر على اعتبارها رجسا من عمل الشيطان، وبابا من أبوابه التي يتسلل منها إلى إفساد القلوب والعقول، و ليذكي نار العداوة والبغضاء والتشاحن ويأججها. ثم أكدت السنة

تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، ط 1، 1420 هـ، ج1 ص 276.

1- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط 2، 1384هـ - 1964 م، ج12، ص 128.

ذلك في كثير من المواضع، منها قوله صلى الله عليه وسلم : ما أسكر كثيره فقليله حرام "[1]، و ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:" لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالمُشْتَرِي لَهَا، وَالمُشْتَرَاةُ لَهُ "[2].

المطلب الثاني: الاقتصار على الكليات دون الجزئيات والعموميات دون الخصوصيات مسلك الشريعة أثناء التشريع

قال ابن عاشور رحمه الله: معلومٌ بالضرورة من الدين أن شريعة الإسلام جاءت شريعة عامةً داعيةً جميع البشر إلى اتباعها، لأنها لما كانت خاتمة الشرائع استلزم ذلك عمومها – لا محالة – سائرَ أقطار المعمورة، وفي سائر أزمنة هذا العالم. لهذا كان من اللازم أن يتميز التشريع الإسلامي عامة . ومنهجه التجريمي جزء لا يتجزأ منه . بخصائص وبنظام فريدو نوعي، و أهمها كون التشريع التجريمي في الشريعة الاسلامية يقتصر في وضعه للأحكام على الكليات والعموميات دون الجزئيات و دون الخصوصيات، وبالاستقراء نجد أن الشارع الحكيم عمل عند تعيينه للجرائم والمحظورات الشرعية على الاقتصار على وضع الأصول الكلية والقواعد العامة والأحكام [3]

و لعل المقصد في وضع النصوص التجريمية على هذا الشكل في أن الشريعة الإسلامية لا تقبل التعديل والتبديل، فوجب أن تكون نصوصها –الجنائية وغير الجنائية–

1– سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، باب ما جاء ما أسكر كثيره فقليله حرام، رقم 1865، و قال: هذا حديث حسن غريب، سنن أبي داوود، باب النهي عن المسكر، رقم 3681

2 – سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، باب اتخاذ الخمر خلا، رقم 1295،سنن ابن ماجه، ابن ماجه، بَاب لُعِنَتْ الْخَمْرُ عَلَى عَشَرَةِ أَوْجُهٍ، رقم: 3380، 3381، الحديث حسن انظر كتاب: الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ضياء الدين بن عبد الواحد المقدسي، دراسة وتحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 3، 1420 هـ – 2000 م،ج 6، ص 182،باب: شبيب بن بشر البَجلِيّ عَن أنس، رقم: 2187، 2188، 2189، 2190

3 – مقاصد الشريعة الاسلامية، ابن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس. الاردن، ط 3، 1432 هـ 2011 م، ص 317

من المرونة والعموم ما يمكنها من استيعاب المستجدات و التغييرات و مواكبة التطورات البشرية مهما تغيرت ظروف الزمان والمكان والأشخاص. فهذه الخاصية تتيح للحاكم وأولي الأمر من أهل الحل والعقد في الأمة الإسلامية منفذا واسعا ومجالا فسيحا في باب السياسة التجريمية، بحيث تستطيع الدولة المسلمة تجريم كل فعل أو سلوك جديد في المجتمع وإن لم يكن قد نص على حكمه تفصيلا في الكتاب العزيز و في السنة المطهرة. ولهذا كتب الشيخ الطاهر بن عاشور أن من مقاصد الشريعة الإسلامية تجنب التفريع في وقت التشريع حيث ساق في كلامه:" .. قد تتبعت تفريعَ الشريعة في زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم – فوجدت معظمَهُ في أحكام العبادات، حتى إنك لتجد أبواب العبادات في مصنفات السنة هي الجزء الأعظم من التصنيف بخلاف أبواب المعاملات. وذلك لأن العبادات مبنيةٌ على مقاصد قارة، فلا حرج في دوامها ولزومها للأمم والعصور إلا في أحوال نادرة تدخل تحت حكم الرخصة."[1] و قد ذكر رحمه الله أن من مقصد الشريعة نوط الأحكام الشرعية بمعان و أوصاف لا بأسماء و أشكال حيث قال" ..لا يعوزك أن تعلم هنا أن مقصدَ الشريعة من أحكامها كلِّها إثباتُ أجناس تلك الأحكام لأحوال وأوصاف وأفعال من التصرِّفات خاصَّها وعامِّها، باعتبار ما تشتمل عليه تلك الأحوالُ والأوصافُ والأفعالُ من المعاني المنتجة صلاحاً ونفعاً، أو فساداً وضراً، قويين أو ضعيفين. فإيّاك أن تتوهم أن بعض الأحكام منوطٌ بأسماء الأشياء أو بأشكالها الصورية غير المستوفاة المعاني الشرعية فتقع في أخطاء في الفقه، مثل قول بعض الفقهاء في صنف من الحيتان يسميه البعض خنزير البحر، أنه يحرم أكله، لأنه خنزير." ..." وإنما حقُّ الفقيه أن ينظر إلى الأسماء الموضوعة للمسمَّى أصالة أيام التشريع، وإلى الأشكال المنظور إليها عند التشريع، من حيث إنها طريق لتعرف الحالة الملحوظة وقت التشريع، لتهدينا إلى الوصف المرعي للشارع كما سيجيئ في مبحث نوط التشريع بالضبط والتحديد. ولقد أخطأ من هنا بعض الفقهاء أخطاء كثيرة، مثل ما أفتى بعض الفقهاء بقتل المشعوذ باعتبار أنهم يسمّونه سحاراً، مغمضين أعينهم عن تحقيق معنى السحر الذي ناط الشارع به حكم القتل" ..." وقد غلط بعض المفتين فأفتى بحرمة التدخين بورق التبغ في الفم، لأنه لما ظهر التدخين به

1- مقاصد الشريعة الاسلامية، ابن عاشور، ، ص 401

في أوائل القرن الثامن عشر سمّوه الحشيش، وتوهّموه أنه الحشيش المخدِّر الذي يدخن به الحشاشون ، وكذلك لما ظهرت الحبوب اليمانية التي نسميها قهوة أفتى بعض العلماء أول القرن العاشر بحرمة منقوعها لأنهم سمّوها القهوة الذي هو اسم الخمر في اللغة العربية، مع أن تسمية تلك الحبوب قهوة اسم محرف من اسم غير عربي هو كفا. [Cafe]" وقال بعدها مباشرة: " ولم يزل الفقهاء يتوخّون التفرقة بين الأوصاف المقصودة للتشريع وبين الأوصاف المقارنة لها، التي لا يتعلق بها غرض الشارع، ويسمّونها الأوصاف الطردية وإن كانت هي الغالبة على الحقيقة الشرعية مثل الكون في البرية في حقيقة الحرابة. فإن ذلك أمر غالب وليس هو مقصودَ الشارع. فلذلك أفتى حذاق الفقهاء باعتبار حكم الحرابة في المدينة إذا كان الجاني حاملاً للسلاح ومخيفاً لأهل المدينة." ... " وقد أنذر النبي – صلى الله عليه وسلم –، إنذاراً بإنكارٍ بناس من أمته، يشربون الخمر يُسمّونها بغير اسمها. رواه أحمد وابن أبي شيبة. فكما كان تغيير الاسم غير مؤثر في تحليل الحرام كذلك لا يكون مؤثراً في تحريم الحلال."

وفيما يلي مثالا موضحا لما ذكر:

تجريم السرقة : يقول تعالى :" السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ..."[المائدة : 38]. فقد جرمت هذه الآية الكريمة السرقة حينما نصت على عقوبتها، والسرقة عند فقهاء الشريعة الإسلامية هي أخذ مال الغير خفية دون علمه و رضاه، فإذا أخذ المال في حضوره وليس على سبيل القهر والمغالبة، فالفعل اختلاس لا سرقة، أما إذا أخذ في غيبة صاحبه ولكن برضاه فلا جريمة في الأمر[1]. فنستطيع أن نجمل من هذا التعريف أن أركان هذه الجريمة هي :

01-الأخذ خفية 02 -أن يكون المأخوذ مالا مملوكا للغير 03 -القصد الجنائي

فالآية السابقة عند تحريمها للسرقة، قد جاءت بحكم تجريمي عام دون أن تتعرض للتفاصيل والجزئيات. وعليه فإن أي فعل أو سلوك ينطبق عليه التعريف السالف ذكره ،

1- الجريمة و العقوبة في الفقه الإسلامي، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي بدون تاريخ ، ص 122 ج 2. جرائم السرقة في الشريعة الإسلامية و القانون الوضعي، عبد الخالق النواوي، المكتبة العصرية – بيروت لبنان – بدون تاريخ ، ص 10.

وتتحقق فيه الأركان السابقة في أي عصر من العصور وفي أي مصر من الأمصار يعد جريمة سرقة يعاقب عليها، و في هذا العصر ظهرت فيه بعض أنواع السرقة التي لم تكن معروفة من قبل، وذلك من قبيل ما يعرف بجرائم السرقة عن طريق الحواسب وشبكات الإنترنت، وجرائم سرقة براعة الاختراع والأعمال الفنية وما يعرف بجرائم الأموال بمختلف أنواعها وغيره مما استجد في هذا العصر من أنواع السرقة التي لم يكن لها وجود عند نزول آية السرقة، والتي ما كان يمكن تجريمها لولا هذا العموم والمرونة التي أشرنا إليه و احتملتها الآية.

خاتمة:

.سياسة التجريم في الشريعة الاسلامية جزء من السياسة الشرعية

.تقوم سياسة التجريم على تحقيق:

1.جلب المصالح أو بناء الكليات الخمس بإيجادها وإقامتها وتنميتها

2 . دفع المفاسد أو حماية البناء المقام للكليات الخمس بمنع زوالها والإخلال بها والاعتداء عليها.

.عملت الشريعة الاسلامية عند تعيينها للجرائم والمحظورات الشرعية على الاقتصار على وضع الأصول الكلية والقواعد العامة والأحكام العامة لكل جريمة. دون أن تتعرض للتفاصيل والجزئيات. وعليه فإن أي فعل أو سلوك ينطبق عليه تعريف أي جريمة، وتتحقق فيه الأركان و قواعد تلك الجريمة في أي عصر من العصور وفي أي مصر من الأمصار يعد جريمة يعاقب عليها.

. و لا شك أن أسبقية الشريعة لوضع بعض قواعد الجرائم اليوم لا يخفى على عاقل ،كلا جريمة الا بنص، و كتوفر القصد الجنائي، فما بال شمس السياسة الجنائية في الشريعة الاسلامية دائم الكسوف؟.

.من الأهمية بمكان الاعتناء بالتشريع الاسلامي على مستوى الجنايات و العقوبات، و تقنين كل ذلك من أجل جلب مصالح الناس و الحفاظ على دفع الضر عنهم.

المراجع:

1. اتجاهات السياسة الجنائية المعاصرة و الشريعة الإسلامية، محمد بن المدني بوساق، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية، الرياض ،2002
2. أثار تطبيق الشريعة في منع الجريمة، محمد بن عبد الله الزاحم، دار المنار. القاهرة، ط 1، 1412هـ ، 1991م
3. الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ضياء الدين بن عبد الواحد المقدسي، دراسة وتحقيق:د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 3، 1420 هـ – 2000 م
4. الأم ، الشافعي، دار الشعب، دون ت ط.
5. تاريخ التشريع الإسلامي ، مناع القطان ، مؤسسة الرسالة، ط 27، 1998
6. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ،
7. التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقوانين الوضعية، عبد القادر عودة ، مؤسسة الرسالة بيروت ط 10،
8. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط 1، 1420 هـ
9. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م،
10. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة
11. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الأولى
12. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، أبو جعفر الطبري ،تحقيق:أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط 1، 1420 هـ – 2000 م
13. جرائم السرقة في الشريعة الإسلامية و القانون الوضعي، عبد الخالق النواوي، المكتبة العصرية – بيروت لبنان – بدون تاريخ

14. الجريمة و العقوبة في الفقه الإسلامي، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي بدون ت ط
15. الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون ، حسن علي الشاذلي،
16. الجنايات في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون ، حسن علي الشاذلي ،دار الكتاب الجامعي، ط 2،
17. السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد الخراساني، النسائي، تح: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط 1، 1421 هـ - 2001 م
18. السياسة الجزائية في فقه العقوبات الإسلامي المقارن، أحمد حصري ، در الجيل بيروت ، 1993،
19. السياسة الجنائية في ظل النظام العقابي الإسلامي، مجموعة من طلبة كلية الحقوق بطنجة ، السنة الجامعية 2003- 2004
20. الشبهات وأثرها في العقوبة الجنائية في الفقه الإسلامي مقارنا بالقانون المؤلف: منصور محمد منصور الحفناوي الناشر: مطبعة الأمانة الطبعة: الأولى 1406هـ- 1986م
21. صول النظام الجنائي الإسلامي، محمد سليم العوا، دار المعارف، ط 2، 1983
22. طرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية لبنان
23. لسان العرب، ابن منظور، فصل الجيم ، دار صادر – بيروت ، ط: 3، 1414 هـ،
24. مسند الإمام أحمد ، أحمد بن حنبل، تح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث – القاهرة،ط :01، 1416 هـ - 1995 م
25. مقاصد الشريعة الاسلامية، ابن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس.الاردن، ط 3، 1432 هـ 2011 م

26. المقدمة،عبد الرحمان بن خلدون ، شرح و تعليق د. عبد الواحد ،ي دار الكتب العلمية، 1996،

27. موسوعة الفقه الإسلامي،محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، بيت الأفكار الدولية، ط: 1، 1430 هـ - 2009 م،

28. غاية الوصول في شرح لب الأصول، زكريا الأنصاري،دار الكتب العربية الكبرى، مصر، ط 2، 1354 هـ، 1936 م،

29. تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، بدر الدين الزركشي، دراسة وتحقيق: د سيد عبد العزيز - د عبد الله ربيع، المدرسان بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث - توزيع المكتبة المكية، ط 01، 1418 هـ - 1998 م

30. حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن بن محمود العطار، دار الكتب العلمية، بدون طبعة وبدون تاريخ،

31. الأحكام السلطانية، الماوردي أبو الحسن علي، دار الحديث – القاهرة، دون تاريخ ط.

مجلّة روافد للبحوث و الدراسات / جامعة غرداية / العدد الثاني (2017م)
مجلّة روافد للبحوث و الدراسات
ردمد 2543-3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

التكفل النفسي بجنوح الأحداث: دراسة تحليلية

Psychological provide for juvenile delinquency analytical study of the phenomenon

تشعبت ياسمينة

طالبة دكتوراه / جامعة قاصدي مرباح

ورقلة

الملخص:

انتشرت في السنوات الأخيرة ظاهرة خطيرة مسّت شريحة اجتماعية هامة، يمكن أن تؤدي الدور الريادي في مستقبل ونهضة وتقدم المجتمع، وتتمثل هذه الظاهرة في:" جنوح الأحداث"؛ أي انحراف فئة الأطفال والمراهقين الذين تقل أعمارهم عن ثمانية عشرة سنة، وظاهرة جنوح الأحداث إطار لمشكلة تستحق البحث والتقصي فلابد من إعارتها القدر الكافي من العناية والاهتمام لذلك فقد جاء هذا المقال ليسلط الضوء عليها من خلال النقاط التالية: مفهوم جنوح الأحداث-الحدث في القانون الجزائري - أسباب جنوح الأحداث - أهم النظريات التي تحدثت في أسباب جنوح الأحداث - الخطة العلاجية التي يقوم بها الأخصائيين للتكفل بالجانح - بعض المقترحات والتوصيات الخاصة بالوقاية من جنوح الأحداث

الكلمات المفتاحية : الحدث – جنوح – التكفل النفسي – الجريمة.

Abstract :

In recent years، it spreads a dangerous phenomenon touched an important social group، Can Play a leading role in the future of the renaissance and progress of society، this phenomenon is "juvenile delinquency" any deviation class children and teenagers under the age of eighteen years. And the phenomenon of juvenile delinquency framework for a problem worthy of research and investigation must be loaned adequate care and attention so it has this article highlights them through the following points: The concept of juvenile delinquency، Event in Algerian law، The causes of juvenile delinquency، The most important theories That talked info the causes of juvenile delinquency، Therapeutic plan carried out by specialists to censure juvenile delinquency ، Somme of the proposals and recommendations for the prevention of juvenile delinquency

Keywords: Event – Delinquency – provide for psychological – Crime

مقدمة:

إن ظاهرة جنوح الأحداث في حقيقة الأمر، يمكن أن تشكل إطارا لمشكلة تستحق البحث والتقصي، فلابد من إعارتها القدر الكافي من العناية والاهتمام، لذلك نجدها حظيت ببحوث ودراسات سابقة على المستويين الوطني والدولي لأن حدث اليوم هو رجل الغد، وعليه فأحداث اليوم الجانحين هم مجرمو الغد إذ تركوا بدون رعاية أو علاج وهذا ما يهدد سلامة المجتمع وأمنه ويهدد كيانه.

ولابد أن لا ننسى أن الهرم السكاني في الجزائر يتصف بقاعدة فتية تطرح قضية جيل الشباب وهذه الفئة أكثر تقبلا للإصلاح من الكبار لذلك إذا أحسنا تطبيق واختيار التدابير الإصلاحية بحقهم وبإرساء القيم الأخلاقية والتربوية الصحيحة في نفوسهم قد يردهم إلى سواء السبيل ، ان الأحداث الجانحين يمكن أن يكونوا أبنائنا أو إخوة لنا أو على الأقل مواطنون معنا لذا يستحق كل منهم انتباها ورعاية حتى يتمكن من استعادة إنسانيتهم قبل فوات الأوان والاندماج السوي في المجتمع كقوة إيجابية دافعا للتطور[1]. و جنوح الأحداث ظهرت نتيجة لعوامل عدة تتسبب في سقوط هذه الفئة في مهاوي الجريمة من أوسع أبوابها كالتسيب الأخلاقي وتعاطي المخدرات والسرقة لدى الجنسين.

1- مفهوم جنوح الأحداث:

1-1- مفهوم الجنوح:

هناك بعض الصعوبة في تحديد هذا المفهوم فالجنوح يتصل بشكل أو بآخر بمفهوم الجريمة، وبمفاهيم تعني الجريمة ويظهر أن إيجاد تعريف شامل لمفهوم الجنوح مازال يتعذر تحقيقه وذلك لارتباطه بقضايا علمية واسعة يشارك فيها رجال القانون الى جانب علماء النفس والاجتماع والخبراء الاجتماعيين وأطباء النفس

1 - محمد عبد القادر قواسمية ، جنوح الأحداث في التشريع الجزائري، بط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1996، ص 74.

والعقل، وهو من بين المفاهيم القانونية التي أبرزها الفقه الجنائي للتعامل مع فئة الأحداث الذين يرتكبون افعالاً مخالفة للقانون.[1]

1-2- الجنوح في القانون[2]:

ينظر رجال القانون إلى الجنوح بأنه سلوك متمرد و عدواني يعود بالضرر على صاحبه و على المجتمع و هو متعارض مع القانون المنظم للعلاقات بين أفراد هذا المجتمع، و يولي القانونيون اهتماما كبيرا بالدوافع لارتكاب الانحرافات (الجنوح) ويعتقدون أن العقاب لا بد منه شرط أن يكون بهدف التقويم و الإصلاح و إعادة التربية كما يعتقدون أن الخروج على القانون إذا كان أثره كبيرا و ضرره بالغا وجب أن يتم وضع حد له حرصا على الحفاظ على المصلحة العامة حيث يكون ردع الشخص المتسبب عبرة لسواه، و يطاله العقاب سواء في أمواله عن طريق دفع الغرامات التي تفرض عليه و يجبر على أدائها، أو يطال حريته بسجنه و قد يطال حياته من خلال إعدامه و التخلص من شره نهائيا، أو يطال جسمه من خلال عقوبات البتر (القطع) لأحد أطرافه أو جلده وهذا بالنسبة لبعض المجتمعات.

1-3- مفهوم الحدث :[3]

تشير كلمة الحدث في اللغة العربية الى " صغير السن "،وهو من أتم السابعة من عمره ولم يتم الثامنة عشر من عمره، ويختلف تعريف الحدث في القانون عنه في علم الاجتماع.

1-3-1- الحدث في القانون الجزائري:

يعتبر التشريع الجزائري أن الحدث هو الشخص الذي لم يبلغ سن الرشد الجزائي المحدد بثمانية عشر سنة كاملة و ذلك يوم ارتكابه للجريمة و ليس يوم

---

1 - صالح بن محمد آل ربيع العمري، العود إلى الانحراف في ضوء العوامل الاجتماعية، ط1، أكادمية نايف للعلوم الامنية، الرياض، 2002، ص 22

2 - القانون الشامل، بحث جنوح الأحداث، 2013. http://droit7.blogspot.com/2013/10/blog-post_5692.html

3 - على محمود جعفر، حماية الأحداث المخالفين للقانون والمعرضين لخطر الإنحراف، بط، مؤسسة المجد، بيروت، 2004، ص 31 .

المحاكمة (المادة 442 – 443 ق.إ.ج.ج) وقد قسم القانون الجزائري الأحداث إلى فئتين:

الحدث دون ثلاثة عشرة سنة: إن الحدث الذي يقل عمره عن ثلاثة عشرة سنة لا يجوز الحكم عليه بعقوبة و يكون فقط محل تدابير الحماية (المادة 446 ق.إ.ج).

الحدث ما بين ثلاثة عشرة سنة و ثمانية عشرة سنة : يخضع القاصر في هذا السن لتدابير الحماية و التهذيب أو لعقوبات مخففة و هذا ما أجازه المشرع لجهة الحكم إذا ما رأت لذلك ضرورة، إلا أنه في هذه الحالة يستفيد من العذر المخفف لسن الحداثة وهو نصف العقوبة المقررة للراشد، فإذا كانت العقوبة المقررة للجرم المرتكب في حالة إتيانه من طرف شخص بالغ (راشد) هي الإعدام أو السجن المؤبد، فإن العقوبة المقررة للحدث المرتكب لنفس الجرم هي الحبس من 10 إلى 20 سنة، أما إذا كانت العقوبة بالنسبة للبالغ هي السجن المؤقت فإن القاصر أو الحدث يحكم عليه بنصف المدة.[1]

1-3-2- المقصود بجنوح الأحداث :

إقدام الحدث على ارتكاب جريمة كالسرقة أو الإيذاء أو القتل ...الخ، ويسمى الحدث الذي يرتكب هذه الأفعال بالحدث الجانح ويجب تقديمه للمحاكمة وإيداعه في مؤسسة إصلاحية.

أما التعريف المتداول للحدث الجانح حسب القانون فهو الحدث في فترة بين سن التمييز وسن الرشد الجنائي الذي يثبت أمام السلطة القضائية أو سلطة أخرى مختصة، أنه قد ارتكب إحدى الجرائم أو تواجد في إحدى حالات الخطر التي حددها القانون، و المشرع الجزائري عرف الجنوح على أنه ارتكاب حدث يقل سنه عن 18 سنة لجريمة يعاقب عليها قانون العقوبات.[2]

2- أبرز الجرائم التي يرتكبها الأحداث:

يرتكب الأحداث العديد من الجرائم على اختلاف أنواعها ومنها:[3]

1 – فضيل العيش، شرح قانون الاجراءات الجزائية، دار البدر، الجزائر، 2007.

2 – القانون الشامل، مرجع سابق.

3 – زينب أحمد عوين، قضاء الأحداث، بط، دار الثقافة ، عمان ، 2009 ، ص 54 .

السرقة – المشاجرات – توزيع المخدرات وتعاطيها – أعمال منافية للأخلاق – القتل غير العمد – القتل العمد .

3- أسباب جنوح الأحداث :[1]

جنوح الأحداث مشكلة خطيرة وتمثل تهديدا كبيرا ومتناميا في المجتمع خاصة في الدول النامية، حيث يؤثر على استقرار المجتمع وخططه التنموية وبناؤه الأسري.

ولقد تعددت وجهات النظر والآراء في تفسير عوامل وأسباب جنوح الأحداث، ولا يمكن فهم ظاهرة جنوح الأحداث فهما عميقا إلا بفهم الظروف الاجتماعية فالحدث المنحرف إنسان عادي إلا أن ظروفاً اجتماعية معينة أدت إلى هذا الانحراف وعدم التكيف .

لهذا يجب إن نبحث في أسباب جنوح الأحداث، فما هي أسباب جنوح الأحداث؟ وما هي العوامل التي تسهم في انخراط الحدث في الجريمة؟

تتعدد أسباب جنوح الأسباب سنقوم بذكر أهمها:

3-1- الأسباب الاجتماعية لجنوح الأحداث :

3-1-1- الأسرة وما يرتبط بها من أبعاد :

الأسرة هي مهد للشخصية الفرد حيث تتكون في ظلها وخلال السنوات الأولى من عمر الحدث النماذج الأساسية للتفكير والشعور والعادات والقيم التي تظهر تأثيرا واضحا ومستمرا على حياته في المستقبل، فالعائلة بعدم استقرارها قد تعود الحدث على عدم الاستقرار فيما بعد بالمدرسة والمهنة وتنمى لديه الشعور بالاضطراب الذي يمكن أن يؤدي إلى التشرد والانحراف .

وأهم هذه الأسباب :

- **التصدع المادي للأسرة :**

أي غياب الأب أو الأم أو كلاهما لأي سبب من الأسباب عن المنزل ، ولا شك أن غياب الوالدين أو أحدهما له تأثير على تربية الحدث وتوجيهه .

1 – زينب أحمد عوين ، مرجع سابق ، ص 32

ويؤكد " **هوير** " (Heuyer) من خلال بحث أجراه في مدينة باريس سنة 1942 أن 88٪ من الأحداث المنحرفين هم من أسر مفككة.[1]

- **عمل الأم خارج المنزل:**

حيث يترتب على عملها خارج المنزل قلة إشرافها ومتابعتها لتصرفات أبنائها، وبالتالي انشغالها عنهم.

- **التصدع المعنوي للأسرة :**

أي الخلل أو الاضطراب الذي يسود العلاقات بين أفراد الأسرة ، وسوء التفاهم الحاصل بين الوالدين وانعكاسه على شخصية الأولاد ، وجهل الوالدين بأساليب التربية السليمة، والدراسة التي قامت بها وحدة بحوث الجريمة والأحداث في جمهورية مصر العربية أثبتت أن أغلب أسر الأحداث الأسوياء كانت أكثر قربا إلي التكامل في نسقها البنائي والوظيفي من أسر الأحداث المشردين، فتفكك الأسرة وانحلال الرابطة الأسري سبب رئيس يدفع الحدث إلى الجنوح ويخلق فيه نفسية معقدة متوترة وتهيئه لارتكاب الجريمة ، وهذا لغياب الرادع الأخلاقي الذي ينمو ويترعرع في منزل مترابط وسليم وضمن عائلة متفاهمة و متعاونة ، وهذا ينعكس على سلوك الحدث حيث يضعه في مهب الريح ويكون عرضه للانزلاق السريع لعدم وجود مراقبة وتوجيه وتصحيح لسلوكه[2].

- **انخفاض المستوى التعليمي والثقافي للوالدين:**

فالحدث الذي يعيش في بيئة يحيط بها الجهل ويغيب عنها الوعي والإرشاد فإنه سيقع في الرذيلة والجريمة، حيث أن الأهل لا يتمكنون من توجيهه وإرشاده والتعامل بشكل مناسب مع متطلباته .

- **قلة المراقبة والمتابعة من الوالدين :**

وتتمثل في عدم متابعة ومساءلة الحدث على التأخير أو على بعض السلوكيات التي يقوم بها وعدم ملاحظته، وبالتالي لا يشعر أنه مراقب ومتابع وهنا سيندفع باتجاه الجريمة .

---

1 – نفس المرجع ، ص 34

2 – وليد شلاش، رعاية الأحداث، بط، الجامعة الإسلامية، غزة ، 2006 ، ص 97 .

- **جهل الوالدين بأساليب التربية السليمة:**

لجهل الوالدين بأساليب تربية النشء بشكل سليم، فالتربية ليست مجرد توفير طعام وكساء ومأوى، بل هي مجموعة من القيم والمبادئ السامية التي يتعلمها الحدث في الأسرة والمدرسة.

ومما يندرج تحت ضعف التربية، المعاملة السيئة للحدث والاحتقار الدائم له من قبل أسرته وعدم إعطائه فرص لإثبات ذاته، وهذا ممكن أن يولد عند الحدث الغيرة والانتقام وتحوله الى جانح ،كما يمكن أن يولد عند الحدث خيبة أمل من سوء المعاملة التي يتلقاها.

- **ضعف الوازع الديني عند الأسرة :**

حيث عدم إدراك الأسرة لتعاليم الديانة الإسلامية والتي تهدف في مجملها الى تربية نشئ صالح خالي من الأمراض الاجتماعية.[1]

- **أسباب تتعلق بالمسكن :**

يلعب المسكن دورا واضحا في تماسك الجماعة الأسرية أو تفككها وذلك من حيث اتساعه أو ضيقه، أو من حيث فتحاته وتهويته، فالمساكن المتسعة التي يجد فيه أفراد الأسرة فرص للتجمع وممارسة الألعاب الداخلية و الترويح تحقق كثيرا من الراحة النفسية لأفرادها وتدعم الروابط والعلاقات بين الأفراد، بخلاف المساكن الضيقة فإنها تدفع أفراد الأسرة إلي تقضية وقت كبير خارج المنزل مما يضعف من علاقات أفرادها بعضهم ببعض، وكذلك تتيح الفرصة الكافية أمام الأبناء لألوان من الترويح الخارجي الغير سوى مما يترتب عليه اندفاعهم في مجالات منحرفة كثيرة.

3-1-2- البيئة المدرسية ودورها في ظاهرة جنوح الأحداث[2] :

المدرسة مهمة في تكوين الطفل وحياته، فنجاح الأطفال أو فشلهم يتوقف على إمكانياتهم الذهنية وعلى نوع المعاملة التي يتلقونها في المدرسة سواء من المعلمين أو من زملاء الدراسة، لكن إذا كان الجو الدراسي غير ملائم فان هذا قد يؤدي إلي

1 - نفس المرجع، ص 98

2 - منيرة العصرة، رعاية الأحداث ومشكلة التقويم ، بط، المكتب المصري الحديث ، الإسكندرية، 1975، ص87 .

الانحراف و ارتكاب بعض الجرائم، فمن بين الأسباب التي تؤدي إلى جنوح الأحداث ما يلي:

- **الفشل في الدراسة :**

الفشل في الدراسة يرجع إلى عدة أسباب منها القصور الذهني عند البعض، أو عدم الرغبة بالعلم أو عدم الانسجام مع البرامج الدراسية عند البعض الآخر، فكل هذه الأمور تؤثر على شخصية الحدث وقد تدفعه إلى الهروب من المدرسة أو إلى الخداع والسرقة أو إبداء ردود فعل مضادة للمجتمع نتيجة الشعور بالنقص والقصور عن بقية زملائه.

فالفشل في الدراسة ينعكس على الحالة النفسية للطفل وهذا ما يدفعه إلى إطلاق العنان للنزعات الفردية والاعتداء و العنف بقصد التعويض عن عدم التوفيق الذي يسود حياته المدرسية.

كما أن الفشل في الدراسة قد يؤدى بالحدث أيضا إلى ترك المدرسة في مرحلة لم تكون لديه بعد مقومات مواجهة الحياة ومشاكلها بحيث يصبح معرضا للانحراف.

- **النظام الصارم داخل المدرسة :**[1]

تعتبر المدرسة أول سلطة للطفل خارج نطاق أسرته وعليه أن يتقبل هذه السلطة ويتكيف معها لأن عدم تكيفه معها ينمي لديه خيبة الأمل، وهنا على المدرسة أن تفرض حدا أدنى من القواعد والنظم التي تساعدها على أداء دورها، حيث إذا فرضت أسلوبا صارما لا يتفق والحد الطبيعي للأمور يؤدي ذلك إلى نفور الأطفال وهروبهم منها، وبالتالي تكون عاملا مساعد لانحراف الحدث.

- **دور المعلم في تنشئة الحدث :**

الدور الذي تلعبه المدرسة في التنشئة الاجتماعية يعتمد إلى حد كبير على شخصية المعلم الذي يمثل بالنسبة للطفل السلطة الواجب طاعتها، ويعتبر المثل الأعلى للطفل وقد ثبت أنه من الأمور التي قد تسبب جنوح الأحداث أو تهيئة الظروف للجريمة عجز المعلمين عن فهم طبيعة الطفل.

1 – نفس المرجع، ص 87

3-1-3- وسائل الإعلام والاتصال:[1]

قد تسهم وسائل الإعلام خاصة التلفزيون في شيوع ظاهرة العنف عند الأطفال أو في تنميتها وتطويرها، حيث انه ينمي عند الطفل شهية العنف، أو يضاعف من قوة العنف الكامنة في طبيعة الإنسان، كما يعلم الأطفال والشباب سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بعض الأساليب المناسبة لظهور العنف ، كما ويساعد على تخفيف الإحساس بالخطأ ،وبالتالي يظهر العنف عند النشء كظاهرة مألوفة وكأنها طابع العصر الذي نعيشه .

3-1-4- الرفاق أو الصحبة السيئة:

تعتبر جماعة الرفاق من أشد الجماعات تأثيرا على شخصية الحدث وتكوين الأنماط السلوكية عند الطفل ، فمنها ما يكون متسق مع السياق العام للمجتمع، ومنها من تكون منحرفة عنه ، ويؤثر الأصحاب في بعضهم بأساليب عديدة، حيث تشجعه الرفقة على بعض المغريات منها التدخين والسهر خارج المنزل وغيرها من المغريات، فاختيار الصديق ممكن أن يخلق الشخص أو يقضي عليه، كما وتتألف مجموعة الرفاق من صبية يلتمسون في تجمعهم عوضا عن إهمال العائلة، وقوة الفقر أو القسوة الزائدة في معاملة الأسرة، فتمثل لهم المجموعة عنصر قوة ومناعة وتشبع حاجاتهم إلى الأمن وتأكيد الذات، لذلك نجدهم يتهورون في سلوكهم ويغامرون لتحقيق أهدافهم، مما قد يوقعهم في الجرائم والانحراف.[2]

3-2- أسباب شخصية:

3-2-1- العوامل النفسية:

تعرضت مدارس علم النفس المعاصرة لتحليل و دراسة مراحل تطور الإنسان منذ طفولته قصد تفسير سلوكه بشقيه الطبيعي و الجانح، وفي هذا المجال نجد أن الطبيب النفساني النمساوي" فرويد" قسم شخصية الفرد إلى ثلاثة عناصر هي الذات الدنيا، الذات الوسطى و الذات العليا، بحيث يفسر الذات الدنيا في اصطلاحه بالجزء الغريزي من الشخصية و الذي يمثل الروح الشهوانية التي هدفها تلبية و إشباع

1 – نفس المرجع، ص88

2 – وليد شلاش ،مرجع سابق ، ص 99.

الغرائز الفطرية التي أوجدها الخالق في الإنسان منذ بداية حياته، وذلك بشكل لا شعوري و ليس له اتصال بالحقيقة أو العقل و حتى بالمنطق و بالتالي فإن هذا الجزء (الذات الدنيا) في الشخصية ليست له القدرة على التفكير المتعقل و هدفه الرئيسي هو إيجاد منفذ لدوافعه الغريزية قصد إشباعها دون أية اعتبارات أخرى.

أما العنصر الثاني في الشخصية الإنسانية فهو الذات الوسطى وهو الجزء الواقعي أو الشعوري و الذي ينشأ و ينمو من الذات الدنيا من خلال احتكاك الطفل بمحيطه الخارجي حيث يبدأ بتمييز نفسه عن غيره فتزداد رغباته و تتشعب و لكنه يجد نفسه عاجزا عن تحقيقها كلها فينشب صراع بين غرائزه وبيئته و بذلك يقوى شعوره بذاته و تتكون شخصيته، فنلاحظ أن الذات الوسطى تجاهد دائما في سبيل العدل و الحق و الخير و تقع تحت ضغط الشهوة النفسية (الذات الدنيا) من جهة وقسوة الضمير (الذات العليا) من جهة ثانية.

والعنصر الثالث في تشكيل الشخصية هو الذات العليا (الضمير) والذي يمثل معايير الفرد و قيمه و مبادئه و مثله العليا، فهو السلطة العليا في الإنسان فإذا لم يستحب الفرد لندائه يعاقب عن طريق قوة داخلية من خلال الشعور بالذنب وكراهية الذات و نبذها، و يعطي "فرويد" أهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد.

ومن هذا المنطلق فإن الطفل أو الحدث الجانح يرتكب أفعاله المخالفة لسلوك الجماعة مدفوعا بمشاعر ذنب شديدة ناتجة عن الضمير، فسوء تكوين الذات العليا لدى شخصية الطفل حسب "فرويد" دائما يجعله يبقى متعلقا بأمه و مشحونا بنوايا عدوانية عن غير وعي تجاه أبيه مما يولد لديه مشاعر ذنب وخوف من انتقام الأب وهكذا يتكون لديه ضمير عنف وانعدام العلاقات العاطفية.

من جهة أخرى قد يصاب الطفل بأمراض نفسية فتلجأ شخصيته إلى محاولة حماية نفسها و عندما يتعذر عليها التوفيق في ذلك تبدو عليه الهستيريا و القلق و الوسواس...الخ، و المصاب بهذه الأمراض لا يبدو عليه أي خلل عضوي كما هو الحال في الأمراض الجسدية كما أنها تختلف عن الأمراض العصبية التي تنتج عن إصابات في المخ، و منه فان شخصية الحدث وحالته الانفعالية وميوله ورغباته ودرجة إشباع الحدث لحاجاته النفسية مثلا لحاجته للأمن والأمان، الحاجة إلى الحب، إلى

التفوق والطموح و النجاح تلعب دورا مهما في تحديد سلوك الحدث، كما أن درجة الذكاء ومدى قدرة العقل على القيام بوظائفه "من إدراك وربط، وتفسير وتفكير وتذكر... الخ"، وهناك من ربط بين الجناح والضعف العقلي، حيث أن الحدث الذي يعاني من ضعف عقلي ليس لديه القدرة على تميز بين الأمور وإدراك الصح من الخطأ وليس لديه القدرة على تقدير عواقب الأمور وقابليتهم للاستهواء وبالتالي اقتراف السلوك الجانح[1]

3-2-2- العوامل البيولوجية:

اهتم علماء الإجرام وعلى رأسهم "سيزار لمبروزو" بالعوامل البيولوجية وتدخلها في تشكيل شخصية المجرم و سلوكه المنحرف، حيث اعتبر أن توفر بعض الصفات أو السمات في الطفل منذ صغره هو مؤشر على أن يصبح فيما بعد من الجانحين أو المجرمين، و قد خلص هذا العالم في دراسته إلى أن الصفات الجسمية للطفل و المتمثلة في الطول، الوزن، طول الذراعين و الساقين، القدمين شكل الجمجمة، حجم الوجه، الأنف، الشفتين، الحاجبين ...الخ، إذا كانت وفق أشكال معينة و تتوفر فيها بعض الصفات فإنها تكون بمثابة علامات مسبقة تدل على أن حاملها يرجح أن يميل إلى الإجرام.

ومن جهة أخرى فإن نقص أو عدم اكتمال النمو العقلي للشخص سواء لعوامل وراثية أو نتيجة أمراض عضوية تؤثر على جهازه العصبي يؤدي إلى نقص الذكاء وضعف مستوى أدائه وقد يكون كذلك عاملا من العوامل المساعدة على إتيان السلوكيات المنحرفة و بالتالي الميل للإجرام.[2]

1 - فتحي عبد العليم الجابري، جنوح الاحداث، العدد5، 2010 http://kenanaonline.com/users/FATEHYALJABRI/posts/

2 - عبد العاطي فرج علي،لاتجاهات النظرية في دراسة الجريمة والانحراف: دراسة في سوسيولوجيا الجريمة، مجلة العلوم الاجتماعية http://www.swmsa.net/art/2013

4- أهم النظريات التي تحدثت في أسباب جنوح الأحداث:

4-1- النظرية البيولوجية:[1]

يرى أصحاب هذه النظرية إن العامل الفيزيقي هو العامل الأساسي في الانحراف، فهم يرون إن هناك خصائص جسمية، و سمات شخصية، و جينات وراثية معينة تميز المنحرفين فهم في رأيهم يتميزون بقصر القامة و جباه ضيقة، و أذان كبيرة، و أيدي طويلة، و كثافة شعر أجسامهم، ويرى البعض منهم إن معظم المنحرفين يعانون من مرض الديلكسا، ومن أعراض هذا المرض عدم قدرة الفرد على القراءة الصحيحة، فهو يرى الحروف بشكل غير منضم يصعب قرأتها، و نتيجة لذلك فإن الطفل يظهر الكثير من التذمر على الدراسة، وعدم القدرة على التركيز، وعادة ما يكون مصدر شغب في الصف، لذلك كثيرا ما يلجا الطفل إلى أساليب أخرى لجذب الانتباه و مثل هذه التصرفات قد تشخص من قبل الآخرين بالانحراف، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن كثيرا من هذه هؤلاء الأطفال قد يتمتعون بمستوى طبيعي من الذكاء، بل قد يكونوا في غاية الذكاء ولكن يحتاجون إلى الطريقة خاصة في التعليم. وهذا يعني أن وجود نسبة من المجرمين الذين يعانون من هذا المرض لا يرجع إلى هذا المرض، بقدر ما يرجع إلى الضغوط النفسية و الاجتماعية التي يعاني منها الطفل المريض بهذا المرض، والتي تدفعه إلى ترك الدراسة وسن مبكرة والانخراط في جماعات أخرى تحقق له الإشباع النفسي الذي يحتاجه والذي لا يجده في الأسرة أو المدرسة.

4-2- النظريات النفسية:

4-2-1- المنظور التحليلي[2]:

لقد ساهمت نظرية التحليل النفسي بشكل كبير في فهم وتفسير السلوك الجانح، فحسب "فرويد" "Freud" إن الجانح يرتكب أفعاله المضادة للمجتمع بحثا عن العقاب فهو مدفوع بمشاعر الذنب الناتجة عن أنا أعلى مفرط في قسوته.

---

1 - وليد شلاش ،مرجع سابق ، ص 112.

2 - علي محمد جعفر، الأحداث المنحرفون، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1996 ، ص ص22 – 25.

وينشأ الأنا الأعلى القاسي حسب "فرويد" (نتيجة فشل الطفل في حل عقدة أوديب، مما يجعله دائم التعلق بأمه ويحمل نفسه مشاعر العدوانية اللاواعية اتجاه الأب، الأمر الذي يجعل الأنا الأعلى يتميز بالعنف الذي يظهر على شكل مشاعر ذنب قوية تحتاج لعقاب كي تهدأ.

ويتفق "فرويد" "Freud"مع بعض أتباعه " Leborrée Pàche – Kate" Freindllande أن ظاهرة التكرار عند الجانحين الفاشلين لديهم انجذاب نحو السجن، ففي السجن يظهر عليه الهدوء لأن العقاب قد أسكت صوت الأنا الأعلى.

لكن بعد خروجه لا يمر زمن من حريته حتى يعلو صوت الأنا الأعلى مطالبا بالعقاب من خلال إثارة مشاعر الذنب الشديدة ويستجيب الجانح بالعدوان والسلوك المضاد للمجتمع فيعاقب من جديد وهكذا ترسخ الحلقة المفرغة التي تميز حياة هؤلاء المكررين:

مشاعر ذنب – سلوك عدواني جانح – عقاب –مشاعر ذنب ... الخ.

أما ميلاني كلاين "Melanée Klein" تقول أن المنحرف مدفوع أساسا بأنا أعلى عنيف وهمجي لكن "Klein" تختلف مع "Frend" حول نشأة الأنا الأعلى، فبينما يرده "Frend" إلى سن 05 إلى 06 سنوات، أما "Klein" ترى بأن الأنا الأعلى ينشأ خلال السنة الأولى من العمر وهي ترجعه إلى العلاقة الأولية مع الأم فإذا كانت هذه العلاقة وما رافقها علاقة سارة ومطمئنة ومشبعة للطفل تكونت لديه صورة إيجابية مع الأم – الصالحة، بينما إذا كانت التجربة الأولى مؤلمة ومحبطة، ولم يحصل الطفل على الارتياح تكون لديه صورة سلبية عن الأم[1]، وعليه تؤدي صورة الأم الصالحة إلى تكون صورة إيجابية عن الذات وبتالي ينشأ أنا أعلى ودودا، أما الصورة السيئة فتؤدي إلى تكون قيمة سلبية عن الذات وإلى تكون أنا أعلى همجي وعنيف[2].

ومهما كانت العلاقة إيجابية مع الطفل، فالعلاقة بينهما معرضة لتكون صورة سيئة أو سلبية عنها ويحدث ذلك في الحالات العادية لأنه يصمم خلال المرحلة الفمية

1 – مصطفى حجازي، الأحداث الجانحون، ط، دار الطليعة، بيروت ، 1995، ص26.

2 – نفس المرجع، ص26

السادية في نهاية السنة الأولى حيث تكون الميول السادية (العنف القيمي من خلال العض، الابتلاع والتملك) وتصبغ بطابعها الصورة التي يكونها عن الأم وعن ذاته ويؤدي ذلك إلى نشأة أنا أعلى عنيف، هذه الصورة الداخلية تسقط على الخارج في خطوة ثانية فتلون الموضوعات الخارجية بهذه الصيغة السادية[1]، وهكذا ينمو الطفل تحت وطأة الخوف من أن يتلقى من الموضوعات الخارجية الحقيقية، ومن أناه الأعلى هجمات من خياله قصد الاحتماء من الخوف الذي له موضوعاته الخارجية والداخلية، ويحاول خلالها إسكات صوت الأنا الأعلى بالقضاء على الموضوعات التي تغذيه والأم السيئة والأشخاص العدوانيين الخطرين خياليا.

ويؤدي ذلك إلى إقامة حلقة مفرغة من القلق النابع عن تهديد الموضوعات، يدفع بالطفل إلى تحطيمها، وهذا التحطيم يولد في نفسه الخوف من انتقام هذه الموضوعات خلال مبادلته. العدوان والعنف مما يؤدي إلى زيادة شدة القلق وإلى مزيد من نوايا العدوان والتحطيم هذه الحلقة المفرغة .

- فرويد : الجنوح ناتج عن "أنا أعلى" عنيف.
- أيشهورن : الجنوح ناتج عن "أنا أعلى" غائب أو ضعيف جداً.
- ناشت : الجنوح ينتج إما عن "أنا أعلى ضعيف لا يقاوم الغرائز، أو "أنا أعلى" عنيف يبحث عن العقاب من خلال مروره إلى الفعل.
- ميلاني كلاين ووينى - كونت : تناولا اضطرابات العلاقات الأولية وأهميتها في نشوء السلوك الجانح.
- سبيتزو أنافرويد : ألحا على أهمية اضطراب العلاقات الأولية والانفصال المبكر وأثرهما في نشأة السلوك الجانح.
- كيستنبرغ : تشكل بالنسبة إليه عقدة أوديب نواة البنية النفسية، وتمر عبر الموضوع قبل أن يكون الموضوع نفسه مدركا.
- برونشويك وكيشان : بالنسبة لهما .. كلما استثمرت الشبقية الذاتية بشكل مبالغ فيه، أدت إلى اضطرابات على مستوى توزيع الطاقات النفسية.[2]

1 نفس المرجع، ص27

2 نفس المرجع، ص27.

4-2-2- المنظور السلوكي[1]:

يذهب هذا التناول إلى رفض كل ما هو وراثي أو غريزي و لا يعترف في تفسيره للسلوك المنحرف إلا بالعوامل البيئية المكتسبة أو المتعلمة فالأمر حسبه يعود كله إلى المؤثرات البيئية.

والسلوك ليس سوى ردود فعل معقدة لمثيرات معقدة يتلقها الشخص من بيئته وقد اقتبس"Sutherland" من هذه المدرسة مبدأ السلوك المتعلم أو المكتسب، فهو يقول أن السلوك المنحرف متعلم وهو وليد ميزات خارجية تلقاها الشخص من الجماعة المنحرفة التي ينتمي إليها.

ودائما من خلال هذا التناول أدخل "Dallard" فرضية تتمثل:

في كون الإحباط هو العنصر الأساسي والوحيد في الانحراف ومن المعروف أن العقاب يمكن أن يثبت التظاهرات العدوانية.

ولكن كما أشار"Dallardn" أن إدخال العقاب يمكن أن يؤدي إلى العدوانية حول الذات، حتى إذا كانت العدوانية معاقبة تبقى دائما الاستشارة لها حول موضوع آخر محبط.[2]

وعليه أدخلت أهمية المحيط الذي يتبادل السلوك مع الفرد لكن ينتج استجابات عدوانية، وقد شرح باحثون آخرون – الجناح – الانحراف – انطلاق من العوامل الاجتماعية المحيطة، خاصة العوامل الاقتصادية المدنية والحرمان الاجتماعي الثقافي والتمييز العنصري، وصعوبة تحقيق الأهداف الاجتماعية، وصعوبة تحقيق الأهداف الاجتماعية. فحسب جلوك أن العديد من العائلات تساهم في تطور السلوك الجانح.[3]

إن تركيز التناول السلوكي على فكرة الانحراف متعلم، رغم صحة ذلك إلا أنه يبقى تفسير نسبي لأن التركيز على البيئة والمحيط الاجتماعي لا يعني إهمال الجانب الشخصي في السلوك المنحرف.

---

1 – نفس المرجع، ص29

2 – عدنان الدوري، أسباب الجريمة وطبيعة السلوك الإجرامي، ط3، دار ذات السلاسل للنشر و التوزيع، الكويت، 1984 ، ص196.

3 – نفس المرجع، ص196.

4-2-3- المنظور الاجتماعي:[1]

يركز علماء هذه النظرية على أهمية تأثيرا لوسط الاجتماعي أو البيئة الاجتماعية على الفرد، فعلى سبيل المثال وجد أن الأعضاء المنتمين إلى الجماعات المظلومة أو المهضومة حقوقها أو التي لا تحصل على الميزات مثل بقية الجماعات الأخرى في المجتمع، نجدهم أحيانا يسلكون السلوك الجانح كاستجابة للحرمان الاجتماعي و الاقتصادي الذي يعانون منه، أيضا عندما يعاني المجتمع من التفكك الاجتماعي أو سوء التنظيم الاجتماعي فأن الأفراد يجدون أمامهم فرصا للتهرب من ضغوط المعايير الاجتماعية، وجهة نظر أخرى تشير إلى أن السلوك الجانح هي نتاج ضعف مؤسسات الضبط الاجتماعي الرسمي وغير الرسمي مثل الأسرة و المدرسة و المؤسسة الدينية، الشرطة، و المحاكم.

ويرى "روبت ميرتون" بأن الفرد عندما لا يستطيع تحقيق الأهداف و لا يجد الوسائل المشروعة لتحقيقها، فأنه يترك هذه الأهداف و ينسحب من حياة المجتمع على سبيل المثال : التسرب من المدرسة، الهروب من العمل، الإدمان على المكسرات أو المخدرات، أو الانتحار، أو يرفض الأهداف و الوسائل ويضع بدلا منها أهدافا و وسائل خاصة به وبزملائه في مثل موقفه ويحاولوا أن يفرضوها على المجتمع .

5- العلاج:

5-1- الخطة العلاجية التي يقوم بها الأخصائيون:[2]

يضع الأخصائي الاجتماعي خطة علاجية تنصبّ على شخصية الحدث هو العلاج الذاتي وعلى الظروف المحيطة (العلاج البيئي) .

- العلاج الذاتي هدفه الوقاية.
- توجيه طاقاته (فرط نشاط) نحو نواح إيجابية مثل الأنشطة الثقافية والرياضية والفنية ..

---

1 - نفس المرجع، ص 197.

2- سميرة ستارتايمز ، عوامل و اسباب جنوح الاحداث، العدد32، 2010.
http://www.startimes.com/f.aspx?t=22799043

- رفع إمكانياته ودعمه نفسياً ومعنوياً وتشجيعه للمضي نحو الأفضل بتدعيم ذات الحدث لإزالة المشاعر السلبية كالخوف والعداء والشعور بالذنب .
- تعويض حالة الإحساس بالنقص (حسب حالته) .
- نبعده عمّا يثير أعصابه ونستمع إليه باهتمام وإعطائه الراحة النفسية بأنني سأتابع معه أي جديد.
- تعليمه ضبط انفعالاته (بتعويده اللامبالاة أو عدم الاكتراث أي تجاهل الأشخاص) وخصوصاً زملائه القدامى . كي لا يثير المشاكل معهم وأن يتعوّد على وجوده بالمكان وتقبلّه لأي شخص أو أي طارئ .
- التخفيف من حدّة العداء وإبعاده عمّا يثير عدائيته (والديه – جيرانه – أو أي شخص آخر) ، طبعاً كل حالة لها أسبابها.
- تعديل عادات الحدث عن طريق تعليمه وتبصيره بالتوضيح والإقناع .
- التأكيد على فهم الذات وحدوده (ماله ليقلل من حب السيطرة وما عليه) .
- تعديل استجابات الحدث السلبية والعدوانية وسلوكه الاندفاعي عن طريق النصح والإيحاء (نعاقب على السلوك الخاطئ ونعزز السلوك المرغوب) .
- **العلاج البيئي**
- الظروف المحيطة بالحدث من المؤسسة أو من موارد البيئة (مثل حالات المرض الجسمي أو النفسي) وتوفير الرعاية اللاحقة عن طريق برامج تدريب وتشغيل ومتابعة تعليمه وعلاج الصعوبات والمشكلات (العمل على إعادة دمجهم بالمجتمع).
- متابعة دراستهم خارج المؤسسة.
- تعديل اتجاهات المحيطين بالحدث (الوالدين – زوجة الأب ... الخ) بهدف تخفيف ما يحيط بالحدث من ضغوط خارجية .

5-2- الاعتبارات التي يجب الأخذ بها عند التعامل مع الأحداث الجانحين[1]

- معرفة الحدث وشبكة العلاقات الاجتماعية المحيطة.
- تقبل الحدث واحترامه (وفصل الشخصية عن السلوك).

1 نفس المرجع

- تهيئة الزمان والمكان وكيفية بدء العلاقة.
- التركيز على منابع القوة والتخلص من نقاط الضعف.
- التعامل معه ومن مبدأ (هنا والآن) والانتباه للوضع الصحي والنفسي والبيئة الاجتماعية.
- السرية ، الثقة ، التقبّل ، الاهتمام ، الإصغاء ، مراعاة الفروق الفردية والعمرية.

إن اعتبار مشكلة جنوح الأحداث ظاهرة اجتماعية هامة تحتاج إلى تدابير وقاية وتدابير الرعاية أكثر ممّا تحتاج إلى تدبير الردع والجزاء، والحدث شخص لم تتوفر له الظروف التي تهيئ النمو السليم نفسياً واجتماعياً فأصابه الخلل فانحرف وشذّ.

ويتجلى دور الأخصائي الاجتماعي والنفسي في مد يد العون للسير بمن هم في حاجة الرعاية والخدمة نحو مستقبل أفضل ، حيث يمثل الأخصائي الاجتماعي والنفسي في مهمته انعطافاً في حياة من هم موضوع الاهتمام والرعاية كما يمثّل فشل الأخصائي في مهمته انتكاساً قد لا تتيح فرص الحياة معالجته مرة أخرى . لذا يجب أن يتقبّل الأخصائي واقع الحدث المنحرف والذي هو موضوع الاهتمام والدراسة كما هو لاكما ينبغي أن يكون ، فهو يتقبله ويشعره بالاهتمام وباحترام كرامته، وتقدير ظروفه وأوضاعه واحتياجاته من أجل أن يخلق نوعاً من الثقة بينه وبين الحدث تلك الثقة التي تمكّن الأخصائي من أن يرتقي بأوضاع الحدث ويساعده في تجاوز أوضاعه، ولا يعني تقبّل الأخصائي لأوضاع الحدث موافقته له أو تقديم تبريرات لانحرافه وإنما يعني ذلك اتخاذ موقف المشخص الذي يرى أمامه حالة أو قضية يجب فهمها وتشخيصها لمعالجتها.

6-المقترحات والتوصيات الخاصة بالوقاية من جنوح الأحداث :

- تقوية دور الأسرة وفاعليتها، وحمايتها، وحماية الأطفال من العنف وسوء المعاملة .
- نشر الوعي بين الآباء والأمهات حول المشاكل الصحية والنفسية والاجتماعية التي يتعرض لها الأطفال والمراهقون وطرق معالجتها .

- تعميق دور المدرسة والتعاون مع الأسرة من أجل بناء شخصية الطفل العلمية والنفسية والاجتماعية .
- الإكثار من البرامج التثقيفية والترفيهية المناسبة للأطفال والأحداث .
- إعطاء الأطفال والمراهقين الفرصة للتعبير عن أنفسهم وطرح مشاكلهم وبيان ما يعانون أو يخافون منه .
- مراقبة نشاطات الأطفال والأحداث وتجمعاتهم وصداقاتهم وحصرها ضمن دوائر سليمة .
- تنمية الوعي الديني في المجتمع خاصة عند فئة الشباب والمراهقين .

République Algérienne Démocratique et populaire
Ministère de l'Enseignement Supérieur
Et de la Recherche Scientifique
Université de Ghardaïa

Revue

Rawafid

Pour les Recherche et les études

,Périodique international à Comité de lecture
Editée par le Laboratoire de L'histoire et Civilisation musulmane
Université de Ghardaïa- Algérie

N° : 02

Ramadan 1438/Juin 2017

P: ISSN: 2543-3563
E: ISSN: 2588-1787

République Algérienne Démocratique et populaire
Ministère de l'Enseignement Supérieur
Et de la Recherche Scientifique
Université de Ghardaïa

Revue

Rawafid

Pour les Recherche et les études

,Périodique international à Comité de lecture
Editée par le Laboratoire de L'histoire et Civilisation musulmane
Université de Ghardaïa- Algérie

N° : 02

Ramadan 1438/Juin 2017

P: ISSN: 2543-3563
E: ISSN: 2588-1787